د/ أحمد خليل

أضواء على طريق العودة إلى الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ »

صدق الله العظيم

مصر العربية للنشر والتوزيع

تليفون : ٢٥٦٢٢٦٨

ص . ب : ٥٧٤٠ هليوبوليس غرب

العنوان : ١٣ أ شارع إسلام - حمامات القبة - القاهرة

الطبعة الأولى ١٩٨٨

تصميم الغلاف
عنايـة الله

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

(مقدمــة)

العالم كله اليوم بشقيه المتقدم والنامي . يعيش في أزمة طاحنة تتمثل في خلو العالم المتقدم من القيم المعنوية ومن المضمون العقيدى مع شيوع الانحلال وسيطرة الوثنية المادية ، ولكنه بالرغم من ذلك لاتزال فيه قيم حضارية تتمثل في النظام والعمل الجاد ، وتترجم الى واقع عملي في المؤسسات الدستورية ، بينما العالم النامي يعيش في أزمة حادة تغاير تماما أزمة العالم المتقدم ، وتتمثل أزمة العالم النامي في الركود والجمود ، مع خلّوه من كثير من القيم الحضارية ، وان وجد لديه قيم معنوية تتمثل في الايمان ومايتبعه من قيم ، ويوجد لدى العالم الإسلامي بشكل خاص أمران ذو أهمية بالغة ، هما : كتاب الله وسنة رسوله ، حيث تكفل الله بحفظ كتابه ، وبذل المسلمون الأولون جهودا مضنية في المحافظة على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأمر الثاني : هو بقاء القيم والتقاليد الإسلامية وما لها من تأثير في المجتمعات الإسلامية القروية والبدوية ، وان كانت تمشي على استحياء في مجتمع المدينة وتنكمش داخل مجتمع القرية .

وتشتد الأزمة العالمية كل يوم بسبب هذا الخلل المتمثل في العالمين المتقدم والنامي مما يهدد بكارثة عالمية لامجال للخروج منها الا بوجود قوة جديدة ، تجمع بين القيم الحضارية والقيم الروحية ، ولن يكون ذلك الا للمسلمين لأنهم وحدهم الذين يملكون وثيقة سماوية خالدة ، لم يدخلها تحريف ولاتزييف ، يقول احد فلاسفة الشرق الشيوعي : « لقد مرت بالعالم ثورتان الثورة الفرنسية والثورة الشيوعية ، وذلك من أجل حل المشاكل البشرية ، لكنهما لم تستطيعا أن تقدما حلولا جذرية للمشاكل

الناجمة عن التقدم الحضارى وحركة التغير في المجتمع البشرى ، ثم يقول : ونحن على وشك قيام ثورة ثالثة هى الثورة الإسلامية لتتقدم لحل مشاكل البشرية المزمنة » ثم يقول محرر (اللوموند) الفرنسية معلقا على ذلك ليذكر ساسة الغرب أن ذاكرة الشعوب لاتنسى ان كانوا قد اصيبوا بفقدان الذاكرة . ويقول (توينبي) المؤرخ الغربي : « ان الحضارة المادية المعاصرة مصيرها الى الزوال لخلوّها من المضمون العقيدى ، وان الحضارة الإسلامية هى التي ستحل محلها وان كنت لا أتمنى ذلك»! .

ويرى المفكر الإسلامي مالك بن نبي أن عنق الزجاجة التي يمر بها العالم كله هى الربع الأخير من القرن العشرين فاما أن يتقدم الإسلام لحل الأزمة العالمية المعاصرة والا فان مآل العالم كله للدمار ، واذا أردنا أن نحدد مكان كل من العالمين المتقدم والنامي على خارطة الدورة الحضارية فاننا نقول : ان العالم المتقدم يعيش الآن في بداية لحظة الانكسار ، وهى بداية تظهر معها أعراض المرض وآثاره الجانبية ، وان كان لايظهر فيها خطورة أبعاده وحقيقة آثاره المدمرة ، بينما يعيش العالم الإسلامي في نهاية مرحلة الانكسار وعلى أبواب مرحلة جديدة هى بداية لدورة حضارية قادمة وهى مرحلة خطيرة ومرهقة في نفس الوقت ، وتتمثل هذه البداية في حالة القلق التي بدأت تسود العالم الإسلامي ، والقلق هو دليل الحياة وهو نهاية لمرحلة الخمول والجمود والعقم الحضارى التي تمثلت فيها أزمتنا الراهنة ، لكن السؤال الذى يطرح نفسه تلقائيا هو : كيف يستطيع العالم الإسلامي ان يجتاز هذه المحنة وأن يبدأ دورة حضارية جديدة تتخلص من سلبيات العالم المتقدم والعالم النامي على السواء ؟ .

ان الخلل الذى نتج عن هذه السلبيات يتمثل في « تقزيم » شخصية الانسان المسلم إنْ في مجال الفكر أو مجال العمل ، وقد ترتب على هذا خلل في المجتمع الإسلامي أدى الى أفول حضارى ، لم يفق العالم الإسلامي منه الا على صفعة الاستعمار القاسية التي أيقظته من سباته العميق ، وقد بدأ يتخبط ذات اليمين وذات الشمال ، مما أضعف حركته وعاق سيره ، وبعثر جهوده ، ومما زاد الطين بلة أن العالم الغربي استطاع عن طريق المؤامرات المدبرة أن يلغي الخلافة الإسلامية ، ولم يكن في العالم الإسلامي مؤسسات اسلامية على غرار الفاتيكان أو الجمعيات الصهيونية ،

فانفرط العقد بلا ضابط ولارابط .

ولقد قام في العالم الإسلامي مصلحون افذاذ استهدفوا بعث الأمة الإسلامية من جديد في مواجهة التحديات المصيرية التي تجابهه وحاولوا تشخيص المرض وتشخيص الدواء الناجع لتلك المرحلة ، فبعضهم يرى أن مشكلة العالم الإسلامي مشكلة سياسية وتتلخص في ازالة الاستعمار ويتبعه زوال الفساد السياسي وبذا تقوم الأمة من محنتها لمباشرة مهمتها ، اما البعض الآخر فكان يرى ان مشكلة العالم الاسلامي هى الجهل وأن تعليم الأمة وتربيتها هو الطريق لحل مشاكلها وعودتها لحمل رسالتها .

ويرى فريق ثالث أن مشكلة الأمة تتمثل في الفقر ، وفي التخلف التقني والمادى وأن ازالة اساس المشكلة وهو الفقر ، وحدوث تقدم تقني ومادى كفيل بحل مشكلة المسلمين المعاصرة ولاشك ان هذه الأسباب مجتمعة أو منفردة لها رصيد من الواقع في تخلف المسلمين لكن المشكلة أن الجهود المضنية التي بذلها المصلحون الأفاضل ساعدت في تكوين رأى مستنير يفهم المشكلة من تلك الزوايا لكنه لم يستطع أن يقدم حلولا جذرية للمشكلة .

ان السنن الاجتماعية كسنن الله في الكون المادى ، ففي الكون المادى نجد أن تركيب مادتي الأوكسجين والهيدروجين في ظروف معينة وبكيفية معينة ينتج عنهما الماء . كذلك الأمر بالنسبة للانسان فهناك أمور محددة وهى (القلب والعقل واليد) حين ينفعل القلب لقضية معينة يعيش لها ويموت من أجلها ، وحين يبذل العقل اقصى مايستطيع لايجاد المبررات التي تدفع الانسان للتضحية بنفسه وماله وجهده ووقته في سبيل قضيته التي آمن بها ، وحين تعد اليد أو بمعنى آخر الطاقة الحركية اعدادا فنيا كاملا ، حينئذ يأتي نتيجة هذه العوامل الثلاثة الشخصية المتحركة في التاريخ ، وقد قال فلاسفة التاريخ وعلماء الحضارة أن التاريخ هو مجموع نبضات القلب ومواهب العقل وحركات اليد ، وحاصل ضرب هذه الأمور الثلاثة في عدد أفراد الأمة يحدد مكانة الأمة ومشكلتنا المزمنة أننا لم نستطع حتى الآن تنمية وحشد طاقات الفرد المسلم ، فضلا عن تنمية وحشد طاقات الأمة ، ولاشك أنه توجد

صعوبات كثيرة في هذا المجال ، ولكنها صعوبات غير مستعصية على عزائم الرجال ، اذا صح العزم وخلصت النية وتوحدت الجهود .

ان هناك أمورا محددة يجب توافرها لحشد طاقات هذه الأمة :

أولا : لابد أن يكون لنا مؤسسات لدراسة الجوانب السلبية والايجابية في المجال الاقتصادى والسياسي والثقافي وتقوم هذه الدراسة على الاحصائيات التي تجرى في المجال العملي .

ثانيا : ان تكون لدينا مؤسسات لدراسة أبعاد المخططات العالمية بالنسبة لمنطقتنا الإسلامية . إنْ في مجال الحاضر أو المستقبل أو بالنسبة للمخططات الماضية .

ثالثا : وجود مؤسسات اسلامية تستهدف تصفية السلبيات الموجودة في التاريخ الإسلامي وفي الثقافة الإسلامية التي انحدرت الينا من عصر الجمود او التي انحدرت الينا من الثقافة المادية المعاصرة وتقديم الحقائق الإسلامية كاملة بالاسلوب المعاصر ، وبما يتناسب مع ثقافة مختلف الأفراد ، على أن توجد هذه المؤسسات في كل مجال وفي كل قرية وفي مختلف انحاء المدينة ، بحيث تستطيع أن تتحكم في صناعة عقلية الانسان المسلم وحمايتها من مخططات التهويد والتنصير والعلمانية واليسارية على حد سواء .

ان هناك مشكلتين رئيسيتين تواجهان العمل الإسلامي :
احدهما : انعدام مناخ الحرية في بلاد المسلمين .
والثانية : انعدام الوعي الاسلامي والسياسي منه بشكل خاص .

ومعظم المآسي التي لحقت بالاتجاه الإسلامي ترجع الى هذه الأمرين ومع اشتداد ظلمة الليل وحلكته فان ذلك يؤذن بقرب طلوع الفجر الصادق .

ولعل أقرب الطرق وسط هذا الظلام الدامس انما يكون في تفجير المأساة

الإسلامية في ضمير المسلمَ كي ينمي طاقاته لمجابهة التحديات التي تواجهه .

ان تفجير المأساة في الضمير الاسلامي عنصر هام لشحذ همته وتقوية عزيمته ، وان ادراكه للتحديات التي تواجهه واصراره على مجابهتها انما هو خيط الفجر الصادق الذى يعقبه بزوغ يوم جديد وبدء دورة حضارية جديدة ، يتسلم فيها الإسلام زمام قيادة البشرية .

ولاشك ان هناك عوامل عدة لتفجير المأساة في ضمير المسلم ، منها التركيز على دور أمة الشهادة في الوجود ، وبيان الحقائق الإسلامية التي يجب أن تسود المجتمع ، والقيم الإسلامية التي يجب أن يتصف بها الفرد المسلم ، والمقارنة بين ذلك وبين واقع الأمة ، ثم توضيح مساوىء الوثنية المادية الممثلة في الحضارة المعاصرة بشقيها الغربي والشرقي وخطورة الايدولوجيات التي تنطوى عليها وهي العلمانية والشيوعية والوجودية والوضعية وغير ذلك من المبادىء التي تستهدف تدمير قيم السماء بشكل عام والإسلام بشكل خاص .

ويجب أن يدرك المسلم المعاصر أنه سوف يظل يواجه تحديات مادام على ظهر هذه الأرض حتى ولو قامت دولة الاسلام ، بل ان التحديات آنذاك تكون اشد لأنها تتمثل في المنافقين الذين يتحمسون للإسلام اكثر من رجاله الحقيقيين بينما هم ينطوون على الكفر تلك هى سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وقد كان القرآن الكريم في عهد الصدر الأول يكشف المنافقين ويعرى أسلوبهم فيحذرهم المؤمنون اما الآن فان الأمر يكون اشد صعوبة واخطر اثرا حيث ان كشف دور المنافقين بالنسبة لنا امر شديد التعقيد .

وفضلا عما تقدم فان غيبة القيادة الإسلامية من المآسي الخطيرة التي تواجه المسلمين . انه لو وجدت قيادة إسلامية لاستطاعت ان تحشد من أماكن اللهو في بلاد المسلمين اكثر من مليوني مجاهد لتحرير بيت المقدس ، هذا فضلا عن الذين

سيحملون لواء الجهاد من المؤسسات الإسلامية وفي مقدمتها المسجد .

ان خميرة الايمان موجودة في قلوب المسلمين لكنه ايمان جذبي لايدفع صاحبه الى التسامي وانما يحتاج الى قوة تحركه ، ونحن نريد أن يكون الايمان قوة محركة بذاته يدفع المسلم الى التحرك في جميع الميادين ، وان يكون الكون كله مسرحه ، فالمؤمن اذا لم يدرك أن الكون كله خلق له فليس بواع لرسالته في هذا الوجود ، وليس بمدرك فضل الله عليه ولاابعاد مسئوليته ، ولاشك ان بناء الشخصية المؤمنة المتحركة في التاريخ يحتاج الى وجود مؤسسات عملاقة تهضم التيارات المعاصرة وما بها من ايجابيات وسلبيات ، وتدرك واقع المسلمين والأسباب التي أدت بهم الى ذلك ، وتدرك الأسرار التي دفعت بالمسلمين الأولين الى قيادة العالم في جيل واحد ، ثم تضع خطتها التربوية على مستوى العالم الإسلامي لتحقيق الأهداف الإسلامية المرجوة وهى تتلخص في :

أ ـــ عودة الإسلام الى المجتمع .
ب ـــ وحدة الأمة في ظل خلافة اسلامية .
جـ ـــ نشر رسالة الإسلام في جميع بقاع الأرض .

ان قيام هذه المؤسسات فريضة عينية على المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، والى ان يحين الوقت الذى توجد فيه هذه المؤسسات فانه يجب على الانسان الفرد أن يقوم بواجبه في هذه المجالات الثلاثة فينمي ثقافته بمعرفة مخططات الاعداء في مختلف المجالات وان يدرك حقائق الإسلام كما ادركها السلف الصالح ، بحيث تكون هى محور حياته ومبعث حركته ، ولابد أن يدرك ان نجاحه في اقامة مؤسسة اسلامية في اى مجال من مجالات الحياة يعتبر بمثابة وضع لبنة في بناء المجتمع الإسلامي الجديد وأن أولى هذه المؤسسات بالقيام الآن هى مؤسسات نشر الثقافة الإسلامية عن طريق المنهج التعليمى ووسائل الإعلام المختلفة .

ان كتاب اضواء على طريق العودة الى الإسلام يعتبر نفثات لقلب إنسان يعيش مشكلة امته عيشة المعاناة طيلة حياته ، وهو مجموعة مقالات متفرقة نشرت في

أوقات مختلفة ، وانني أسال الله أن ينفع بها وأن يثيب الذين قاموا بنشرها . إنه سميع قريب مجيب الدعاء ..

دكتور / أحمد خليل
جمادى الأولى سنة ١٤٠٧ هـ
ابو ظبي في يناير سنة ١٩٨٧ م

الفصل الأول

أشواك على الطريق

بسم الله الرحمن الرحيم

وقفـة تأمـل

﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾

الإسـلام ومخططات أعدائـه

في هذه الأيام نحتاج إلى أن نقف وقفة تأمل نقيم فيها أوضاعنا بالنسبة لقضية المصير حيث القدس مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم دنستها أقدام شذاذ الآفاق من اليهود ومن خلفهم قوى الشر العالمية الباغية من الغرب والشرق على حد سواء ، وليس التقييم أمراً سهلا لأنه يقتضى إبراز الإيجابيات والسلبيات على الصعيدين العربي والإسلامي ، وعلى المحيط الدولي . وتقييم الإيجابيات والسلبيات بالنسبة لمخطط الأعداء الذين يتخذون من إسرائيل رأس جسر لتنفيذ مخططاتهم في قلب الأمة الإسلامية والعربية ، وتتخذهم اسرائيل درعا حصينا لتنفيذ مآربها في مختلف المجالات ، سواء في مجال الصراع العربي الإسرائيلي أو في مجال الصراع الدولي . ومما هو جدير بالملاحظة أن لكل قوة من قوى الشر الثلاث — الشيوعية والصليبية والصهيونية — مخططاتها الخاصة بها لتحقيق مصالحها ، ولكن في صراعهم مع الإسلام تذوب الخلافات وتتحد المصالح وتتعاون على دحر الإسلام في عقر داره عن مجال التوجيه ، مخافة أن يتحرك المارد الإسلامي من جديد ليمارس دوره من جديد في توجيه السياسة العالمية وفي عالم تتعقد فيه المصالح ، ويسوده الإضطراب ، وتختفي النوايا ، وتنعدم القيم ، وتختلف الموازين فتختلف تبعا لذلك نتائج التقييم ونحن هنا إنما ننظر الى الأمور من الزاوية الإسلامية لأنها المتنفس الوحيد لما يعانيه المسلم المعاصر من آلام ، وهي في نظر الحق الميزان السليم الذى لاينحرف . وفي بداية الأمر نقول إن الأعداء يدركون من أمرنا ما لاندركه نحن من أنفسنا ، ويرى الأعداء أمتنا تمتلك أربعة عناصر أساسية لو تفاعلت مع بعضها لأنتجت أمة تمثل خطرا حقيقيا على قوى الشر الثلاث .

عناصر البقاء فى أمتنا

العنصر الأول : القوة الاقتصادية وهي ممثلة في المواد الخام التي تملكها الأمة ، ولاتزال ثروات الأمة الإسلامية بكرا حتى الآن ، رغم ماتعرضت له من استنزاف منذ بداية الاستعمار الحديث .

العنصر الثانى : الموقع الاستراتيجي ، حيث تقع أمتنا في منطقة تمثل حزاما بالنسبة للكرة الأرضية وتتحكم في المواصلات البرية والجوية والبحرية وبالتالي تتحكم في التجارة العالمية ، وقد كان لهم ذلك منذ قديم الزمان ، وقد تطورت أهميته مع تطور المواصلات والتجارة في العصر الحديث .

العنصر الثالث : القوى البشرية ، وهي لاتعود أساسا الى التعداد الحالي للمسلمين باعتبارهم يمثلون ربع سكان العالم ، وإنما باعتبار معدل النمو في تعداد السكان ، وهو معدل يفوق كل معدلات النمو في العالم ، وقد يتضاعف في مدة قليلة بحيث يزيد المسلمون على ثلثي سكان المعمورة .

العنصر الرابع : الإسلام ، باعتباره قوة روحية حافظت على وحدة العالم الإسلامي منذ أربعة عشر قرنا ، وهو من الناحية العقيدية يتفوق على الديانتين اليهودية والمسيحية ، فاليهودية ديانة خاصة باليهود لايمكن أن تقدم حلولا لمشاكل العالم . والمسيحية اشتملت على عقيدة التثليث ، وهي عقيدة غير مقبولة لدى العقل الحديث ، كما أن وصاياها الأخلاقية لاتقدم حلولا لمشاكل المجتمع . وأما الشيوعية فهى تقوم أساسا على الفكر المادى الذى أصبح متهافتا لايجد له سندا من علم أو منطق ، وعلى عقيدة اقتصادية ، كما أنها في الجانب التطبيقي فشلت فشلا ذريعا وتراجعت خطوات إلى الوراء .

أما البوذية فإنها تحمل في طياتها من التناقض مع الواقع مايجعلها لاتثبت على قدميها لمواجهة الإسلام الصحيح ، لذلك كله خطط الأعداء بخبث لإقامة اسرائيل في قلب الوطن الإسلامي ، وكانت حركة مصطفى كمال أتاتورك بإلغاء الخلافة هي

المقدمة الحتمية لتحطيم الكيان الإسلامي وتقسيمه الى دويلات متصارعة ، واحياء النعرات القومية ، وبإذكاء الروح الطائفية ، وإقامة اسرائيل . ومنذ ذلك الوقت تم ربط هذه الدويلات الإسلامية على امتداد الوطن الإسلامي بالمجتمع العلماني الغربي ، ربطا عضويا ، وقد ساعد على ذلك سرعة المواصلات ، وعزل الإسلام عن مجال التوجيه والحكم في البلاد الإسلامية وتفريغ المجتمع الإسلامى من محتوى الإسلام عن طريق الاستشراق والمدارس التبشيرية ، والمناهج المدنية في وزارات التربية والتعليم ، وقصر المدارس الدينية على مجالات ضيقة لاتمت الى الحياة بصلة .

قامت المؤسسات الإعلامية والترفيهية بدور خطير في هذا المجال ، وكانت المختبرات الاستعمارية تقوم بدور نشط في قياس الوعي الإسلامى ، ووضع الخطط لتحطيمه ، ودراسة الواقع الإسلامى على أسس علمية منهجية استهدفت تحطيم الإنسان المسلم ، وتحطيم المجتمع المسلم . وقد تمثلت هذ المختبرات في المؤسسات العلمية التابعة لوزارات الخارجية ، وادارات المخابرات في الغرب والشرق على حد سواء ، وكان المسلمون من الغفلة والسذاجة ماجعلهم صيدا ثمينا في يد الذئاب المفترسة ، وبالرغم من أن بلادنا تملك قوة اقتصادية رهيبة الا أنه قد خطط بذكاء لإذلالنا اقتصاديا ، وإنك لواجد في بنجلاديش وفي الصومال وفي مصر وفي الشام وفي جنوب الجزيرة أمثلة صارخة للجوع المذل لدى الكثير من أبناء هذه الشعوب وغيرها من البلاد الإسلامية ، مما أفقد الإنسان المسلم كرامته ، وعزته ، حيث لايستطيع أن يرفع عقيدته في وجه الأعداء ، أما بالنسبة للدخول المتوسطة فإن الدعاية الغربية عن طريق أجهزة الإعلام قد ربطت مصيرها وحياتها بالمنتجات الغربية ، وبالحياة الغربية . فتعيش الأسرة طوال حياتها تخطط ميزانيتها للحصول على الضروريات من السلع الغربية (السيارة . الغسالة — الثلاجة) ، وغير ذلك ، ثم تضع في ميزانيتها الجزء الباقي لإقامة الحفلات الراقصة ، والتي تقدم فيها الخمور وشراء كل أنواع الزينة والعطور وغيرها مما تروج له الدعاية الغربية لنشر العادات والتقاليد التي تتنافى مع الإسلام ، وبذا تصبح الأسرة المتوسطة مسحوقة تماما كالأسرة الفقيرة سواء بسواءً فاذا ما انتقلنا الى الأسر الغنية فإن أموالها تذهب الى الغرب في صورة استثمارات وفوائد ربوية ، ثم تقدم هذه الاستثمارات الى البلاد النامية بفوائد ربوية مضاعفة لصالح الصهيونية العالمية والصليبية الغربية ، ثم تقوم بنوك الدول الإسلامية

والنامية بتقديمها للتجار في صور ربوية ثالثة ، مما جعلها تشارك في رفع الأسعار في مجتمعاتنا ، وتحطيم التاجر والمستهلك على حد سواء ، وبذا تتحقق الخطة الاستعمارية الخطيرة في أن اموال المسلمين إذا أنفقت في بلادهم فانها تنفق لتحطيمهم وإذا خرجت إلى غيرهم فإنها تكون لصالح الأعداء لا لصالح الأمة ، ومما يزيد في عمق المأساة سلبية المسلم في عالم الاقتصاد ، فهو لا ينتج الضرورات ولا يحددها ، بل إن المجتمع العلماني الغربي هو الذى ينتج لنا الضروريات ، وهو الذى يحدد لنا نوعها .. فإذا ما انتقلنا الى العنصر البشرى وجدنا حروب الإبادة توجه للمسلمين في صور مختلفة كلها كريهة ، فقد أبيد من المسلمين على يد الدب الشيوعي ما لايقل عن عشرين مليون مسلم في الجمهوريات الإسلامية الست في الاتحاد السوفيتى والبانيا ويوغسلافيا وزنجبار والحبشة وعدن وغيرها من البلاد التي وقعت فريسة للشيوعية ، وليس الدب الأحمر بأخطر من الدب الأصفر على المسلمين ، وأبيد على يد الصليبية ملايين أخرى يصعب إحصاؤها ، وبجوار ذلك تتم عمليات التنصير بشكل رهيب في بلاد المسلمين ، ففي الفلبين تقوم جمعيات إيذاء المسلمين برصد جوائز مغرية لمن يُنَصِّرُ مسلما أو يقتله ، ونسوق المثال التالي للتدليل على عمق المأساة .

ذهب وفد إسلامي لتقصي الحقائق في مشكلة الفلبين ، فعثر على شاب مسلم قطع ذراعه وهو يسير في حالة ذهول تام ، وقد تبين من بحث القضية أنه قد هجم على أسرته المسلمة جماعة صليبية فأبادت الأسرة ثم أخذت من كل فرد جزءا ، تأخذ من المرأة ثديها ، ومن الرجل عضوا ، ومن الطفل ذراعا ، ومن شدة المأساة أغمي على هذا الطفل وظن السفاحون أنه قد مات فقطعوا ذراعه ، وبعد ذلك مر الصليب الأحمر الدولي فوجد الطفل لايزال حيا تنزف دماؤه وتم علاجه ، ولكنه عاش بعد ذلك في ذهول تام بعد هذه المأساة ، وقد قرر الوفد الإسلامى أمام مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامية الذى عقد في ليبيا ، أن مايجرى في الفلبين لايوجد له نظير في العالم ، لأنه يستهدف استئصال شأفة الإسلام والمسلمين من هذه البلاد ، وكان مما قرره أنه توجد جمعيات لإيذاء المسلمين تستهدف إبادتهم وقد وضعت لذلك أهداف محددة يأتي في مقدمتها التصفية الجسدية وأعلنت الجمعيات أن كل صليبي يقتل مسلما ويأخذ عضوا منه يضعه في الحقيبة ، وفي نهاية اليوم يذهب الى جمعيات إيذاء المسلمين يقدم الأعضاء التي معه من أجسام المسلمين ، ويأخذ لذلك مكافأة مالية

على كل قتيل ، وفي أندونيسيا يلحق المسلم الفقير بمصنع تابع للتبشير ثم يتزوج وينجب ، وبعد ذلك يعرض عليه إما أن يدخل المسيحية أو يفصل من المصنع ، ويموت جوعا هو وأطفاله ، ومما يؤسف له أنه ليس من حق المسلمين أن يقدموا مساعدة مالية لإخوانهم المسلمين في اندونيسيا ، لأن المساعدة لابد أن تذهب عن طريق الحكومة الرسمية وهو طريق محفوف بالمخاطر .. وهذه أمثلة صارخة للمخطط الإرهابي الصليبي للأمة الإسلامية ، وهو موجود في جنوب السودان وارتيريا والحبشة ، وفي جنوب لبنان وبورما وتشاد ونيجيريا وتنزانيا وغير ذلك من سائر بقاع المسلمين ، ويواكب ذلك الدعوة لتحديد النسل لدى المسلمين ، وبذا تسير حروب الإبادة في خطوط متوازية وهى تتمثل :

اولا : في القتل والتشريد .

ثانيا : تحديد النسل .

ثالثا : الدخول في النصرانية أو الشيوعية .

رابعا : غسل مخ المسلم المعاصر من الإسلام ، وقد تعاون على تنفيذ الخط الأخير العملاء ممن لايدينون بالإسلام ، وبعض أبطال الحكم الوطني الذين صنعهم الاستعمار ، بالاضافة الى تلاميذ المستشرقين ، وخريجي المدارس التبشيرية ، والكثير من أعضاء البعثات التعليمية الى الغرب أو الشرق .. واذا ماانتقلنا إلى العنصر الاستراتيجي وجدنا زرع اسرائيل في قلب العالم العربي لفصل المغرب العربي عن المشرق العربي ، وقد سبق أن اقترح ذلك بعض خبراء الاستعمار سنة ١٩٠٧ ، وقيام اسرائيل في هذه المنطقة يحقق مصالح الصهيونية والشيوعية على حد سواء ، ويضم الى ذلك الدور الخطير الذى تقوم به أثيوبيا وعدن حتى لايكون البحر الأحمر بحيرة إسلامية ، فاذا ضم الى ذلك وجود أنظمة عميلة تمثل دور الشرطي لصالح الغرب أو الشرق ، فان معنى ذلك خسارتنا للموقع الاستراتيجي الذى تشغله الأمة الإسلامية ، يعتبر كارثة محققة ، فاذا انتقلنا الى العنصر الرابع وهو أن الإسلام العدو اللدود لقوى الشر العالمية ، نجد مأساة حقيقية رهيبة تمثلت فيما يأتى .

أولا : تحطيم الإسلام من داخله على يد الماسونية والاستشراق والشيوعية ، وقد ظهر ذلك واضحا في كل ماكتبه هؤلاء عن الإسلام وعن التاريخ الإسلامي .

ثانيا : قيام مؤسسات ضخمة في العالم الإسلامي تعمل على إبعاد الإسلام عن المجتمع

ثالثا : انعكاس الفكر المادى بمدارسه المختلفة على المجتمع الإسلامي .

وكانت الحصيلة لهذا التخطيط أن سحقت شخصية الإنسان المسلم المعاصر ، واختفى الرأى العام المسلم ، وهزم الإسلام في مختلف ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية ، وأصبحت بلاد المسلمين مهددة بالفناء ، فماذا نحن قائلون في ذكرى الاسراء والمعراج ؟ إنها مأساة رهيبة خطط لها رجال البغي في العالم ، وشارك في صنعها بعض الأنظمة الموجودة في البلاد الإسلامية ، وضحيتها الإنسان المسلم بغفلته والمجتمع المسلم بجموده ولافاعلية له في الحياة .

فإذا أردنا أن نقيم السياسة الدولية في منطقتنا للقوى الثلاث فإنها أساسا تعتمد على خطوط عريضة نجملها فيما يأتي :

اولا : ضرب الإسلام من داخله لإخماد أنفاسه ، وحتى لايتحرك الى الأبد ، سواء أكان ذلك فى الناحية العلمية بتشويه تعاليمه أو من الناحية العملية بإثارة الصراعات الداخلية وإثارة النعرات القومية والطائفية ، وقد قال ذلك بن جوريون في رسالته الى إيدن رئيس وزراء انجلترا وجي موليه وزير خارجية فرنسا قبل العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ .

ثانيا : تقوية إسرائيل وإمدادها بالسلاح الغربي وبالرجال من الشرق لتلعب دورا رئيسيا لصالح المعسكرين الغربي والشرقي على حد سواء ، فهي تفرخ الشيوعية في كوادر يهودية وغير يهودية ، وهي في نفس الوقت تعمل على إجهاض وحدة الأمة الإسلامية وإبقائها مجزأة حتى لاتقوم لها قائمة .

ثالثا : يعمل الغرب على أن تظل بلادنا موردا للمواد الخام وسوقا استهلاكية للمنتجات الغربية ولذا فهو يحرمها من التقنية الحديثة .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

التحديات الفكرية

إن الذى يراجع تاريخ البشرية ، يدرك أن الصراع سنة من سنن الاجتماع البشرى ، لكن صراع اليوم يختلف عن صراع الأمس ، لأنه صراع يدور في داخل نفسية الانسان لصناعة عقله وصياغة شخصيته لحساب كل طرف من أطراف الصراع .

والمشكلة التى تواجه البشرية ، أن المبادىء المتصارعة تتبع تكتلات اقتصادية وسياسية مختلفة ، فهى لاتستهدف إقامة الحق ولاتستشرف نشر الفضيلة ، وانما يروج لها لتحقيق مصالح مادية ومنافع اقتصادية وسياسية .

ووسط طوفان المصالح ، يضيع الحق وتختفي الحقيقة وتتوارى المثل الإنسانية في زوايا النسيان ، ويسود الباطل وينتشر الظلام .

إن أمتنا الإسلامية في مرحلتها هذه ، تواجه تحديا ثقافيا وحضاريا وتراجعا عسكريا وسياسيا ، وذلك بسبب الخلل في بنية الفكر ، والتمزق النفسي ، والخلافات المذهبية ، والصراعات المحلية ، والاطماع الخارجية ، وما مأساة فلسطين منذ أن وطئت أقدام اليهود أرضها الى عملية أمن الجليل ، الا إحدى الثمار المرة لتلك الهزائم النكراء ، ولكنها أمرّ هذه الثمار وأقساها على النفس وأبعدها أثرا في واقع المجتمع .

إن الهزائم السياسية والعسكرية ليست قدرا حتميا يتحتم على الأمة أن تعيش تحت وطأته ولكنها تمثل تحديات لدى الأمم الحية لشحذ هممها ، وتفجير طاقاتها وإثارة مشاعرها ، وتوحيد صفها لحمل رسالتها من جديد .

والذى يراجع تاريخ الأمة الإسلامية ، يدرك بحق ، أنه عندما يختفي شعاع الروح يخمد إشعاع العقل ، فيفقد الإنسان رغبته في الفهم وهمته للعمل وقدرته على الإنتاج .

فعندما توقفت الدفعة القرآنية ، وَهُنَ إشعاع العقل ، وتوقف المجتمع الإسلامي عن الحركة كما يتوقف المحرك عند آخر قطرة من الوقود ، ولاشك أن أمتنا في مرحلتها هذه ، تعاني من الأمرين : من توقف إشعاع العقل في مجال الفرد ، وتوقف الدفعة القرآنية في مجال الحركة الحياتية ، وهما أمران يتلازمان دائما ولايفترقان ، ولايوجد أى معوض للفرد أو للأمة يقوم مقامها .

إن الإسلام يملك طاقات ربانية جبارة ، قادرة على بناء العقل وصياغة الشخصية القرآنية صياغة نموذجية ، بحيث تكون ربانية السلوك ، نورانية الفكر ، ملائكية الخلق ، يقول الله سبحانه وتعالى في حق هذه الشخصية « ماتقرب عبدى بشيء احب اليّ مما افترضته عليه ولايزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التي يبطش بها ، لئن سألني لأجيبنه ولئن استعاذني لأعيذنه ، وماترددت في شيء ترددى في قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت واكره إساءته » .

وهو قادر على تجميع المسلمين وتحريكهم نحو هدف واحد ، إنها وحدة تقوم على لحمة الروح ووشيجة الفكر ورابطة الحب وألفة العاطفة والهوى ، يقول المعصوم صلى الله عليه وسلم : « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » ويقول : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » .

إنها وحدة ربانية لاخلاف فيها على زعامة ، لأن زعيمها بالاجماع هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ولاخوف منها على استقلال ، لأنها كدين الإسلام لاتعرف القيود والحدود ، ولاتقبل الحصر ، ولامثار فيها لعصبية جنس أو لغة أو طائفة ، لأنها تقوم على تعاليم الإسلام .

لقد وقع العالم كله في أزمة حضارية قاتلة ، نتيجة الصراع القائم على القوة الغاشمة ، واشاعة المنكرات وتحطيم الشعوب المستضعفة ونهب خيراتها ، فالعالم المتحضر الذى تسنم قيادة الحضارة البشرية يعاني من جرائم الظلم البشعة التي ارتكبها ضد الشعوب المستضعفة ، حيث أسكره الإثم وأبطره الترف ، وتتجلى أزمته فى موجات الانتحار بأشكالها المختلفة التى يعاني منها اليوم ، وفي الانحلال الخلقي ، وغير ذلك مما يتحدث عنه قادة الفكر في الحضارة الغربية .

أما أزمتنا نحن ، فتتجلى في أننا نعيش في سفح التخلف ، بسبب الأمراض الوافدة إلينا من الخارج تحت أعلام وبنود الحضارة المادية ، والأمراض الوافدة إلينا من عصر الجمود . وهذه الأزمة بشقيها تنبيء عن حدوث دورة جديدة في التاريخ ، لأن سنة الله في خلقه تقتضي في مثل هذه الحالة أن يهبط الإثم الظالم من على السطح ، وأن يصعد المكدود المجهد الى القمة لانقاذ البشرية من الهاوية ، لكن الحضارة الاستهلاكية المعاصرة تقاتل — من موقعها — الحضارة الإسلامية المنافسة لها بشراسة ، لأنها تعتبرها الوريث الوحيد لها . وهنا تكمن المعادلة الصعبة التى تتمثل فى صعود الضعيف المكدود ، وهبوط القوى الظالم .

إننا مطالبون اليوم بانقاذ البشرية من الدمار ، وذلك لايكون الا بامتلاك ثلاثة عناصر .

١ — بعث قوة العقيدة في النفس لتثير حرارة الايمان ، وتبعث الروح في الجسد الهامد ، وتشعل الضياء في القلب المظلم .
٢ — التمكن من ناصية العلم ، وامتلاك وسائل التقنية الحديثة .
٣ — إمتلاك الارادة الحضارية للسيطرة على عالم الاشياء ، وبذلك يتحقق وعد الله لنا يقول سبحانه ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

دور القيادة الربانية فى المجتمع المعاصر

يعيش المسلم اليوم تحت وطأة تناقضات شتى ، أثرت على شخصيته وعلى سلوكه ، فجاء ذلك نتيجة ضغط الحضارة المادية المعاصرة ، وضعف المقاومة الإسلامية له . وقد بدأ هذا الأمر منذ زمن طويل حيث سقطت البلاد الإسلامية فى ايدى الاستعمار ، وضاعت الخلافة العثمانية نتيجة غفلة المسلمين وتآمر المستعمرين .

وكان للثورة التي نشأت في الغرب ضد الدين ورجال الدين ، أثرها في تنحية القيم الدينية عن مجال الحياة ، وفي دفع الحياة الى الاتجاه المادى بشكل أثر على كل القيم الخلقية ، وأدى نجاح الغرب في الجانب العلمي التطبيقي الى انبهار المسلمين بنموذج الحضارة الغربية المعاصرة ، باعتبارها أمثل الحضارات التي تقدم الرفاهية للإنسان .

ونتيجة لذلك وقف بعض المسلمين من هذه الحضارة موقف المفتون بها ، فنادى بأن عهد الدين قد ولى وانقضى ، وبالتالي وجّه سهامه المسمومة الى الإسلام ، ونادى البعض الآخر بأن الدين هو العقبة الكؤود في سبيل الحضارة والمدنية ، ومن ثم فانه يجب تنحية الدين عن الحياة ، واعتباره مسألة شخصية بين العبد وربه ، ليستطيع المسلمون أن يتقدموا في مختلف مجالات الحياة على غرار ماحدث في الغرب ، ووجدت طائفة ثالثة في بلاد المسلمين جامدة أدارت ظهرها الى الحضارة الغربية ، ووقفت على بعض القشور الإسلامية دون أن تنفذ الى لب الإسلام .

ويجيء دور المصلحين الإسلاميين وسط هذا الواقع المتردى ، ليبينوا للناس حقائق الإسلام ودوره في المجتمع .

وكان من الطبيعي أن يبدأ صوت الاصلاح خافتا ، ثم أخذ يعلو شيئا فشيئا منذ ظهور جمال الدين الأفغاني الى اليوم ، ومما عزز صوت الإسلام ، هو ما تكشفت عنه مأساة الحضارة الغربية المعاصرة في بلادها ، حيث ظهرت موجات من الانحلال الخلقي والتبرم من الحياة نتيجة الفراغ الروحي ، مما أدى الى شيوع الانتحار السريع والبطيء .

وبدأ الناس في الغرب يتنبأون بقرب نهاية الحضارة الغربية ، وقد انعكس ذلك تلقائيا على البلاد الإسلامية ، وأصبح الكثير من المسلمين يتطلعون الى الإسلام كمنقذ وحيد للبشرية من محنتها ، بيد أنه توجد عوامل كثيرة تحول دون تحقيق هذا الهدف ، يأتي في مقدمتها الاحتكارات العالمية ، والتي ترى ضرورة أن تظل البلاد الإسلامية متخلفة لتظل سوقا استهلاكية وموردا للمواد الخام ، ومنها الأحقاد الصليبية الدفينة التي تضع نصب أعينها . ان الإسلام قديما حين استمسك به المسلمون استطاع في خلال ثمانين عاما ان يجتاح العالم كله ، وبالتالي فانه يخشى من عودته للحياة ، لأنه قد يجتاح العالم المعاصر كله في سنين قليلة ، ومنها الصهيونية التي ترى ان عودة الإسلام للحياة ستؤدى حتما الى وحدة المسلمين وبالتالي نهاية اسرائيل ، وترى اليهودية العالمية أن وجود إسرائيل مرتهن ببعد المسلمين عن الإسلام ، ومنها الشيوعية الدولية في روسيا والصين ، حيث يرون أن عودة الإسلام تعني تحرر الجمهوريات الإسلامية من سيطرة الروس ، وقد يؤدى ذلك الى قلب الحقائق السياسية والجغرافية في كل من روسيا والصين ، ومنها البوذية التي ترى في الإسلام خصما عنيدا ، حيث أنه استطاع أن يأخذ جزءا كبيرا من القارة الهندية ، وأنه توجد معارك وصراعات بين الإسلام والوثنية لم تضع أوزارها بعد .

كل هذه الجبهات قد تختلف فيما بينها على المصالح الاقتصادية والسياسية ، لكنها تتفق فيما بينها على حرب الإسلام ، حيث أنها ترى إسكات صوت الإسلام الى الابد ، لأنه يمثل خطرا داهما عليها ، وينضم إلى تلك الجبهات ، المارقون من الإسلام من أبناء المسلمين الذين راحوا ضحية الالحاد العلماني الغربي ، أو الالحاد الشيوعي الشرقي ، أو عملاء الماسونية والصهيونية على حد سواء ، وهؤلاء يرون في الإسلام خطرا يهدد وجودهم ، وصراعهم مع الإسلام ، صراع حياة أو موت ، وهم

يجدون سندا لهم من خارج البلاد الإسلامية التي تعمل بخبث ودهاء ضد الإسلام والمسلمين ، وهؤلاء أخطر على المسلمين من كل الأعداء ، وان دورهم هو دور المنافقين في كل زمان ومكان ، وقد تحدث القرآن عن نواياهم وفضح مساوئهم **(يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون)** .

فما الذى نستطيع أن نقدمه لمجتمعنا المسلم ، حين نأتي الى واقع المسلمين ، نجد أن هناك خللا في الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية ، وقد أدى ذلك مع توالي الكوارث وشدة المحن الى ضياع الحقائق ، وتمزق المجتمع ، ووجود شروخ نفسية في شخصية الإنسان المسلم ، وانعكس على هذا الجيل ظلام دامس أفقده الرؤية لواقعه الذى يعيش فيه ولمستقبله الذى يراد له ، وأصبح المسلم يعيش على هامش الحياة ، يصنع له تاريخه ولايشارك هو في صنعه وتلك هي مأساتنا .

فالانسان حين يجهل هويته ويفقد استقلاله ويعجز عن السيطرة على الأحداث ، يفقد الثقة في نفسه وفي مجتمعه وفي كل الناس ، وهذه أخطر مشكلة تعانيها الشخصية الإسلامية ، ويعانيها المجتمع المعاصر .

وحل هذه المشكلة ليس امرا سهلا ، إنه يستلزم أن يعرف الإنسان هويته ، وأن تتوفر الضمانات لحمايته ، وأن تحقق له الوسائل التي تساعده على أن يكون ذا شخصية سوية مؤثرة في الحياة ، لها فاعلية كاملة في التاريخ .

والواقع الذى نعيشه لايحقق شيئا من ذلك ، ولاحتى يبشر بمقدمه بعد وقت قريب أو بعيد ، فالإنسان المسلم يحيا في تناقض كامل بين قيمة التي ورثها عن الأجداد وماتلقاه في بعض المناهج الإسلامية وماسمعه في المساجد أو بعض دور الثقافة ، وبين واقع المجتمع وأجهزة الاعلام الذى يخالف كل معتقداته .

إنها حياة التناقض ، فبينما نجد هجمة المادية الشرسة على كل مناحي الحياة تنتقل تلقائيا الى حياة الإنسان على الرغم منه ، لانجد أية مقاومة تذكر لمدافعة هذا

التيار الجارف ، وذاك يجعل الإنسان المسلم يحس بغربة حقيقية في بلده ، ويشعر بضرورة التحلل والانطلاق من الواقع ، الشيء الذى يعيش فيه الى الأمل الذى يراوده والذى تعيش مخيلته في ذهنه ، وفي حياة آبائه الأولين الذين قاموا بنشر رسالة الهداية في العالم .

ومن هنا فان تغيير هذا الواقع يعتبر ضرورة حتمية يفرضها ويحتمها الواقع المر الذى يعيشه المسلمون .

أما كيفية التغيير فذاك مايحتاج الى إدراك القضية من جميع أبعادها ، وذلك لأن مشاعر الخوف تسيطر على الانسان المسلم ، ومعاول الجهل تحطم شخصيته ، وأساليب الابتزاز الفكري والسياسي تحوط واقعه .

وقد استغل الخبثاء هذه العوامل كلها لسحق شخصيته ، ففي حالة الجوع الفكرى التي يعاني منها ، استغلوا حاجته وعاطفته يملؤوها بالترهات ، فحيث يحجبه ذلك عن إدراك حقائق دينه وواقعه المتردى الذى يعيش فيه ، واستغلت هذه السذاجة الى أبعد حد بالهائه بقضايا لاتتعلق بمصيره ولا بمصير أمته . فاستخدمت الاعلانات في التليفاز لإثارة لعابه في الجنس ، إلى السلع الاستهلاكية ، وقامت النوادى وأجهزة الاعلام بشغله بالكرة وبغيرها لإلهائه عن قضيته الحقيقية ، ثم تسلسلت أساليب الوثنية بالمجال الفكرى الى الجانب الثقافي فأوحوا بتقديس بعض الشخصيات التي لاقيمة فيها في ميزان الإسلام ، وهدم بعض الشخصيات التي كان لها جهاد طويل وماض مشرق ، واتهموها زورا بالعمالة ، ووصل الأمر أيضا الى المبادىء ، فشوهوا المبادىء الإسلامية الخالدة ، ووضعوا مكانها مبادىء غريبة ، فوضعوا مكان الشورى الديمقراطية ، ومكان العدالة الاشتراكية ، وحرّفت القيم الأخرى وأصبحت الحرية تعني تحررهم من القيم الخلقية والانطلاق في الفوضى والإباحة وغير ذلك .

يرى البعض أن نشر الثقافة أمر ذو أهمية بالغة ، ويرى البعض أن الأمر أمر تربية على مستوى الفرد والجماعة ، ولاشك أن الأمرين مطلوبان ، لكن لابد من تحديد

الهدف وهو إيجاد سيطرة للمسلم على نفسه وعلى الحياة من حوله ، وأن يطبع ذلك بطابع الإسلام ، وأن يدرك أبعاد الصراع الذى يعيشه وتعيشه الأمة معه ، وأن يحدد موقعه من الصراع ليؤدى دوره كاملا في انتشال الأمة من محنتها .

بدأت ظاهرة جديدة في السنوات الماضية تسيطر على عقول المحللين السياسيين والمعاهد الاستراتيجية المتخصصة ، والكثير من الحكومات الغربية ، ان الإسلام قادم وكان لهذه المقولة أثر كبير في انتشار الرعب لدى القوى السياسية العالمية ، فلماذا الخوف من الفيضان الإسلامي ، وماهي دوافعه .

إن الخوف من الفيضان الإسلامي يرجع الى تراث طويل بدأ منذ بداية الحروب الصليبية ، وامتد أثره حتى اليوم ، ولكنه ازداد شدة وضراوة خلال الأعوام الماضية ، حتى أصبح ظاهرة مرضية أكثر منه حقيقة واقعية .

إننا نعيش في عصر التكتلات الدولية التي تقوم على أسس اقتصادية وعقائدية وجغرافية ، وهذه التكتلات لاتريد أن تسمح لقوة دولية جديدة أن تظهر على الساحة ، وان تنازعها السلطة ، ويوجد بجوار ذلك ظاهرة جديدة ، هي ظاهرة الإرهاب الدولي ، الذى انتشر وأصبح يمثل قوة ضغط تقف وراءه أجهزة خفية تمارس ضغطها لتتخلص من كل العناصر السياسية القادرة المبدعة ، التي يمكن ان تقدم شيئا جديدا في صالح البشرية .

وقد تولت هذه الأجهزة التخلص من قيادات كثيرة من مختلف مجالات الحياة في العالم الإسلامي وغيره ، وهذه القوى الشريره لها منظمات خاصة ، وتدعمها بعض الاحتكارات بهدف الابقاء على مصالحها وامتيازاتها .

لقد بدأت القوة الإسلامية في التنامي ، نتيجة الحركات الإسلامية المعاصرة ، التي أخذت تخط طريقها الى الامام بسرعة مذهلة رغم القيود والضغوط والتناقضات التي تواجهها .

ولقد وجدت القوى الدولية التي تعمل على دحر الإسلام في الحرب العراقية الايرانية وسيلة لايقاف نمو هذه القوة وشل حركتها ، فاخذت القوى الدولية تغذى الحرب ، وتمد الفريقين بالسلاح ، وتعمل على مزيد من إراقة الدماء والأموال وحفر أخاديد عميقة تظل سدا منيعا لوحدة الأمة ، ولم يكتفوا بذلك ، بل انطلقت أجهزة مختلفة تستهدف عملية تشويه الحقيقة الإسلامية من منطلق العداء التقليدى المتأصل منذ زمن بعيد ومن الخوف من المستقبل .

وكان لعقدة الإسقاط الحضارى أثرها في هذا التشويه ، فقد أخذوا يصفون الحضارة الإسلامية والإسلام بمركب النقص الذى يوجد لدى الغربيين والحضارة الغربية ، فبينما تعاني الحضارة الغربية من عقدة الجنس والتحلل الاخلاقي بمختلف أشكاله وألوانه ، اذا بها تصف الحضارة الإسلامية بهذا الوصف ، وكذا الأمر بالنسبة لعقدة الرجل الأبيض المتفوق على الجنس البشرى فتوصف الحضارة الإسلامية بأنها حضارة الاستعمار والاستغلال والعبيد والإماء ، كما يقول الشاعر العربي

رمتني بدائها وانسلت

لعل المشكلة التي تواجه المسلمين اليوم ، التي يجب أن يكون لها الأولوية هي الرؤية الواضحة للحاضر والمستقبل للبلاد الإسلامية بشكل خاص وللعالم الانساني بشكل عام .

إن هناك تغيرات جذرية تطرأ على الساحة في كل يوم ، بل في كل ساعة ، وهي تحتاج الى رأى الإسلام الواضح النير الذى لالبس فيه ، وقد قيل إن العالم كله شهد في العشرين سنة الأخيرة من التغيرات مالم يشهده في عشرين قرنا من الزمان .

إن العالم — ولاشك — يتحرك ، والحركة فيها صواب وفيها خطأ ، وفيها منافع وفيها أضرار ، ولابد من أن يتابع الفكر الحركة ، بل يجب أن يتقدم عليها وأن يضع معالم الطريق ، وان يقيم مصابيح مضيئة على كل مرحلة من هذه المراحل لتستنير بها الحركة التاريخية .

ومشكلة المسلمين في هذا الجانب مشكلة قاتلة ، حيث تخلف الفكر الإسلامى بشكل عام والفكر السياسي بشكل خاص لفترات طويلة ، وتكاتفت قوى الشر لتجفيف الروافد العلوية الإسلامية تارة وباسم التطور وأخرى باسم التخلص من الرجعية والجمود .

إن علماء الفكر الإسلامى هم عقل الأمة ، وهم مصابيح الهدى في دياجير الظلام ، والإنسان إذا فقد عقله فانه يكون غير مكلف ويوضع في مصحة نفسية للعلاج ، واذا فقدت الأمة عقلها فإنها تحتاج الى الاستشفاء .

إن العلماء الربانيين الذين ينذرون أنفسهم للحقيقة المطلقة ويحيون على نهج النبيين ، هم الذين يقودون المجتمع وينتشلونه من محنته ونقصنا في هذا الجانب رهيب .

إن فشل العالم الإسلامي اليوم في عدم فرض هيبته على العالم وعدم تبوؤه مكان القيادة إنما يرجع الى فقد الأمة لهذا الرعيل الذى انقرض منذ زمن بعيد ، ولم تستطع الأمة أن تعوض عنه ببديل أو مثيل .

أشواك على الطريق

وأمتنا منذ أمد بعيد تفرقت بها السبل ، وتقطعت بينها الأواصر ، وذهب ريحها ، وانهزمت في ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية ، ودبت الخلافات الرهيبة بين أبنائها ، فتقاطعوا وتناحروا ، وجعل الله بأسهم بينهم شديداً ، حتى لقد أصبحت بلادهم مطمعا لشذاذ الآفاق ومطمعا لرجال الاحتكارات العالمية ، وميدان صراع لقوى الشر العالمية شرقية كانت أم غربية ، وأصبح المسلمون يعيشون في بلادهم غرباء ، لايحمون عرينا ولايدفعون عدوا ، ولايتحكمون في ثرواتهم . والمشكلة ترجع بالدرجة الأولى الى انهيار الشخصية الإسلامية ، فقد وقعت هذه الشخصية أسيرة لأفكار ميتة جلبت من أيام عصر الجمود والانحطاط ، وأفكار أخرى قاتلة ، جاءت من الخارج ، كما تعرضت للسحق عن طريق الارهاب والإذلال بالجوع والفقر ، ولم يستطع المسلمون أن يصنعوا منهجا يقوم على التخلص من الأفكار الميتة والأفكار القاتلة ، وتقديم الفكر الإسلامي الأصيل ليقوم بدوره فى تحريك الشخصية الإسلامية ، كما لم يستطيعوا توفير المناخ والمربين الذين يقومون بدورهم في مجال التربية والسلوك وبذا أصيبت شخصية المسلم بالعطل فالمثقف والأمي كلاهما لاتأثير له فى مجال الحياة الاجتماعية ، والفقير والغنى كلاهما سواء ولاتأثير لهما في مجريات الأحداث .

فالغني المتلاف يضيع ماله فيما لايفيد ، بل إن ماله ينقلب وبالا على الأمة ، لأنه ينفق في الإفساد والفقير لايملك شيئا فلا يؤثر بدوره في المجتمع ، إنه لايمكن للأمة أن تصلح بدون صلاح الفرد ، ومادام الفرد معطلا فان حركة الحياة في الأمة تظل معطلة ، انه لكي يتحرك الانسان لابد من وجود قيم خلقية واجتماعية يتشربها في نفسه ويتأثر بها في سلوكه ، وهي التي تحركه لحمل رسالته في الحياة ، وهذه القيم موجودة في كل حضارة من الحضارات وفي كل نهضة من النهضات .

إن أمتنا الإسلامية تملك رصيدا ضخما من القيم الإسلامية ، ممثلا في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لكن هذه القيم يقرؤها المسلم دون أن يفهم معناها ، أو أن يدرك مغزاها ، والذى يفهم إنما يقرأ للامتحان فقط لا للسلوك أو الاصلاح ، ولذلك فان القيم الإسلامية غائبة عن دنيا الحياة وواقع المجتمع ، وبجوار ذلك الركود فإن الفكر الإلحادى بشقيه الشرقي والغربي إنما يطرح قضايا متجددة دائما وينفق على ذلك أموالا طائلة ، ويستخدم في سبيل توصيلها للناس كل الوسائل المرئية وغير المرئية ، ووسط هذا التيار الضخم يقف الفكر الإسلامي عاجزاً مكتوف اليدين ، واذا كان الفكر الإسلامي يقف حملته عاجزين عن طرحه بقوة في المجال النظرى ، فانهم أشد عجزا في المجال العملي . فالعدل مثلا قيمة خلقية تحدث الإسلام عنها فمفهوم العدل في الإسلام كقيمة خلقية ، يختلف عن مفهومه في النظريات الأخرى ، وانك لتقرأ نظريات كثيرة عن العدل في المجتمع المعاصر تقدمها المؤلفات المطروحة على الساحة ، فهو عدل في مجال الإنتاج وفي مجال التوزيع ، وفي مجال القانون ، وفي مجال العمل ، وفي توزيع الكفاءات ، وغير ذلك من مختلف المجالات ، ولكنك حين تأتي تبحث عن نظرية الإسلام بأوسع معانيها التي تقدم على الساحة لمقارعة الذين كفروا بالحجة الساطعة ، فانك تجد تخلفا رهيبا في هذا المجال . فاذا انتقلت الى المجال التطبيقى تجد أن بلاد المسلمين بشكل عام اختلت فيها كل موازين العدالة في مختلف ميادين الحياة وهذا يصطدم مع تكريم الله للإنسان الذى نطق به القرآن . في قوله تعالى (**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**) الاسراء / ٧٠ . وتكريم الله للإنسان إنما يأتي من جانبين :

الجانب الأول :

يشمل المنح الآلهية التي زود الله بها الإنسان . إن في جانبه الداخلي بالعقل ، والعاطفة ، والوجدان ، وغير ذلك من المواهب ، وإن في مظهره الخارجي . من حيث قوام الجسد . وسلامة الأعضاء ، واستقامتها .

الجانب الثاني :

باعتباره عضوا في مجتمع ، أوجب الله على هذا المجتمع أن يقدم له الضمانات الكافية ، والكفيلة بتحقيق فاعليته الاجتماعية في الحياة ، ويأتي في مقدمتها الأمن ، والحرية والغذاء والملبس ، والكساء وغير ذلك من الحقوق التي أوجبها الإسلام لمن يستظلون بلوائه .

والجانب الثاني ، إنما يتمم الجانب الأول . ذلك لأن تكوين الجانب الداخلي في الإنسان والذى هو الأساس في تكوين الشخصية الإنسانية مالم يتح له الضمانات الاساسية ، فانه لايستطيع أن يحقق ذاتيته . فتحرير العقل من الخرافات ، وتحرير الرأى من غلبة الهوى ، وتحرير الارادة من العجز ، وتحرير العزيمة من الاستبداد والطغيان ، وتحرير عاطفة الإنسان من التدني الى النزوات الشخصية ، ذلك هو أساس تكوين الإنسان الداخلي ، وهو بالتالي أساس تكريمه ، لايتم الا اذا هيأ المجتمع المناخ اللازم لإعداد الإنسان إعدادا سليما لحمل رسالته وتحقيق فاعليته في المجتمع . وواجب المجتمع المسلم أن يهتم بالدرجة الأولى ، بتكوين هذا الجانب للإنسان ، ومما لاشك فيه أن هذا الجانب الداخلي ، يتكون على مدار تاريخ الإنسان ، ذاته ، أى منذ أن يولد الى أن يفارق الحياة . فهو يظل في نمو . يبدأ عندما يبتدىء يتلقى عن والديه ، ثم ينمو بما يأخذه في المدرسة ، ومايأخذه من وسائل الاعلام ، ومؤسسات المجتمع .

فالمجتمع إذن بما يشتمل عليه من ثقافة وتوجيه ، يستطيع أن يغير كينونة الإنسان الداخلية عن طريق الثقافة اذا استطاع أن يربيه داخل إطار محدد ، من الثقافة الهادفة وأن يسبح فيها كما تسبح كرات الدم في السائل المسمى (البلازما) . والمجتمع الذى يقدر مسؤولياته تجاه أفراده ، فانه يخطط لنمو هؤلاء الأفراد في مختلف جوانب الشخصية الإنسانية . وكما أن تكوين الإنسان ، لايقدم فيه جزء على جزء . أى لايقدم تكوين اللسان على العين ، أو الرأس على الرجل ، فكذلك كينونة الإنسان الداخلي ، لايجوز أن يهتم بجزء دون جزء . لأن مناط التكريم للإنسان ، إنما هو باعتباره إنسانا . ولاتتحقق معانى التكريم للإنسان ، إلا بتحقيق ذاتيته وتحقيق

فاعليته الاجتماعية ليؤثر في المجتمع الذى يعيش فيه .

فالتكريم يستهدف توجيه طاقات الانسان لمجابهة الصعوبات التى تقابله في الحياة ، إن في مجال السيطرة على الطبيعة واخضاعها وتذليلها لصالح البشرية ، وإن في مجال الجانب الاقتصادى ، لحل مشكلة الإنسان على هذا الكوكب الأرضي .

ولذلك ركزت الآية التي معنا على السيطرة على عالم القضاء وعالم البحار (**وحملناهم في البر والبحر**) ، ومن يسيطر على عالم البر فيتحكم في كل مايتصل به ، وعلى عالم البحر ، وكل ماينطوى عليه ، يستطيع أن ينتقل الى حل المشكلة الثانية ، وهي المشكلة الاقتصادية (**ورزقناهم من الطيبات**) لكن مجتمعاتنا المعاصرة ، غفلت عن إدراك هذه البدهيات الأساسية التي فهمها المسلم الأول ، الذى عاش في هدى القرآن وفلك النبوة .

لقد ركز الإسلام — أساسا — على بناء كينونة الإنسان ، وجعلها الأساس لنمو الشخصية المؤمنة في مختلف الجوانب ، وأطلق حريتها ، ووضع لها كل الضمانات لكى تحقق فاعليتها في المجتمع .

وبعد مضي خمسة عشر عاما . من البعثة . وجدنا القرآن الكريم ، يتحدث عن هذه الشخصية المؤمنة ، المتكاملة ، فيقول في حق المؤمنين الذين اشتركوا في غزوة بدر . (**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين**) الانفال / ٦٥ — ٦٦ .

والتقيد بالصبر ، إنما يعني أن المؤمن الأول صابر نفسه في ذات الله بأداء العبادات . وصابر نفسه في ذات الله بالبعد عن كل مايغضب الله ، وصابر نفسه في ذات الله بأن باع نفسه وماله لله عز وجل . وبذا عاش المؤمن في معية الله ، في خاصة نفسه ، وهو يتهجد بالليل ، وعاش في معية الله وهو يراقب ربه في كل

أحواله . وعاش في معية الله وهو ملاق خصمه في ميدان القتال . وهذه المعية أعطته قوة ضخمة في مجابهة الجوانب السلبية التي تنزع بالإنسان الى المسالمة ، والوقوع تحت سيطرة الأهواء ، ذلك لأن شخصية الإنسان تشتمل على عوامل إيجابية ، وعلى عوامل سلبية . ويدور في داخل الإنسان معارك طاحنة ، وصراع نفسي مرير ، بين الجوانب السلبية التي تؤثر الاستكانة والسلامة ، لأن في ذلك الراحة واليسر التي يميل اليهما الإنسان بطبيعته ، وبين العوامل الايجابية التي تنزع بالانسان الى الإقدام في مجابهة غرائز الجسم وأهواء النفس في المجال الشخصي . والإقدام على مجابهة الصعوبات في الجانب الاجتماعي ، والاقدام على القتل ، والقتال . طلبا لمرضاة الله في ميدان الجهاد . وقد جاء القرآن فوضع يده على تلك الحقيقة ، وطلب من المسلم أن يسلم وجهه لله . بمعنى أنه يجب عليه أن يتخلص من العوامل السلبية . وأن يعيش إيجابيا . فيسلم جميعه لربه (**ومن يُسْلِم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها والى الله عاقبة الأمور**) لقمان / ٢٢ .

وإسلام الوجه ، لايكون الا بالتخلص من الجوانب السلبية . ودرجة الاحسان لاتكون الا بسيطرة العوامل الايجابية في ذات الانسان ، وبذلك يؤهل للدرجة التي تليها . فيصل ايجابيته بذات الحق تبارك وتعالى . فيقوى أثره وتأثيره ، ويصلب عوده في مجابهة الباطل ، وبذلك يصل الى بر الأمان ، في الدار الدنيا (**فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها**) ، وليس هناك تراجع ، ولاخذلان ، لأن التوفيق بيد الله ، وهو قد اعتصم به (**ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ الى صراط مستقيم**) ، فمرد الأمر ومرجعه الى الله عز وجل .

إن مجتمعنا المعاصر ، في أزمة طاحنة . مردها ثلاثة عوامل :

العامل الأول :

الخلل الذى أصاب شخصية الإنسان المسلم ، نتيجة عوامل كثيرة . منها إذلاله عن طريق التجويع أو عن طريق التخويف بالقتل والسجن والتشريد والتعذيب أو الغاء كيانه الداخلي عن طريق محو الإسلام من حياته وتلفيق أباطيل لتحل محل الإسلام .

العامل الثاني :

خلل في الجانب الفكري في مختلف مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية والعلمية نتيجة أفكار مريضة نشأت في ظل الجمود أو وافدة من الحضارة المادية الملحدة .

العامل الثالث :

أسلوب المجتمع المسلم المعاصر . في التعامل مع من يستظلون بظله . وهو أسلوب يستهدف أساسا : إمتهان كرامة الإنسان ، وإهدار آدميته وتحقير شأنه بكل ألوان الإذلال ، وقد نتج عن هذه العوامل الثلاثة : فقدان المسلم السيطرة على ذاته ، وتحطم طاقاته في مجابهة المشاكل والتغلب على الصعوبات . وفقدانه للسيطرة على عالم الأشياء ، وهذا يعكس ماتقرره الآية من تكريم الإنسان ، بتحقيق ذاته الانسانية ، وتحقيق فاعليته الاجتماعية ، واطلاق طاقاته البشرية للسيطرة على العالم الداخلي في ذاته ، والسيطرة على العالم الخارجي في دائرة المجتمع ، ودائرة الكون المسخر للإنسان . ومن يعش تحت وطأة القهر لايلام إذا ماعاش على هامش الحياة . أو خارج دائرة الحضارة .

إن المعضلة الأساسية . إنما تكمن في تحرير الفرد المسلم في بلده من عوامل الذلة والمهانة والسلبية التى نتجت عن ذلك . وذلك لايكون الا بحركة إسلامية تتخلص من عقدة أن كل شيء مستحيل ، كما تتخلص من نفسية التساهل والاستهتار . وعدم الجدية في مجابهة المشكلة . وتقدم أساسا على فكرة الواجب وتقديمها على كل شيء . ويكون لها من رصيد الفهم ، وعمق الادراك والقدرة على الحركة مايؤهلها لانقاذ مجتمع المسلمين من الهاوية .

ان وحدة الأمة تقتضي التجانس بين أفرادها في مجال الفكر والسلوك ، وفي

القيم التي تحكم المجتمع ، وتقتضي وضوح الهدف والطريق الموصل اليه ، مع وجود الرغبة الصادقة لدى الكثرة الغالبة في تحقيق الوحدة ، ووجود مصلحة محققة للمنضوين تحت لوائها .. ومما لاشك فيه أن الوحدة الإسلامية تشكل خطرا جسيما على الطامعين في بلادنا والمغامرين النفعيين الذين يضحون بكل شيء في سبيل مصالحهم .

إن وضع الأمور في نصابها يقتضي قيام أجهزة متخصصة لتعميق مفاهيم الو حدة في نفوس كل المسلمين ، ويساندها أجهزة أخرى لتنفيذ الخطوات المرحلية ، على أن تكون تلك الأجهزة شعبية لاحكومية ، وان يتوفر لها المناخ الملائم للقيام بواجبها .

ومما لاشك أن البشرية اليوم وقعت في أزمة معاصرة ، هي أشد خطرا من الأزمات السابقة التي مرت في عهد الأنبياء السابقين ، ويتمثل الخطر في ذلك الكفر البواح الذى تتزعمه الدول الكبرى ، والانحلال الصراح الذى يضج به العالم ، والظلم الذى يقع على عاتق الشعوب المستذلة والمستضعفة في سائر أنحاء العالم .

وهذه الأزمة تبدو شديدة الوطأة كالحة الوجه ، لايكاد الإنسان أن يتبين طريق الخروج منها ، فاذا انضم الى ذلك مأساة المجتمع المسلم المعاصر لوقوعه تحت التيارات الفكرية الوافدة والعادات الاجتماعية المنحرفة ، وسيطرة الأفكار والعادات الوافدة على الكثير من أبنائه ، ووقوعه في دائرة التخلف ، بحيث تعرضت شخصيته للمسخ والتشويه ، فكان هذا التصدع في البنيان العام في جسم الأمة ، وفقد التناصر بين أبناء الجيل الواحد بحكم الانتماء الفكرى والوجدانى الى مدارس شتى وعصور متفاوتة ، وسيطرت على الرأى العام تيارات شتى وافدة لاتصدها سدود ولا تحجزها قيود .

وبدأ الصراع الحاد لاستنزاف طاقات الأمة بين اليمين واليسار ، وبين يسار اليمين ، ويمين اليسار ، وبين الرجعى والعصرى ، وبالتالي لم تعد الأمة تفرق بين الأصالة والجمود ، ولابين النقي الأصيل والطارىء الدخيل ، فعشنا في بلادنا غرباء .

فالرجعي الذى يزعم أنه أصولى تلفه التيارات الغربية وتنفذ اليه بطرق شتى لايستطيع أن يتنبه اليها ، والعصرى يصاب بالجمود في فكره وفي حركته لتأثره بالبيئة التي يعيش فيها دون أن يعرف حقيقة ذلك والتقدمى يصاب بالتحلل من كل القيود وتتحطم شخصيته تحت وطأة الغرائز البهيمية ، ويضيع بين مختلف التيارات التى تهب على الأمة من حين لآخر .

الأمية في المجتمع الإسلامي

إن الأمية هي مشكلة المشاكل في المجتمع المسلم المعاصر ، لأنها إهدار لكرامة الفرد ، وقتل للطاقات الإنسانية وتدمير للقوة البشرية في المجتمع المسلم .

والمشكلة التي تعيشها الأمة تتمثل في أن هناك رواسب من فترات الانحطاط التي مر بها المجتمع الإسلامي في أيام الأفول الحضارى ، حطمت كيان هذه الشخصية وأصابتها بالعقم والانكماش ، ثم جاء الاستعمار فكرس جهده لإبقاء هذه الشخصية في دائرة الجمود ، وبدأ يركز على تغريب مجموعة لتكون سندا له في البلاد الإسلامية لتنفيذ مخططاته والابقاء على مصالحه ، ثم جاءت الثقافة الوافدة لتضفي بعداً جديدا على هذه الشخصية ، فحملت معها مبادىء العلمانية ، أى اللادينية الماركسية والشيوعية والاشتراكية والوضعية المنطقية وغيرها ، وهي كلها فلسفات لادينية ، ثم واكب ذلك التقدم المادى الهائل في مجال العلوم الطبيعية ، ثم انضم الى ذلك الهزائم النفسية والعسكرية والسياسية والثقافية التي مني بها المجتمع المسلم ، في هذا الإطار المليء بالمتناقضات نحاول ان نتحدث عن الأمية في بلاد المسلمين ، وهناك إحصاءات كثيرة تبين لنا أن نسبة الأمية في المجتمع الإسلامي تتراوح مابين ٦٠٪ الى ٨٠٪ وقد تزيد عن ذلك في بعض المجتمعات ، لكنها لاتنقص بأى حال عن ٦٠٪ في اكثر المجتمعات تقدما ، وهي نسبة رهيبة اذا قيست بالنسبة للدول الصناعية أو مايسمى بالدول المتقدمة ، فاذا أخذنا أحسن الافتراضات وهي نسبة ٦٠٪ فان المثقفين يكونون ٤٠٪ في المائة ، فاذا أدركنا أن حوالي ٣٪ منهم يتلقون دراسات إسلامية ، علمنا أن ٣٧٪ أى الطائفة المثقفة الكثير منهم لايعرف شيئا عن الإسلام ، وان المتدينين منهم انما هم متدينون بحكم الفطرة أو بتأثير البيئة التى يعيشون فيها ، لكن الغالبية العظمى من هذه الفئة سواء المتدينين أو غيرهم تسيطر عليهم ثقافة علمانية ومانتج عنها من مبادىء منحرفة ، ويطلق على هؤلاء

أصحاب الأمية الدينية ، لأن الكثير منهم لايعرف من الإسلام الا رسمه ، فاذا انتقلنا الى النسبة الأخرى التي تتلقى الثقافة الإسلامية وهي لاتزيد بحال عن ٣٪ نجد أن هؤلاء للأسف لم يدرسوا الثقافة الإسلامية بأوسع معانيها في مصادرها الأصلية وهي القرآن والسنة النبوية ، بل درسوا بعض الشروح والحواشي لبعض المتأخرين والكثير منها ألف في فترة الأفول الحضارى ، وبالرغم مما تحويه هذه الكتب من بعض الفوائد العقلية والعلمية الا أنها لاتعطي الطاقة الروحية التي تؤهل الانسان لحمل رسالة الإسلام بفاعلية في المجتمع ، وفضلا عن ذلك فان أمر الانفتاح على الثقافة المعاصرة مع الأصالة الإسلامية امر يحتاج الى مزيد من العناية ، يضاف الى ماتقدم انعدام عنصر التربية الإسلامية وعدم وجود التفرغ للدعوة وتحول الدعاة الى موظفين ، وبذا قل وجود الاحتساب لله وهو أهم شيء في مسألة الدعوة الى الله .

فاذا راعينا كل الظروف المتقدمة وغيرها حيث توجد ظروف أخرى لايتسع المقام لذكرها ، فاننا ندرك أن الإسلام قد ظلم من اهله ظلما بيننا ، فعلماؤه لايستطيعون أن ينشروه بين أهله ، فضلا عن ان يقدموه الى المجتمع المادى المعاصر مع الأميين .

مما تقدم يتبين لنا أن الأمية الدينية هي المحور الأساسي لدى معظم الفئات في المجتمع الإسلامي المعاصر ، فاذا انضم الى ذلك الأمراض القاتلة من الحضارة المادية المعاصرة ، أمكننا أن ندرك حقيقة الغربة الإسلامية في مجتمعنا وخطورة التغريب على مقومات أمتنا .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

(الغزو الفكـرى)

إصطلاح لحرب ضروس لاتضع أوزارها حتى تترك ضحاياها وقد انتهى وجودهم المعنوى وأصبحوا دمى في يد الأعداء يعبثون بهم كيف شاءوا .

فالغزو الفكرى جهد بشرى يبذل لضمان كسب معركة الحياة ، ويتميز بالشمول والامتداد فهو لايحصر في ميدان ، ويستمر بصفة دائمة لشل إرادة العدو ولتحقيق ماعجز السلاح عن تحقيقه .

وقد بلغ الغزو الفكرى في العصر الحديث درجة لم يسبقها من قبل ، حيث أنه استخدم أحدث الأساليب العلمية للوصول الى أغوار النفس وتشكيل العقل وتحريف السلوك ، وايجاد الرأى العام الى درجة خطيرة تجعل المهزوم يتخلى عن قيمه ويفقد الانتماء لبلده والولاء لدينه ، وينحاز ظاهرا وباطنا الى عدوه مفتخرا بذلك .

ولقد تعرضت أمتنا في هذه المرحلة من تاريخها للغزو الفكرى من قبل جهات ثلاث :

العلمانية الغربية
والصهيونية
والشيوعية

فأما الغزو العلماني الغربي فقد بدأ منذ بداية الحرب الصليبية . يقول لويس التاسع الذى أسر في دار لقمان في المنصورة في وصيته التي كتبها لقومه ، يجب أن تسبق الجيوش التبشيرية الجيش العسكرى لتحويل المسلمين عن دينهم ، وسبب

ذلك أن الغرب توصل بعد دراسات واجتماعات أن الغزو الفكرى للإستيلاء على العقل والقلب أمكن له من الاستيلاء على الأرض ، فالمسلم الذى لم يلوث فكره لايطيق أن يرى الأجنبي يحتل أرضه ، ولهذا يعمل بكل قوته لإخراجه من ديار المسلمين ، وشعاره في الحرب إما النصر وإما الشهادة .

أما المسلم الذى يتعرض للغزو الخبيث فانه يصبح مريض الفكر عديم الاحساس بالواجب .

ولقد أدرك الأعداء بذلك أنه لاحاجة لهم الى الغزو العسكرى إذا استطاعوا أن يحتلوا عقول المسلمين وقلوبهم .

أما الغزو اليهودى ، فلأن اليهود يحملون أحقادا دفينة ضد الإسلام والمسلمين وضد كل الأديان وهم يحلمون بإقامة دولة اسرائيل من النيل الى الفرات ، ولهذا فانها اتخذت من المحافل الماسونية ، ونوادى الروتارى وغيرها والمؤسسات الصهيونية في مختلف المجالات الثقافية والسياسية والاعلام والاقتصاد والمنظمات السرية وغيرها لغسل عقول من ينتسبون الى هذه المؤسسات من الإسلام ، والاستيلاء عليهم باسم الحضارة والمدنية والتقدم والعصرية ، وغير ذلك من الاسماء التي تستهدف التخلص من الإسلام .

أما الغزو الشيوعي فلأن الشيوعية في الأساس نحلة يهودية ، وقد استطاعت الأحزاب الشيوعية أن تروج لمبادئها الضالة وأن تخضع الكثير من أبنائنا باسم اليسار الإسلامي والاشتراكية الإسلامية وغير ذلك ، حتى لقد إدعوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بالاشتراكية ، وأن ماركس أتم رسالة الاشتراكية ، وهناك وسائل كثيرة استخدمها هؤلاء الغزاة للسيطرة على أبناء المسلمين منها :

١ ــ إنشاء الجامعات الغربية والمدارس التبشيرية في بلاد المسلمين ودور الحضانة والمستشفيات والمستوصفات لإخراج جيل منقطع الصلة عن دينه .
٢ ــ السيطرة على مناهج التعليم في بلاد المسلمين ورسم سياستها التعليمية بحيث

يتخرج في مدارس المسلمين جيل علماني منقطع الصلة بدينه وأمته .

٣ ــ تدريس اللغات الأجنبية في بلاد المسلمين للأطفال منذ نعومة أظفارهم وتدريس كل الأفكار الخبيثة .

٤ ــ نشر أوكار الفساد والانحلال في مختلف البلاد الإسلامية عن طريق الفنادق والمراقص والملاهي الليلية وتشجيع الانحلال العلني في أماكن خاصة يرتادها الشباب .

٥ ــ إنطلاق الجيوش الجرارة من المبشرين وقيامهم بعملهم على أسس مدروسة بوسائل كبيرة وإمكانيات عظيمة يجند لها الكثير من الرجال .

٦ ــ قيام طوائف كبيرة من النصارى واليهود والشيوعيين بدراسة الإسلام ومحاولة تشويهه وتشويه التاريخ الإسلامي خاصة ، وهؤلاء يشتغلون أساتذة في الجامعات ويخرجون تلامذة لهم متشبعين بكل هذه الأفكار الهدامة .

٧ ــ تخصيص إذاعات موجهة تدعو للإلحاد تارة والى النصرانية تارة أخرى ، وإرسال النشرات التبشرية وإصدار الكتب وتوزيعها على أبناء المسلمين خاصة في البلاد الفقيرة يقول الله تعالى (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) ويقول : (ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) ويقول (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) .

إن مقاومة هذا التيار واجب على كل مسلم ، وهو واجب الحكومات والأفراد على حد سواء لايعفى منه أحد .

إننا ندعو أصحاب الاتجاه الإسلامى الى وضع خطة جادة في مجال التربية والتعليم والفكر والثقافة ، لإعادة صياغة الفرد المسلم والأسرة المسلمة والأمة المسلمة وفق معايير الإسلام ، على أن يؤخذ الإسلام بمأخذ شمولي باعتباره منهجا كليا كاملا للحياة ، كما ندعو المؤسسات الإسلامية الى كشف أساليب الغزو الفكرى المستحدثة ومقاومته بنفس أساليبه ، كما ندعو الحكومات الإسلامية الى تبني كل العاملين المخلصين للإسلام ، والضرب بيد من حديد على يد العابثين الذين يريدون تقويض دعائم الأمة وقطعها عن دينها وعن تاريخها الإسلامي .

« التعليم الغربـي »

نشأ النظام التعليمي في الغرب على أساس فصل الدين عن الدولة وعزله عن الحياة نتيجة الصراع المرير بين الكنيسة ورجال النهضة ، ومن ثم فقد جعل للعلوم الانسانية مفهوما يتناقض مع الدين ، كما جعل للعلوم الطبيعية مفهوما خاصا مع الدين ، وجعل للعلوم الاجتماعية كذلك مفهوما خاصا لايتفق مع الدين ، ترتب على ذلك انفصالية حادة في المفاهيم التي تكون ثقافة الإنسان وتناقضات شديدة في المجتمع الغربي ، وقد انعكس ذلك تلقائيا على المجتمع الإسلامي نتيجة استيراد النظم التعليمية الغربية ، وكان الأساس الذى قامت عليه الحضارة الغربية نتيجة فصل الدين عن الدولة وعزله عن الحياة أن قامت هذه العلوم على علاقة السببية ، فحيث يوجد سبب ومسبب ومقدمة ونتيجة ، بغض النظر عن الغاية التي يجب أن تتجه اليها العلوم ، فاستخدمت العلوم بمختلف فروعها في تحقيق المنافع الغربية للإنسان من حيث السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لصالح الإنسان في الحياة الدنيا أو تسخيرها في مجال الصراع لتحقيق النوايا العدوانية في السيطرة على الآخرين ، أو لحل مشاكله المادية والمعنوية فى إطار حياته الدنيوية ، ولم تنظر الحضارة التي قامت على أساس السببية الى الغاية التى يجب أن يحققها العلم ، والمفترض في العلم أن له سببا وأن له مسببا ثم له غاية ينزع اليها ، وهذه الغاية هي التي تسمو بالعلم فتوجهه الى تحقيق الغايات المثالية التي يحتاج اليها الانسان ، وهي بالتالي التي تؤدى الى الايمان بالله تعالى ، والله سبحانه وتعالى هو الغاية التي تتجه اليها جميع الكائنات والتي تسعى اليها كل العلوم ، وهذا بعكس مايوجد في الغرب ، حيث أن وحدات المعرفة كلها منفصلة لاتجمع بينها غاية واحدة ولافكرة توحدها نحو هدف واحد .

ولقد عز الدين على هامش الحياة وأصبح بالتالي على هامش الشعور في ذهن

الطالب فصار هذا الطالب يرى الحياة في الخارج مجزأة ، ويدرك مافيها من أبعاد مختلفة من خلال الأجزاء المستقلة التي اكتسبها ، فصار يرى الحياة متعددة غير مترابطة .

إن تقسيم العلوم الى مواضيع مدرسية مستقلة قد يكون تقسيما منطقيا يمكن ان يجد له مبررا من منظور التراث الغربي ، لأنه تراث يفصل بين الدين والعلم ويوجد بينهما عداوة ضارية ، وهو يقرر تناقض الدين مع العلم وهذا بعكس الإسلام ، فالإسلام يقرر التوحيد كغاية أساسية يصل اليها البشر ، كما يؤكد وحدة المعرفة ، وبالتالي فانه يجعل الهدف من المعرفة الوصول الى الحق واليقين الثابت .

والإسلام لايمانع في تقسيم العلوم على أساس من الاستقلال الذاتي لكل عالم ، لكنه يرى أن غاية كل العلوم واحدة ، وانها جميعا تصب في معين واحد لتعميق الايمان في قلب الانسان ، مع تأكيده على ضرورة توظيف العلوم الإنسانية والاجتماعية والطبيعية في تطوير الإنسان وتطوير البيئة الملائمة له .

إن أساس مأساة الحضارة الغربية ، إنما يكمن في نظرية العلمانية التي تقوم على الفصل بين الدين والعلم وبين الدين والدنيا ، فأوقعت الحضارة المادية المعاصرة في تناقضات شتى .

إن هذا النظام التعليمي الغربي هو الذى ولد الغربة بين المسلمين وبين الإسلام في بلاد الإسلام .

ولقد أدى هذا النظام الى تشكيل البيئة الإسلامية تشكيلا غربيا جديداً ، أصبحت فيما بعد هذه البيئة التي تتشكل فيها نظرتنا الى أنفسنا والى غيرنا ، وأصبحنا نحن أقوى الأدوات في ترسيخ هذا التغريب .

ولقد ساعد على ذلك أن المستعمر فرق الأمة وجزأها وأعلى شأن الأقليات غير الإسلامية ، وجعلها النموذج الحضارى للإنسان الغربي في البيئة الإسلامية كي يقتدى

بها الآخرون ، وشوه تاريخ المسلمين السياسي والثقافي ، كما شوه حقائق الإسلام وفرغ المؤسسات الإسلامية من محتواها تحت شعار التطوير ، واستطاع في غفلة من الزمن أن يطمس معالم الإسلام في عقول كثير من الناشئة ، وان يجعل منهم أعداء حقيقيين للإسلام يرون في الإسلام خطرا يهدد البشرية ، وقيدا على نزواتهم ، وجعل من هؤلاء قيادات في مجال الفكر والسياسة والاقتصاد والثقافة ، واقام الصهيونية ركيزة له في قلب الأمة بهدف إبقائها في دائرة التجزئة والتخلف .

وقد قام نفر من المصلحين بالمطالبة بتغيير الأنظمة والمؤسسات التغريبية في بلاد المسلمين ، وإحياء الجهاد الإسلامي ، على أنه وسيلة الانقاذ ، وبعث المفاهيم الإسلامية في مختلف جوانب الحياة ، ولكن جهود هؤلاء العلماء المصلحين ذهبت أدراج الرياح ، لأن المأساة الحقيقية كانت في النماذج الحضارية الغربية التي تسلمت زمام القيادة الفكرية والتربوية والسياسية والاقتصادية ، والتي حاولت أن تتبنى نظرية الغرب ، في أن الإسلام دين رجعي إنما يصلح فقط للصحراء يوم أن جاء به رسول الإسلام ، ولايصلح للحياة المدنية المتطورة ، كما توهم هؤلاء القياديون أن الإسلام في مأزق حضارى وهو يمثل مدنية متخلفة وبالتالي فلابد من محاربته بهدف القضاء عليه وحتى يلفظ أنفاسه الأخيرة والى الأبد .

وقد نشأ عن ذلك عزل علماء المسلمين عن المجتمع وعزلهم عن العلوم والمعارف الحديثة ، وبالتالي عزلهم عن القيادة الفكرية والسياسية والاجتماعية ، ثم طرحت شعارات جديدو تلبست ثوبا عقائديا هزيلا لتسد مسد الإسلام، مثل القومية والاشتراكية والتقدمية والعلمانية والبعثية ، وكانت هذه مظلات ليصعد تحتها الى مكان القيادة كل من يريد طعن الإسلام والقضاء عليه ، ولقد ساعد على ذلك عاملان أساسيان :

الأول : أن الاستعمار الغربي كان يملك القوة والسلطان والخبرة التي تساعده على تحقيق مجرى الحياة في المجتمع الإسلامي الى مجرى غربي .

الثاني : وجدت فينا أمراض من عهد الجمود أصابت الشخصية الإسلامية بخلل في مختلف جوانبها ، فانعدمت فاعليتها في المجتمع ، وأصيبت بما يشبه الشلل في الجانب الفكرى والوجداني ، فكان عندها مايسمى بقابلية الاستعمار .

« قابليتنا للاستعمـــار »

كانت الخلافة الإسلامية هي الرباط التنظيمي الذى يحفظ على المسلمين وحدتهم ، وكانت العقيدة الإسلامية هي الجانب الحيوى الذى يشد هذا الإطار التنظيمي ويقوى أركانه ويدعم بنيانه ، وكانت الخلافات المذهبية والاختلافات الطائفية والنزعات القبلية والشعوبية والطموحات الشخصية تذوب في إطار الهيكل العام ، إما بدافع العقيدة والروح الجماعية الإسلامية ، وإما بالإطار التنظيمي في هيكل الخلافة الإسلامية ، وكان للتحديات الخارجية ووعي القائمين في مجال الخلافة الأثر الكبير في مجابهة التحديات الداخلية والخارجية ، ولكن جهل الخلفاء بحقائق الإسلام وجعل الخلافة وراثية ، وغيبة العقيدة الإسلامية والروح الجماعية وإثارة الأعداء للأحقاد الطائفية وللنعرات القومية والشعوبية ، أدى الى سقوط الخلافة في نهاية الأمر ، ولم تكن هناك مؤسسات دينية منظمة على غرار المؤسسات الكنسية الموجودة في الغرب الصليبي أو على غرار المنظمات اليهودية التي ظهرت في الغرب والشرق على حد سواء ، ولهذا فانه بعد ضياع الخلافة سقط المسلمون في دوامة رهيبة ، تترك الحليم حيران من الخلافات ومن التجزئة والانقسامات ، وقد حاول المستعمر أن يصرف الأنظار عن الخلافة الاسلامية ، فدعا الى إقامة الجامعة العربية لتجسد القومية العربية في مجابهة الإسلام ، وهاهو الآن يدعو الى تجزئة الجامعة العربية بايجاد مشروع المغرب العربي والخليج العربي ، وقد نسمع غدا وحدة وادى النيل لأن الجامعة قد أدت دورها وأسهمت لفترة جيل كامل كي ينسى المسلمون الخلافة الإسلامية .

ولاشك أن النظام التعليمي الغربي قام بمجهود ضخم في تكريس التجزئة وتحقيق الانفصالية عن الدين ، وفي عزل المؤسسات الإسلامية وتفريغها من محتواها ، فأصبح الدين يؤخذ بالوراثة لا بالعلم والتلقين ، وأصبحت مفاهيمه باهتة في نفوس

الآباء وشاحبة في نفوس الأبناء ، وانكمش علماء الإسلام فلم يستطيعوا مجابهة التحديات المعاصرة في الحضارة الغربية ، واهتم بعضهم بقشور سطحية كطول الثياب وقصرها واعفاء اللحية وحلقها وحرمة التصوير أو حله وإباحة الأغاني أو حرمتها ، واهتم البعض الآخر بقضية الربا والمرأة ، واهتم بعض ثالث بالعبادات دون سواها ، واهتم بعض رابع بالعقيدة لا غيرها ، والسؤال الذى يجب أن يطرح هو هل الإسلام مطلوبا لذاته أم لا ؟ . فاذا كان الإسلام مطلوب لذاته فانه يجب إزالة كل العقبات التي أدت الى ضمور الفكر الإسلامي وضمور الشخصية الإسلامية ، أما اذا كان الإسلام غير مطلوب لذاته وهذا مايريده أعداء الإسلام في الداخل والخارج ، فانه يجب أن يوضع ذلك بالحسبان لكل من يريد العمل للإسلام .

ومن هنا فان الذين يطالبون بإصلاح النظام التعليمي لابد أن يكونوا على وعي كامل بهذا السؤال وبكيفية الإجابة عليه .

« مساوىء التعليم المعاصر »

لقد تولد عن التعليم المعاصر مشاكل كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

أولا : تخريج مجموعة من الطلاب الى المجتمع لم يعد للحياة العملية ، فأصبحت الشهادة تؤهل الانسان الى أن يكون عاطلا عن العمل وغير صالح لمجابهة التحديات المعيشية ، ينتظر صاحبها من الدولة أن تؤمن له رزقه ومعاشه ، وعلى حد تعبير أحد خبراء التربية في العالم الثالث حيث وصف المعاهد التعليمية أنها تزود الطلاب بجوازات سفر للهروب من العمل اليدوى .

ثانيا : النظام التعليمي الغربي وماتفرع عنه من نظام البعثات الى المجتمعات الغربية والشرقية ، ومجيء خبراء واستشاريين في مجال التعليم للاشتراك في وضع المناهج والاشراف عليها ، أدى ذلك الى قلع جذور الكثير من الطلاب من بيئتهم الاجتماعية وعقائدهم الدينية ورميهم في أحضان الغرب ، وبذا أصبحوا غرباء فى بيئتهم . قد أدى هذا الى وجود تناقض اجتماعي حاد بين من يسمون بالتقدميين أى المستغربين وبين من يسمون بالرجعيين أى المتدينين ، وقد تأخذ اللفظة التي تطلق كشعار مضمونا آخر يختلف عن مدلوله الذى أطلقت عليه أولا بين الحين والآخر ، فقد تستعمل الآن كلمة العصرنة والتحديث بدلا من التقدمية .

ثالثا : قام التخطيط في مجال التربية وغيرها على أساس العناية بالحياة المادية للإنسان على حساب النواحي الأخلاقية والروحية ، ومما يؤسف له أن التقنية التي اتخذت وسيلة لتطوير الانسان لم ينل منها الإنسان المعاصر الا مايستورده من الغرب أو الشرق ، وبذا أصبح الإنسان المعاصر في الدول النامية بشكل عام والإسلامية بشكل خاص عبدا للتقنية التي يملكها

غيره ، ويثير لعابه بالطنطنة حولها لما تقدمه للمجتمع من رفاهية ، وبذا تحولت المجتمعات الإسلامية الى مجتمعات استهلاكية ، وأصبحت التقنية التي يسعون لها إسما بلا معنى ، ولفظا بلا مضمون ، ومظهرا بدون مخبر ، وشكلا بدون جوهر .

رابعا : تقليد النظم الغربية في الشكل والمظهر وعدم الأخذ باللب والجوهر ، حيث يوجد في المؤسسة الغربية قيم حضارية يتعود الولد عليها منذ طفولته كإدراك قيمة الوقت واحترام المواعيد ، وإدراك قيمة الإنسان واحترام كرامته ، وادراك قيمة العمل وتكريم العاملين ، والحرية حق مقدس للجميع مع حرية النقد البناء ، والتعود على احترام الآخرين ، وإدراك قيمة الروح الجماعية ، كل هذه القيم وغيرها يصح لنا أن نطلق عليها قيماً حضارية يكتسبها الولد بالممارسة . أما عندنا فإن المؤسسة التعليمية تسير على نمط المؤسسة الغربية ولكنها خلت خلوا تاما من القيم الحضارية ، ومن القيم الدينية على حد سواء ، وان كان الإسلام ينظر الى القيم الحضارية على أنها قيم إسلامية أساسا .

خامسا : الإكثار من الدروس والعلوم النظرية ، والاهمال المتعمد للعلوم العملية والتطبيقية ، وليس ذلك راجعا الى نقص العامل أو العلماء المدربين ، وإنما هو يرجع بالدرجة الأولى الى الجو العام الذى يوحي بالتسيب واللامبالاة ، وعدم توفر الرغبة الكافية للنجاح في مجال التطبيق العملي ، وقد ترتب على ذلك فصل الدروس النظرية عن الحياة العملية ، والتركيز على الاهتمام بالكم دون الكيف .

سادسا : تضارب الفلسفات والعقائديات التي تسيطر على المخططين والمنفذين في مجال التربية والتعليم ، وسبب ذلك أنه لاتوجد غاية واضحة تحدد بجلاء الأهداف المحددة التي تريدها الأمة ، وعدم وضوح الوسائل الواضحة البينة الى تلك الأهداف ، ومن ثم فانه يترتب على ذلك اختلاط الغايات بالوسائل ، فبينما تكون بعض الأهداف لدى البعض ، إذا بها تتحول الى وسيلة لدى البعض الآخر ، وقد ترتب على ذلك وجود سلبيات كثيرة في مجال التربية والتعليم .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

علة الداء

من المعروف في سنن الاجتماع البشرى أن كل مجموعة كبيرة من البشر يوجد فيهم العبقرى والذكي والمتوسط الذكاء ومنخفض الذكاء ، كما يوجد فيهم الأصيل والدخيل والمعتدل والمتطرف والمغالى والمتسامح ، بغض النظر عن جنس هذه المجموعة ولونها ومعتقداتها .

وقد وجد بالاستقراء أن الغلو والتطرف صوتهما أقوى واكثر استجابة لدى الجماهير ، وقد يكون من أسباب ذلك ضعف الأفق والاعتقاد بالأفضلية من حيث الجنس والمعتقد والنظرة الى الأمور نظرة سطحية ، نتيجة تحريف المفاهيم وعدم القدرة على استيعاب رأى المخالفين ، أما التوسط فهو منزلة الاعتدال وهو مشرب القلة المتعقلة التي تنظر الى الأمور بعمق فتجمع الشكل والمضمون وتتجرد من المغالاة بالجنس أو المعتقد .

وقد درجت الأمم على وجود خلافات كثيرة بين الطوائف والفرق المختلفة المتناحرة ، وقد أدى ذلك بالفرق المغالية الى الحط من شأن غيرها والانغلاق عما سواه ، وعدم استيعاب مذاهب الآخرين ، فهي لاترى الحق الا فيما تراه ، وبذا فانه كلما سنحت لها الفرصة أوقعت بغيرها وشنت عليهم حملات باللسان أو بالسنان ، لأنها تستحل أعراضهم ودماءهم وأموالهم .

والواقع أن الخلاف بين الطوائف أمر طبيعى ، وهو ظاهرة صحية لامرضية ،

وسببه اختلاف الناس في قدراتهم ومواهبهم وأمزجتهم وطباعهم ، والاختلاف اذا سلم من التعسف ودرأ من المغالاة يؤدى الى مكافحة الجمود وتطوير الفكر ، وفتح آفاق جديدة لاستكشاف الحقائق ، وبالتالي ظهور الحق ودحر الباطل ، لكن إذا ساد ضيق الأفق وسيطر التعصب وظهرت المغالاة فانه يؤدى الى ضياع الحق وظهور الفتنة وتقطيع أواصر الأخوة في المجتمع الواحد .

ومما يؤسف له أن الأديان كغيرها قد ابتليت بهذه الخلافات والتشرذم بين الطوائف ، وأول من فتح باب الغلو وإطالة اللسان في المخالفين هم الخوارج .

لقد كان الخوارج أصحاب المثالية في تاريخ الإسلام ، لكنهم سيطرت عليهم العاطفة وزلاقة اللسان اكثر من سيادة العقل وفتح باب النقاش الواعي مع المخالفين ، وبذا تحولت مثاليتهم الى مرض عضال أدى الى استباحة أعراض الآخرين ودمائهم .

ومع شدة الصراع السياسي وظهور الشعوبية وضعف نشر المفاهيم الإسلامية ، أصبح الغلاة من كل فرقة يكفرون غيرهم أو يفسقونهم أو يبدعونهم ، مع العلم بأنه يوجد في كل فرقة قوم أخيار ينطوون على التجرد لله ويسلكون سبل مرضاته .

ولاشك أنه يوجد لدى كل فرقة بعض من الحق ، لأن الأمر أمر اجتهاد في محاولة استبانة الحكم والوصول الى الحق ، وكل انسان مجتهد يحاول أن يتوصل الى الحق جهد استطاعته ، ولاحرج على فضل الله في أن يمنح بعض المجتهدين حاسة سليمة وإدراكا واعيا ونورانية صادقة ، يصل بها الى بعض الحق أو الى كله ، وقد يصيب في البعض ويخطيء في البعض الآخر ، ولاحرج على فضل الله ، وليس هناك انسان معصوم ، إنما العصمة لله وحده . وقاعدة الإسلام التي لاتنفصم للمجتهد أجران ان أصاب وأجر إن أخطأ .

يقول ابن حجر في كتاب النخب ، أن كل طائفة ترى أن مخالفيها مبتدعة ، وقد تبالغ فتكفر ولو أخذ ذلك على الإطلاق لاستلزم تكفير جميع الطوائف ، ثم يقول والمعتمد أن الذى ترد روايته من أنكر امرا متواترا من الشريعة معلوما من الدين

بالضرورة واعتقد عكسه ، وأما من لم يكن كذلك أو ينضم الى ذلك ضبطه لما يرويه مع ورعه وتقواه فلا مانع من قبوله .

قال الإمام ابن دقيق العيد ، أعراض المسلمين حفرة من حفر الناس ، وقف على شفيرها طائفتان من الناس ، المحدثون والحكام .

والمفترض فى المحدثين أنهم أكثر الناس ورعا لاشتغالهم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن ظهور علم الجرح والتعديل للتأكد من صحة الرواية وصدق الراوى حتى لاينسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم يقله ، أدى بالمحدثين الى ترك باب الورع واستعمال أسلوب النقد ، ويعلل ابن الصلاح أمر الاشتداد في نقد الغير من الرواة بقوله (وسبب ذلك أن عين السخط تبدى مساوىء لها في الباطن مخارج صحيحه تعمى عنها بحجاب السخط ، لأن ذلك يقع منهم تعمدا للقدح مع العلم ببطلانه) ويعلل الامام ابن دقيق العيد هذه المشكلة التي تدخل الآفة على المحدثين وغيرهم بقوله : والوجوه التي تدخل الآفة منها خمسة :

احدها : الهوى والغرض وهو شرها وهو في تاريخ المتأخرين كثير .

الثانى : المخالفة في العقائد .

الثالث : الاختلاف بين المتصوفة وأهل علم الظاهر .

الرابع : الكلام بسبب الجهل بمراتب العلوم ، واكثر ذلك في المتأخرين لاشتغالهم بعلوم الأوائل وفيها الحق والباطل .

الخامس : الأخذ بالتوهم مع عدم الورع ، وقد نقل ابن عبد الرؤوف بابا لكلام الأقران المتعاصرين بعضهم في بعض ، ورأى أن أهل العلم لايقبل جرحهم إلا ببيان واضح .

يقول الإمام ابن عبد البر في كتاب جامع العلم ما ملخصه : « روينا عن علي رحمه الله أنه قال في كلام له (العلم ضالة المؤمن فخذوه ولو من أيدى المشركين ويأنف احدكم ان يأخذ الحكمة ممن سمعها منه وعنه) وعنه أيضا قال : (الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو في أيدى الشرط) .

والذى نفهمه من كلام الإمام رضي الله عنه ، أن الانغلاق وضيق الأفق ليس من شأن المسلم ، أما الانفتاح على الآخرين مع الاصالة وسعة الأفق لأخذ الحق أو ردّ الباطل أو أخذ وسيلة يستعان بها على رفع راية الحق أو درء سبيل الباطل ، فان هذا الأمر من مستلزمات حياة الانسان المؤمن ، هذا بالنسبة لتعامل المؤمن مع غير المؤمن ، فما بالك في التعامل بين الفرق الإسلامية بعضها مع بعض ، فان الأولى بها الانفتاح على بعضها مع اعتماد مصادر الآخرين والتجرد عن الهوى والتحرز من الأشياء الخمسة التي ذكرها ابن دقيق العيد .

يقول الإمام الشافعي في رسالته الشهيرة باب بيان مافرض الله من اتباع سنة نبيه ، فلذلك عمدوا الى تلقيها من كل ذى علم واشترطوا للعناية بها أن تكون من مسلم عدل صبور ثبت في روايته ولم يبالوا بما غمز أو نبز أو رمي به ، علما بأن المسائل النظرية أو التي دخل على أصولها تأويل ينظر المؤل هي من المجتهد فيها ، والمجتهد مأجور أصاب أو أخطأ ، فعلام يترك الأخذ عن المأجور ، وقد يكون رأيه هو الحق ومذهبه هو الأدق ، مادام الأمر فيه احتمال ولا قاطع أو اعترض النص مارجحه ظاهرا .

ونفهم من كلام الإمام رضى الله عنه ، الى أن التلقي لابد أن يكون من عالم واشترطوا في المتلقى عنه الرواية أن يكون مسلما عدلا صدوقا ، وهذه الشروط منها مايتعلق بدقة الناحية الفكرية كالعلم ، ومنها مايتعلق بالجانب السلوكي كالعدل والصدق ، ومنها مايتعلق بالجانب العقائدى كالإسلام ، فكل مايتعلق بالأمور الإسلامية البحته فانه يلزم للمسلم أن يطبق هذه الشروط ، وأما اذا تعلق الأمر بالعلم مطلقا فانه لايشترط فيه الا العلم ، أما اذا تعلق الأمر بقضية يتطرق اليها احتمالات التأويل فلكل انسان مجتهد أن يدلي برأيه أو ان يرجح من الآراء مايرى أنه يتفق مع الفهم الدقيق والواقع الإنساني أو الاجتماعي أو الحياتي حسب الظروف والملابسات ، ولايحجر الإسلام على ذوى الحجا إبداء الرأى المخالف مادام لايتعلق الأمر بانكار ما علم من الدين بالضرورة ، أو تعسف في التأويل أو عدم وجود الوسيلة التي تمكنه من الفهم .

لقد جعل الله رحما بين المسلمين ، ورحم أخوة الإيمان أقوى من رحم أخوة النسب ، فعلام يقطع المسلمون أرحام بعضهم البعض .

إن تقطيع الأرحام هو وسيلة الشيطان واعوانه لهدم بنيان الأمة ، وتحطيم كيانها ، وأكثر مايكون ذلك في فترات الانحدار التي تمر بها الأمة .

إن رد الشنئان وازالة الاحقاد والقضاء على المعاداة بين المسلمين ، أمر يفرضهالدين وتحتمه مصلحة المسلمين ، لأن المعاداة والمضارة إنما تكون بين الخارجين عن الدين والمارقين من الإسلام ، فهي تكون بين المسلمين وغير المسلمين ، أما الطوائف التي تجمعها كلمة الإسلام وتتجه كلها في صلاتها الى البيت الحرام وتنادى آناء الليل وأطراف النهار بتحكيم القرآن ، فانه لايجوز بينها المعاداة والمحادة ، خاصة حين ينزلق الى هذا الطريق كثير من العلماء الذين يظن فيهم الخير لهذه الأمة ، ومن الأسف الشديد أن يغفل عن هذا الأمر من غفل من علماء المسلمين ، وأن يمارى فيه المتعصبون والجاحدون .

لقد فرض الإسلام على المسلمين التسامح مع غيرهم في دعوتهم الى الحق ، وفي مجادلتهم ببيان صدق دينه وقال تعالى (**ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن**) ، فكيف بنا اذا كان الأمر يتعلق بمجادلة المسلمين للوصول الى رؤية واضحة للقضايا التي يشتبه علينا رؤية الحق فيها .

قال الإمام ابن حزم رضي الله عنه « وذهبت طائفة الى أنه لايكفر ولايفسق مسلم يقول ماقاله في اعتقاد أو فتيا وأن كل من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأى أنه الحق فانه مأجور على كل حال إن أصاب الحق فأجران وإن أخطأ فأجر واحد . قال : وهذا قول ابن أبي ليلى وأبي حنيفة والشافعي وسفيان الثورى وداود بن علي رضي الله عن جميعهم ، وهو قول كل من عزمنا له قولا في هذه المسألة من الصحابة رضي الله عنهم ولانعلم منهم في ذلك خلافا اصلا » .

حركة التاريخ .. ومسؤولية التغيير

إن الإنسانية بشقيها المتقدم والنامى ، تعيش أخطر أزمة في تاريخها الطويل ، ونقطة الحرج التى تمثل عنق الزجاجة هى النصف الأول من القرن الخامس عشر الهجرى .

فاما أن يتقدم الإسلام لإنقاذ البشرية والا فانها مهددة بمستقبل مظلم ، ذلك لأنه قد جرت سنة الله في هذا الوجود ، أنه عندما تصل البشرية الى نقطة الانكسار وهى نقطة حرجه فى التاريخ ، فان ذلك يؤذن بتغيير جديد ، والإنسانية اليوم تعيش لحظة الانكسار حيث تجنى محصول العلقم الذى زرعته بأيديها ، وتكوى ألسنتها مرارته وتحرق ناره جلودها ، أن يؤدى الصراع الذى ينتشر فى كل مكان سواء كان الصراع طائفيا أم جغرافيا ، وسواء كان طغيانا من نظام متسلط على شعب أم من دولة على أخرى ، أم كان ضلالا فى الفكر وانحرافا فى العقيدة وانحلالا فى الخلق أم انهياراً للشخصية والمجتمع ، فان ذلك يؤذن بتغيير جديد ، والتغيير كان دائما باعجاز آلهى على يد نبى ولقد ختمت النبوة بمحمد عليه الصلاة والسلام ولم يبق لها الا معجزة القرآن فهو الوثيقة السماوية الخالدة التى لم يدخلها تحريف ولاتزييف ، فالتغيير إما أن يكون بالعودة الى الله أو بالفناء من على هذا الكوكب ، وانزال العقاب الإلهى بالبشر بما كسبت أيديهم ، والإسلام هو المرشح الوحيد لإنقاذ المجتمع الإنسانى من محنته قبل أن ينزل به غضب الله ، ويحل عليه العقاب الإلهى ، سواء أكان ذلك بحروب مدمرة أو خسف أو مسخ ، لأنه لايوجد حل ثالث لأزمة البشرية .

إن التحولات الكبرى فى تاريخ البشرية لاتتم بين يوم وليلة ، ولاتحدث نتيجة الأمانى المعسوله والنوايا الطيبة ، أو تأتى ثمرة كتاب يؤلف أو خطبة تلقى ، وإنما تحدث نتيجة عمل جاد وفق تخطيط دقيق ، إنها حصاد لصراع طويل بين حقائق تتعانق وتتداخل وتتدافع مع بعضها البعض ، وهى بناء عالم الأفكار وتغلغل العقيدة فى أعماق الوجدان والنظام المسيطر الذى يتيح للكفاءات أن تؤدى دورها ، والقيادة المؤهله للإضطلاع بالأعباء الكبيرة والاستراتيجية المبنية على دراسة واعية للماضى والحاضر والمستقبل ، مع إدراك تام لأبعاد الصراع الذى تخوضه الأمة ، وان مهمة تلك الحقائق هى تفجير طاقات الأمة وتحقيق إرادتها الذاتية للسيطرة على عالم الأشياء ولحمل رسالتها فى الحياة .

إن العمل الأول فى التحولات الاجتماعية ، إنما يبدأ بتغيير الفرد من صفاته البدائية كالأنانية والحقد ، وتسير الى صفات اجتماعية كالإيثار والتضحية والوفاء وغيرها ، ليصبح إنسانا متكاملا يحمل رسالته فى التاريخ ، ويعتبر هذا الفرد نواة المجتمع الجديد الوليد ، ولعل ذلك هو المعنى المراد بقوله تعالى (**إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من** المشركين) .

فكما أن النواة تحمل خصائص النخلة فكذلك الرجل الأمة يحمل خصائص المجتمع الربانى ، ويحمل رسالة السماء ليوحد الأمة الربانية فى أى مكان يحل به ، ولينشر هدى الله ، وليجعل كلمة الله هى العليا فى كل مكان ، لأنه حامل رسالة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، يسعى نوره من بين يديه ومن خلفه لأنه فى إخلاص نفسه وتجرد نيته وقوله وعمله ويقين قلبه وقوة ارادته وصلابة شخصيته ويقظة ضميره وتفتح وجدانه وسعة أفقه وسداد رأيه ، يمثل النموذج الحق للشخصية الربانية المؤمنة .

إن التحديات التى واجهت أمتنا فى العصر الحاضر كثيرة ، وقد ظهر فشلها الذريع فى مجابهة كل هذه التحديات ، وسبب ذلك أن أمتنا لم تع حقيقة إمكانياتها ولم تدرك دورها التاريخى ولم تتعمق أبعاده .

ففى مجال الفكر ، لايزال الفكر الإسلامى قاصرا عن أن يرتفع الى مستوى تقديم التصور العام الإسلامى للوجود الصهيونى وللمشكلة اليهودية فى ابعادها الثلاثة الماضية والحاضرة والمستقبلية ، كما لايزال قاصرا عن تقييم الحضارة المادية المعاصرة بشقيها الالحادى والعلمانى وتقديم الإسلام كدواء إلهى لحل مشاكلها المستعصية ، واذا لم يقدم المفكرون الإسلاميون حلولاً عملية جذرية للمشاكل المعاصرة التى نتجت عن الانحراف عن هدى السماء ، فانه سيتحول الى حقائق نظرية تتهم بأنها غير قابلة للتطبيق ، مثله فى ذلك مثل الفلسفات المجردة التى تتجه الى العيش مع أصحابها فى بروجهم العاجية .

وفى مجال العقيدة ، فان العقيدة لم تعد هى المحور المعنوي الذي يربط المسلم بربه ويجعله يتخلق بأخلاق القرآن ، ويقدم ماله ونفسه قربانا لله لإعلاء كلمته ، ويتحمل كل المخاطر فى سبيل ماتمليه عليه عقيدته ، إن الارادة الذاتية للأمة لاتنبع الا من روح قوية ، وأن إرادة القتال لاتنبع الا من التكامل العقائدى .

ان تكامل الشخصية لايعبر عن ذاته الا اذا كان هناك تماسك بين الفكر والحركة والوجدان والارادة ، وتوحدت المواقف فى الشدة والرخاء والرغبة والرهبة ، وذلك لايكون الا اذا كانت العقيدة صحيحة ، ووضعت فى إطارها السليم ، لتفجير طاقات الشخصية الإنسانية لربطها بالله ودفعها بقوة لأداء رسالتها فى الحياة .

والنظام هو الاطار الذى تنصهر داخله الروح الجماعية ، ووحدة الصف ووحدة الهدف ، فهو القبضة التى توجه الضربة للعدو ، وهو الجدار الذى يستوعب الصدمة دون أن يتأثر بها ، وذلك يقتضى أن يحقق النظام العدل والحق والحرية والكرامة ، وأن ينشر الخير للجميع ، وأن يتيح حرية النقد البناء لكل العاملين ، وأن يستهدف الأسلوب الذى يستخدمه فى تعامله مع أفراد الشعب إتاحة الفرصة للكفاءات كى تؤدى دورها ، وتنمية كل المواهب وتفجير كل الطاقات وتوجيهها لصالح البشرية جمعاء .

أما القيادة بخصائصها وإمكانياتها ، فهى التى تستخدم عالم الأفكار والعقيدة

لتحقيق سلامة الأمة ، وتقوية جسدها ووضع استراتيجية لتحقيق منهاجية المواجهة .

إن كل ذلك لم يتحقق منه شيء لأمتنا ، لأنها دخلت المعركة تحت شعارات وهمية كلها تتناقض مع الإسلام .

إن التحديات التى تواجهنا كبيرة ، وأن الأعباء الملقاة على عاتقنا أكبر ، فليست مهمة أمتنا الانتصار على الصهيونية فقط ، وانما مهمتها إنقاذ البشرية من محنتها الرهيبة التى تعيشها وإخراجها من الظلمات الى النور .

إن الأحمال الثقيلة لايطيقها الرجال المهازيل ، وان الأفكار العظيمة إنما تنبع من القلوب الكبيرة ، وأن المحن القاسية إنما يحملها الرجال الاشداء .

وقد كتب على أمتنا — وهذا قدرها — أن تؤتمن على رسالة الهداية للبشرية جمعاء وفى الخمسين سنة القادمة لابد أن تتبوأ مركز القيادة على المسرح العالمى لتنقذ العالم من هاوية محققة .

مسؤولية الأمـة :

إننا نحمل اليوم كفلين من العذاب ، الكفل الأول لأننا لم ننتفع بهداية الإسلام ، والكفل الثانى لأننا قد خنا رسالتنا فلم نبلغها الى العالم أجمع .

وسبب ذلك أننا لسنا على مستوى المسئولية لحمل رسالة الإسلام ، لقد ورثنا أمراضا مزمنة تمثلت فى الجمود الفكرى نتيجة الخلافات التى تزيت باسم الإسلام ، وفى العجز الحركى نتيجة إذلال الأمة لفترة طويلة لسبب الطغيان الفردى ، وفي فقد السيطرة على عالم الأشياء لافتقادنا للمنهج العلمى والأسلوب التطبيقى العملى ، وزاد الطين بلة مخططات الاستعمار لإحداث شلل كامل للأمة الإسلامية ، ويأتى فى مقدمة تلك المخططات اقصاء الصفوة عن أماكن القيادة لأنهم هم الذين يمثلون فضائل شعوبهم ، ثم استخدام طائفة من خلصاء المستعمر اصطفاهم ليمثلوهم فى

أداء دور الاذلال للأمة ، ثم وضع مخطط للافساد والاذلال والتخريب لمحو الكرامة وإسقاط الرجولة ومحق الشرف وسحق الشخصية الانسانية وتحطيم الرأى العام فى الأمة .

لقد عشنا فى أكبر مؤامرة على أعظم حضارة فى تاريخ البشرية ، لكننا مع ذلك لانزال نعيش فى هذه المؤامرة كأنها تعنى أحداً سوانا ، ولا تعنينا فى شيء ، لأن المؤامرة تتم يوما بعد يوم ونحن نحيا فى آثارها حياة المستمتع بأباحة ولياليه .

إن أشد النكبات التى يصاب بها البشر هى الغفلة ، لأنها محو لما تقوم به حياة الناس ، والمرء لايكون ناميا الا مع اليقظة ، فإذا سلب اليقظة فقد استقر فى حومة الموت والهلاك وان بقى حيا يتحرك .

إن أى أمة تقبل المساومة على أهدافها لاتستحق الحياة الكريم ، خاصة وأن حقائق القوة وحدها هى التى تحكم العالم اليوم ، والأسئلة التى يجب أن نوجهها الى أنفسنا فى كل لحظة لنضع الاجابة عليها .

ماهى أساليب التآمر على حضارة الايمان ؟
ومن هم العملاء الذين ينفذون هذا التآمر فى الداخل ؟
وكيف يتم صناعتهم وكيف نواجه هذه المخططات الاجرامية ؟
وما هى أسباب غفلتنا عن هذه المؤامرات ؟
هل هو اليأس ؟
هل هى الثقافة الالحادية ؟
هل هو الاذلال للأمة ؟
هل هى الأمراض المزمنة ؟
هل هو الجهل بحقائق الاسلام ؟
هو هو الجهل بحقائق الصراع ؟
هل هى هذه الأمور مجتمعة ؟
ماهى أهداف الأمة ؟
وما هى المخططات لتحقيق تلك الأهداف ؟

ومن هو المراقب المحاسب الذى يعاقب المفرطين فى أهداف الأمة ؟

إن العدو يدفعنا الى الدخول فى دوامات من الشك والصراع الطائفى والجغرافى للدخول فى متاهة الدوامات ، وصراع الدوامات كمصارعة الثيران ينهك القوى ولايحقق نتيجة رابحة ، انه تبديد لطاقات الأمة وإهدار لكرامتها ومنعها من أداء رسالتها ، وهكذا تجد الأمة نفسها داخل دائرة مصطنعة يساعد كل شىء فيها على تزييف إرادتها وتحطيم أفرادها .

إن التضليل العلمى المخطط والاستنزاف الدائم لطاقات الشعوب والتحطيم المنظم لحملة الإسلام ، هو الطريق الواضح لتقويض كيان الأمة الإسلامية ، وهو يتعدل دائما تبعا للطوارىء ووفقا للدراسات المخصصة لذلك ، ونحن اذن نحتاج بجوار فهمنا العميق للإسلام الى أن نتعلم علماً آخر جديداً ، هو علم الحركة ، وهو علم يفترض فى القائمين عليه التألق الفكرى والادراك العلمى العميق . والقدرة الذاتية على التنبؤ بمخططات الأعداء من كل جانب ، واستخدام الأساليب العلمية لإجهاض مؤامراتهم الحالية ومخططاتهم المستقبلية ، وهو العلم الذى يحدد لنا المعارك التى يتعين على الأمة أن تخوضها وأن تخرج منها منتصرة بقوتها الذاتية وإرادتها القهارة .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

« سبيل الإصلاح »

نشأ الجيل الذى ننتمي اليه وسط ضباب كثيف يحجب الرؤية المستقبلية ، حتى لايكاد الإنسان أن يتبين أى ملامح للمستقبل ، بل لقد اشتد الضباب حتى أفقد الإنسان المسلم المعاصر رؤية مواقع أقدامه .

وعندما يفقد الإنسان الرؤية الواضحة يقع في حيرة وتعتريه ظلمات من الشك وبلبلة في الفكر ، ويحتاج الى شعاع الفجر الصادق . الذى يحمل معالم الحق ليكشف له عن هويته ، وعن أبعاد المأساة التي يعيشها ، وملامح الطريق التي يجب أن يسلكها لتحقيق غاياته المنشودة . وأهدافه المشروعة ، ولقد بدأت تلك الأشعة تتسرب الى مجتمعنا عن طريق منافذ الفكر التي بدأ يرسلها رجال الاصلاح الإسلامي ، وبعض الجماعات الإسلامية التي أخذت تشق طريقها بقوة في ميدان الإصلاح عن طريق تحرير المفاهيم الإسلامية . والتربية الإسلامية ، ولقد تعثرت جهود الإصلاح المضنية التي بذلها الدعاة لأسباب كثيرة . منذ أطلق جمال الدين الأفغاني صيحة الإصلاح حتى الآن . وكثيرا ماكان يسائل الإنسان نفسه عن أسباب تلك الكبوات التي يتعرض لها المسلمون ، والقرآن هو القرآن ، والسنة هي السنة ، وقد تكفل الله بحفظ القرآن على مر الأجيال ، وقد نشأت حولهما ثقافات إسلامية واسعة ، وكثر عدد المسلمين بحيث تضاعفت مرات كثيرة عما كان عليه عددهم في عصر الصدر الأول . فما السر في تأخر المسلمين وتخلفهم وتشتتهم وضعفهم ؟ حتى لقد أصبح يضرب بهم المثل في الذلة والعبودية . وقد كانوا قبلا سادة الدنيا وقادتها . ولِمَ تعثرت حركات الإصلاح عندنا ؟ في الوقت الذى سلمت حركات الإصلاح في المجتمع الغربي وبعض المجتمعات الشرقية .

لقد وضح لي من خلال التجارب التي مرت بها أمتنا في مجال الاصلاح . أن حجر الزاوية في مجال الإصلاح هو الإنسان . وقديما روى بعض الفضلاء أن مريضا جاء الى ذى النون فقرأ عليه سورة « نون » . فذهب مابه من وجع . فلما مات ذو النون عادت الرجلَ علتُهُ فجاء الى تلاميذه ومريديه . وشكا اليهم مابه ، وطلب من أحدهم قراءة نفس السورة فقرأها عليه أحدهم عدة مرات ، ولم تذهب علته فسأل عن السبب ، فقال له آخر هذه « نون » ولكن أين ذو النون ؟ . وسواء أصحت هذه القصة أم لم تصح فانها ترمز الى أهمية الشخصية الربانية المسلمة التي تستطيع أن تصنع الأعاجيب فى مختلف الميادين ، وقد قالوا إن لله عبادا إذا أرادوا أراد . فهذا هو القرآن . وهذه هى السنة المطهرة . وهذا رصيدنا الضخم من الحضارة الإسلامية ولكن أين الانسان المسلم الذى يحمل رسالة الإسلام كما حملها المسلم ؟ .

إبتليت أمتنا بأمراض مزمنة تجمعت على الجسد الإسلامي فأنهكته ، وموقف المصلح الاجتماعي كموقف الطبيب المعالج ، إنه يحاول التشخيص التام أولا ويدرك أبعاد خطورة المرض على جسد المريض ، ثم يحاول أن يصف الدواء الذى يوقف الداء حتى لايستفحل ثم يظل معه في العلاج حتى يبرأ المريض من علته ، ويشترط من الطبيب أن يأخذ شهادة تخصصية قبل أن يمارس العلاج ، ولاشك أن الاصلاح الاجتماعي أشد خطرا وأكثر تعقيدا من العلاج المادى المحسوس ، إنه ينطوى على أمراض نفسية واجتماعية وخلقية واقتصادية وسياسية ، وكلها أمراض معقدة ، ولذلك كان المصلحون الاجتماعيون أقل عددا من الأطباء المعالجين ، على أنه يشترط في المصلح الاجتماعي شروط كثيرة ، منها أن يدرك حركة التاريخ في تطوراتها المختلفة ، وأن يدرك أبعاد التطور الحضارى ، وأن يعرف الاتجاه العام للعصر الذى يعيش فيه ، وأن يعي أبعاد الخطوط العريضة التي تحدد المستقبل للتطور البشرى بشكل عام ، ولأمته بشكل خاص ، وأن يكون قوى الإرادة صادق العزيمة سوى الشخصية متجردا في القول والعمل ، وأن يرزق اليقظة الروحية وصدق الحدس وصحة الفراسة ، ذلك لأنه يعالج أمة ، وأى خطأ في العلاج أو خلل في التشخيص يؤدى الى قتل أمة أو إبعادها لفترة طويلة عن الهدف المنشود .

لقد بدأت أمتنا حركة الاصلاح مع بداية القرن التاسع عشر ، ومع ذلك فما

زالت أقدامنا تتعثر في الطريق ، وسبب ذلك أن نقطة البدء — كانت خاطئة وكل ماترتب عليها من إصلاح كان بعيدا عن الطريق السوى ، وكلف الأمة جهودا مضنية وأضاع عليها فرصا كثيرة .

لقد ظن محمد علي ومن معه في مصر أن استيراد الآلات الحديثة والتأهيل المهني هما أساس التحديث لمصر ، ومن ثم فانه الوسيلة لتحضير الأمة دون النظر الى الأمراض المزمنة ، ودون وعي لرسالة الأمة وأهدافها .

هناك خلل أصاب بنية الشخصية الإسلامية على فترات متباعدة ، في الجانب العقلي والروحي والإرادى ، فأصيبت بنية العقل عن طريق تحريف الثقافة الإسلامية ، وإغلاق باب الاجتهاد وترجمة ثقافات وثنية ضالة أو إسرائيلية مخرفة ، كما أصيب الجانب الروحي عن طريق انحراف التصوف السني وشيوع البدع والخرافات ، فكانت النتيجة الحتمية لذلك أن أصيبت الارادة الانسانية بالعجز ففقدت سيطرتها على عالم الأشياء المحيطة بالانسان ، بعد أن فقدت سيطرتها على الإنسان ذاته .

وكان للغزو الاستعمارى المخطط أثر خطير على سحق الشخصية الإسلامية وإبقائها في دائرة التخلف والعجز والخمول ، ومحاولة استغلال العوامل السلبية الموجودة في واقع العالم الاسلامي للإبقاء عليها في مجال تكوين الفرد والمجتمع لدى الفئة المناوئة للاستعمار . أما الفئات الأخرى التي خضعت خضوعا كاملا لسيطرة الحضارة المادية الغربية ووقعت أسيرة للثقافة العلمانية الغربية ، فهؤلاء حاولوا قطع صلتهم بالاسلام وإضفاء صور البطولة الوطنية والبطولة الفكرية عليهم ، لأداء مهمة مشبوهة تخدم صالح الصليبية الدولية .

لقد دخلت الأمة نتيجة الخلل في بنية الشخصية الإسلامية ، وبنية المجتمع الإسلامي ، في غيبوبة الجمود والتخلف والتقليد ، وسادت الخرافات وأصيبت الشخصية المسلمة بما يشبه الشلل النصفي ، فانكمشت في زوايا النسيان ، وعاشت تجتر آلام الحاضر وتفخر بأمجاد الماضي ، وعاشت بذلك على هامش الحياة ، وتنحت تلقائيا عن حمل لواء الحضارة ، حتى فاجأها الاستعمار الحديث في عقر دارها ،

فكان ذلك صدمة قاسية اهتزت لها جنبات العالم الإسلامي ، واختلت بها موازين القوة في العالم ، وبدأت الأشباح المتهالكة التي سحقها الجهل وحطمتها الخرافة تترنح على مسرح الهزيمة واليأس ، وبدأت النفوس اليقظة والعقول الواعية تدرك أبعاد المأساة ، فأخذت ترتب أوراقها وتعيد حساباتها من جديد للخروج من هذه الأزمة الخانقة ، بيد أن الاستعمار كان من الدهاء والمكر والخسة واللؤم بأحوال الأمة وبمقدساتها وبإمكانياتها الحضارية ، ماجعله لايترك الفرصة لهذه القوة كي تتحرك من جديد ، فأخذ يخطط لقطع الأمة عن ماضيها وسلخها من دينها وتجزئة أوطانها ، وقد عمد بذلك الى تشويه حقائق الإسلام وتشويه التاريخ الإسلامي ، ووضع مناهج لتخرج رجال لايؤمنون بالإسلام ، وقامت بهذه المهمة أجهزة متخصصة ، تتبع وزارات الخارجية والاعلام ، ووزارات الاستعمار القديمة ، ومن أهم هذه الأجهزة التبشير والاستشراق والمدارس الأجنبية والبعثات التعليمية ، ولم يكتف الاستعمار بكل ذلك ، بل أوجد بؤرا للصراع في داخل الأمة لتحطيم طاقاتها وتبديد قواها ، تمهيدا لابتلاع أجزائها جزءا بعد جزء ، حتى يستطيع أن يطوى أعلامها الى الأبد ، ومن الأمثلة الواضحة لذلك قضية فلسطين ولبنان ، وقضية الجمهوريات الإسلامية داخل روسيا وألبانيا ، وبعدها مأساة أفغانستان ، ويضيق بنا الأمر إذا حاولنا أن نعدد كل القضايا التي أصاب بها الأعداء الإسلام في مقاتله .

ولقد ابتكر الأعداء ومعهم العملاء في الداخل ، أشياء كثيرة لامتصاص نقمة الأمة وصرف ثوريها الغضبية عن طريق العودة الى الإسلامىألهائها بأشياء جانبية لأتمت الى مصلحة المسلمين بصلة ، يأتي فى مقدمتها الأشياء الترفيهية وبعض المؤتمرات واللجان التي تعقد من حين لآخر بايعاز من الخارج ، ثم الصراع القاسى والمرير بين الشعارات المطروحة على الساحة الإسلامية ، وقد زودت بكل الامكانيات المادية والعلمية في مجابهة مايسمى بالرجعية الدينية (الإسلام في أنقى مظاهره) .

إن هناك مئات الأساليب الملتوية الخبيثة لحلها تستهدف القضاء على الإسلام ، منها مايدركه المسلمون ومنها مالايدركونه ، لأنها أساليب شيطانية لاتخطر لشياطين الجن على بال ، ولذلك فان المسلم يحتاج في وضعنا الحالي الى جهود مكثفة لرفع وعيه الإسلامي والسياسي ، بجوار تكوين شخصيته الإسلامية تكوينا سليما .

إنه لكي يولد الانسان المسلم من جديد ، لابد أن يوجد لقاح بين الحضارة في جانبها الإيجابي والسلبي . الإيجابي ممثلا في الشروط الأخلاقية والأسلوب العملي الذى يسيطر على المجتمع . بمعنى أن تتوفر كل الضمانات اللازمة لحماية الإنسان المسلم وتكريمه ، وتوفير الضرورات له ، وتحقيق القيم في مجال المجتمع ، والتدريب الفني في مجال الانتاج ، وبين الجوانب السلبية التي تمثل خلو هذا الإنسان من أى مؤثرات خارجية ، كالفلسفات المادية أو الانحلال أو كليهما ، أو الجمود الذى انحدر الينا من فترة ماقبل الاستعمار ، وكلا الأمرين أى الوباء الوافد من الخارج وقد تزيًّا بزى الحضارة والتحديث والمعاصرة ، والوباء الموروث تزيًّا بزى العادات والقيم وميراث الأباء ، قد اجتمعت وقد اجتمعت معها كل هذه العوامل على شخصية الانسان المسلم المعاصر ، وأصابتها بالعقم فتنحية هذا الركام كله عن نفسه وتوفير الضمانات له ، وإعادة الفاعلية للعقيدة الإسلامية باعتبارها الدافع الأساسي لحركة المسلم والخلية الأولى في تكوين شخصيته ، ذلك هو اللقاح الطبيعي الذى يتولد عنه شخصية المسلم المعاصر ، وتبقى المهمة الأساسية لتوفير هذا المناخ الملائم وتحقيق اللقاح لكي يتربى الجنين داخل رحم الحضارة الإسلامية لرجل السياسة ورجل الثقافة ، فرجل الثقافة مهمته إزاحة الركام الذى يشوه حقائق الإسلام وتقديم الحقائق الإسلامية نقية صادقة ، ورجل السياسة مهمته تقديم الضمانات الكافية لحماية هذا الجنين من التشوه ، فان لم يتوفر هذا ولاذاك فلابد من حركة إصلاحية راشدة تعمل وفق خطة مرحلية مدروسة ، لانشاء جيل جديد عن طريق مؤسسات ضخمة في مجال الثقافة والاعلام والتربية والاقتصاد ، تعمل من خلالها على إنشاء الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم ، وذلك أمر تحتمه طبيعة العصر ويفرضه واقع المسلمين وتستوجبه الأزمة المعاصرة للحضارة الغربية ، ولو اجتمع لنا الإصلاح على المستوى الحكومي والمستوى الشعبي لكان في ذلك الخير الكثير لأمتنا وللبشرية جمعاء .

وقد حاولت إبراز تلك المشاكل المحلية والعالمية مع تشخيص العلاج اللازم لذلك ، لكي يتبين للقارىء معالم الواقع وملامح المستقبل ، وليست المهمة التي نتوخاها في هذا المجال سهلة ، لأن هناك مؤثرات كثيرة غير ماذكرنا داخلية وخارجية تحتاج الى دراسات مستفيضة . وقد حاولت في كتابي هذا تأملات في واقع المسلمين

المعاصر أن أبين البحث عن أصل الداء وتشخيصه في مختلف المجالات ، ومحاولة وصف الدواء قدر الاستطاعة ، على أني غالبا مااختار للموضوع آية كريمة تكون محور الحديث عن ذلك المرض وبيان علاجه .

ولقد كانت تلك مقالات متفرقة أعملت فيها الفكر قدر الاستطاعة للبحث عن مفتاح الحل في قضية المجتمع المسلم المعاصر وفي قضية الانسان المسلم ، فإن أك قد وفقت للوصول الى الهدف المنشود فذلك فضل من الله ، وإن أك قد أخطأني التوفيق فذلك من ضعفي وقصوري ، وماتوفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب ، والله أسأل أن ينفع به وان يثيب كل من شجعني على نشره في كتيب ، رجاء أن ينفع الله به .

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير .

« أزمة الهويــة »

إن حرص الشباب على تخطي مرحلة الطفولة وبلوغ مرحلة الرشد ، ليس مجرد نزوة شخصية ، وإنما هو مطلب من مطالب النمو والارتقاء ، إن عملية الارتقاء النفسي الاجتماعي ليست نتيجة تحقق آلي لاستعدادات فطرية موروثة ، وإنما هي عملية تتوقف سرعتها وخط سيرها ومحتواها على علاقات الفرد بالآخرين ـــ الأسرة ـــ الزملاء ـــ المنظمات الاجتماعية المختلفة ، وباتساق القيم والتقاليد والعادات الشائعة .

ومن أهم المشكلات التي تأتي بها بداية الشباب مايتعلق بفهم الشباب لما يجرى في كيانه من تحولات والتكيف معه وقبوله .

التحولات العضوية تتم أحيانا بشكل فجائي لاتتفق مع بطلان النمو في الجانب المعنوى ، بحيث لايترك للشخص الوقت الكافي لتأملها واستيعاب دلالتها ، وإعادة تنظيم تصوراته ومواقفه وتصرفاته بازائها .

المشكلة في فترة الشباب تتمثل في أن الشباب لايعرف من هو ؟ وماالمطلوب منه ؟ وماهو المسموح به ؟ وماهو غير المسموح به ؟ . فالأزمة إذن أزمة نمو عقلي ونفسي ، وترتبط عمليات النمو بقدرة الانسان الذاتية ، وبالامكانيات المتاحة له ، وبأسلوب المجتمع في إتاحة الفرصة له في تحقيق ذاته ، ويحتاج الانسان في هذه المرحلة الى حاجات أساسية هي :

أولا : الحاجات الفسيولوجية وهي الطعام والشراب والميل الجنسي .

ثانيا : حاجات نفسية وهى تتلخص في فهم الذات وتأثير استقلالها والحصول على الاعتراف بالاستقلال وتقبل الآخرين لها .

ثالثا : حاجات اجتماعية : وهي تتمثل في أداء دور محدد في المجتمع مع وجود علاقات الحب والصداقة مع الآخرين .

فاذا تخطى الشاب هذه المرحلة ، فانه يوجد لديه طموحات ، وتمثل مجموعة الظروف الاجتماعية والحضارية وسرعة التغيرات التي تحدث في العالم ، موجة رد فعل ضد طموحات الشباب في بعض الأحيان ، فبينما توجد تكتلات عالمية سياسية واقتصادية يتحقق فيها بعض معاني الحرية والديمقراطية والعدالة ، يجد الشباب العربي في مجتمعهم الصراع على مستوى الاقليمي ، عدم وجود الدخل الكافي الذي يوفر الكرامة للشباب في الوقت الذى يتطلعون فيه الى مستوى أعلى .

وهناك الخلفية التاريخية التي أثرت بشكل متفاوت على مختلف القطاعات في المجتمع العربي ، والتي أدت بدورها الى تأثير الشباب بها ، وقد تمت في ظل الاستعمار ، فهي لم تكن حركة داخلية بحق ، وإنما تأثرت في سيرها بالنهج الاستعمارى والثقافة الاستعمارية ، ولقد أدى ذلك بها الى التأرجح بين التراث العربي الاسلامي والثقافة المادية الغربية ، وسبب ذلك هو الفراغ الحضارى الذى كانت تعيشه الأمة ، نتيجة فترة التردى الحضارى الذى عاشت فيه .

ولقد تعرضت الأمة — ومازالت تتعرض — لضغوط حضارية واجتماعية أجنبية ، عملية الكف على المدى الطويل قد تؤدى الى تربية نوع من الخجل الشديد من الحديث عن أمور المراهقة قد يصل الى حد الشعور بالاثم من مجرد التفكير فيها ، كما يؤدى الى الارتباك الواضح في سلوك الشباب في حضور أشخاص من الجنس الآخر ، وقد يؤدى الخوف من الارتباك الى سلوك الانسحاب في حضور الجنس الآخر ، مما يخلق في بعض الناس شعورا خاطئا بأن الشخص متكبر ، في حين أنه في حقيقته خجل من التصرف الذى قد يؤاخذ عليه .

« مشكلة النضج الانفعالي »

هي بالطبع تحتاج لعلاقات الشباب وتفاعلاتهم الاجتماعية ، وليست مجرد ملامح فطرية ، وعلى سبيل المثال يرجع بعضهم سرعة الغضب أو البكاء الى الكبت نتيجة لعدم وجود من يسمع ويتعاطف ، أو ذكريات الطفولة المؤلمة أو كثرة المشاغل الراهنة ، ويزيد الموقف تعقيدا أن مشكلات النضج الانفعالي هي نفسها عامل من عوامل تأخر الارتقاء النفسي الاجتماعي ، لأنها تسبب للشباب حالة من القلق المرهق الذى يؤدى الى مزيد من المشكلات ، وبخاصة مايأتى منها من رد الفعل الاجتماعي غير المتبصر .

وحين يحدث هذا التعقيد يؤدى الى عدم الثقة بالنفس والانسحاب ، ونقص الحماس للعمل ، وربما يؤدى الى نوع من اليأس المطلق من جدوى العيش ، ويؤدى الاحساس بالعجز عن التكيف في المواقف الاجتماعية مع رفاق السن والكبار الى نوع من التشاؤم والاحساس بسوء الحظ الذى يسوق في حالاته المتطرفة الى نوع من كراهية الحياة والإحَياء .

« تشكيل الشخصية »

النظرية الأولى للحضارة هي التي تحدد دوافع الشخص وقيمه واتجاهاته وسلوكه ، أو سمات شخصيته ، وأنها بفضل مطاوعة الفرد الانساني للتشكيل في مراحل الطفولة الأولى تصوغ الامكانيات الخام للفرد بالشكل الذى يتفق مع مقوماتها الأساسية . من يذهب الى ان تشكيل الشخصية الإنسانية يتم بفصل علاقات الفرد بالآخرين من خلال عدد من المؤسسات الاجتماعية .



الفصل الثانى

وسائل القــوة

(١) الطريق الى شريعة الله

مهمة الإسلام تقوم على تحقيق أمن الإنسان وسلامته ، وذلك لايكون الا بتربية المسلمين تربية إسلامية ، ووضعهم في مكان القيادة في المجتمع ، ويقومون على تطبيق شريعة الله وذلك كي تتحقق عمليا في واقع المجتمع .

ولايقتصر دور الإسلام على تفهيم الناس مجموعة من العقائد في مجال الألوهية والنبوة والدار الآخرة ، ومجموعة من الرقائق الاخلاقية في مجال القيم الإسلامية والسلوك الانساني ، اذ لو اقتصر أمر الاسلام على ذلك ، لوجب أن نحذف من القرآن والسنة كل مايتعلق بأمور الجهاد وكل ما يتعلق بأمر تحكيم شريعة الله ، وليست هذه مهمة الاسلام ، قد تكون مهمة ديانة أخرى كالمسيحية إذا صح دعواها بالاقتصار على الجانب الخلقي والعقائدى في الدين الذى نزل على المسيح عليه السلام ، لكننا ندرك عن يقين أن الإسلام وضع نظاما متكاملا للحياة لتنظيم السلوك الفردى والجماعي في مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والثقافية والتربوية والاعلامية وغيرها ، وهو لايقبل ولايرضى لأبنائه أن يخضعوا في هذه المجالات لغير الإسلام .

والإسلام وإن اعترف بأن الديانات السابقة كلها بأنها حق من عند الله قبل ان يدخلها التحريف ، الا أنه أقر ببطلانها بما دخلها من تحريف ، ولأنه وحده الحق الذى ارتضاه الله للبشرية جمعاء ودون سواه باطل ، فقد قرر تقويض النظم غير الإسلامية ، واعتبرها طواغيت لايجوز الخضوع لها ، وأمر اتباعه وألزمهم بالجهاد لتحقيق الإسلام في واقع المجتمع ، اذ لامعنى لأن يقدم الإسلام نظاما متكاملا في

الحياة ثم يتركه حبيسا بين دفتي المصحف أو بين جوانب معتنقيه دون أن يتحقق في واقع المجتمع الإنساني ، ولامعنى لأن يقدم الإسلام نظاما متكاملا للحياة ثم لايوضح الطريق بإقامة هذا النظام ، وأنه لغريب حقا أن يفهم الكثير من المسلمين وجوب وجود نظام إسلامي صالح للحياة وتحقيقه في واقع الناس ، ثم يحيا المسلمون خاضعين لنظم باطلة تتعارض تعارضا كاملا مع النظام الإسلامي .

لقد أمر الإسلام أتباعه بأن يحيوا لله ، وأن يموتوا لله ، وأخذ عليهم البيعة بأن يبذلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله ، ومعنى في سبيل الله هو تحقيق العدل ونشر الخير وحماية الفضيلة وتحقيق الأمن ، وإقامة الحق ، ودحر الباطل ، أى بمعنى آخر أنه يعني تحقيق شريعة الله في أرض الله .

والإسلام حين يسيطر على الحياة فانه يحقق للآخرين من غير المسلمين الأمن والطمأنينة والهدوء والسكينة ، ويحترم عقائدهم وعباداتهم ، ويحمي أموالهم وأعراضهم ويعطيهم الحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم دون المساس بشرع الله .

وبالتالي فان الإسلام لايأمر أتباعه في أن يتدخلوا في ديانة الغير ، واذا كانت سنة الحياة هي الصراع بين الحق والباطل ، فان على المسلمين أن يتدخلوا في حالة الضرورة ، أى عندما يريد الآخرون فرض عقائدهم على المسلمين ، أو محاولة هدم النظام الإسلامي من الداخل أو من الخارج ، على أن يكون ذلك في إطار شرع الله بلا اعتداء ولا ظلم للآخرين .

في أى مجتمع لابد من قيام حكومة تحمي القيم التي يعتنقها هذا المجتمع وتطبق المبادىء التي ينادى بها الشعب ، وتقيم من المؤسسات والنظم مايساعد على تحقيق هذه المبادىء وحمايتها .

إن هذا أمر بدهي تشهد به الفطرة السليمة ، ويؤكده كل المفكرين العقلاء ، اذ لايمكن استتباب الأمن وحماية الناس من الظلم ورعاية المصالح وحقن الدماء وصيانة الأعراض بوجود قوة قاهرة تمنع المجرمين من ارتكاب جرائمهم ضد العزل الآمنين .

بيد أن هذه الحكومة سوف تطبق النظريات التي يؤمن بها جمهور هذا الشعب ، فان كانت نظريات باطلة فانها ستطبقها وسيشيع وجودها في المجتمع ، وان كانت حقائق ثابتة في مجال العقيدة والخلق ونظام الحياة ، فانها ستؤثر على أفراد المجتمع وستنطبع الغالبية العظمى بطابع هذه المبادىء ، فلو افترضنا مثلا أن قانونا يبيح الزنا طبقته الحكومة في مجتمع ما ، فان ذلك سوف يؤدى الى فوضى في الانساب ، ولن يفلت منه الا القليل النادر ، وكذا الأمر لو أبيح الربا والقمار والميسر والخمر واللواط وغيرها من الجرائم الخلقية ، فان عمومها وشيوعها ومشروعيتها وحماية الدولة لها سيؤدى حتما الى امتداد خطرها الى الغالبية العظمى لسكان هذه الدولة ، ولو فرض أن حكومة تقوم على الإلحاد لاتؤمن بدين ولاتخضع لقانون سماوى فانها ستفرض نظرياتها الباطلة عن طريق مناهج التربية وعن طريق أجهزة الاعلام ومختلف أجهزة الدولة ومؤسسات المجتمع ، مما يترتب عليه التأثير الكامل في الجيل المعاصر والأجيال اللاحقة ، ولن يستطيع الأتقياء أن يفلتوا من تأثير الإلحاد ، ولو فلت كبار الأتقياء فانهم لن يستطيعوا أن يحموا أبناءهم ولا أبناء غيرهم من جرائم الكفر والالحاد، فالمشكلة إذن تتضح اذا أدركنا خطورة دور الحكومات في حماية المبادىء والنظم التى تعتنقها.

إن البعض يرى أن قيام الحكومات العلمانية وهي الحكومات التي تعني بفصل الدين عن الدولة ، هو الحل الأمثل لحل مشكلة تعدد الديانات في مجتمع واحد ، اذ أن هذه الحكومات ستعني فقط بالأمور الدنيوية ، أما مايتعلق بالأمور الدينية فان مرجعه الى معتنقي الدين أنفسهم ، فالدين مسألة شخصية ، للإنسان أن يؤمن به أو أن يكفر به ، على الانسان أن يعلمه لأبنائه أو لايعلمهم إياه ، وليس للدولة دخل في ذلك ، حتى لاتثور الحزازات والمعارك الطاحنة بين اتباع الديانات مع بعضهم البعض وهذا الكلام يتنافى كلية مع الإسلام .

إن الإسلام شرع للمسلمين نظاما متكاملا يجب أن يعتنقه الفرد ، وان يطبقه ، وأن تقوم الأسرة بتطبيقه ، وأن تقوم الدولة برعايته ونشره وحمايته وتطبيقه ، وحدد الإسلام مسئولية كاملة للفرد ، ومسئولية كاملة للأسرة ، ومسئولة كاملة للدولة ، ولايعفى إنسان ما من المسئولية ، ولاتعفى هيئة ما من مسئوليتها بين يدى

الله في الدار الآخرة وأمام المسلمين في الدنيا ، هذا من جانب ومن جانب آخر فان الواقع العملي يؤكد أن وجود الدولة العلمانية وعلى رأسها حكومة علمانية يعني أن مبادىء الباطل سوف تسيطر على الغالبية العظمى من أفراد الشعب ، لأن عملية التذويب التي يتعرض لها الفرد وتتعرض لها الأسرة في اطار المبادىء العلمانية ، وحرمان كل من الفرد والأسرة من القيم الدينية التي يتشربها الإنسان عبر أجهزة الاعلام ، وفي اطار المنهج المدرسي ، سيترك المجال أمام مبادىء الباطل وقوى الشر للسيطرة الكاملة على هذه الأجهزة ، وقطع صلة الناس بقيمهم الدينية ومبادئهم الخلقية ، وبالتالي فانهم سيقودون المجتمع الى الكفر والضلال والفسق والانحلال ، ذلكم لأن الصراع بين الحق والباطل قديم قدم البشرية ، وسوف يظل ممتدا على الأرض الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فان لم يتقدم الحق ويأخذ زمام المبادرة للسيطرة على أهل الباطل وقيادتهم الى الجنة وانقاذهم من النار ، فسوف يتقدم الباطل للسيطرة على المجتمع وعلى المؤمنين وقيادتهم الى النار ، وحرمانهم من الجنة ، وبالتالي فان حياتهم ستتحول الى بوار في الدنيا والآخرة .

ومن جانب آخر ، فالله سبحانه وتعالى هو مالك الملك ، وهو مدبر أمر هذا الكون ، وهو الخالق للإنسان والمسخر له كل مافي الكون لخدمته ، ومن حقه على هذا الانسان أن يطاع فلا يعصى ، وان يعبد فلا يكفر ، ومادامت الأرض أرضه والكون كونه والانسان مخلوقه ، وقد وضع القانون يسعى الانسان فى عمارته للأرض وخلافته عن الله ، فليس من حق هذا الانسان أن يخرج عن قانونه ، فان خرج عن قانونه فليخرج من أرضه ومن كونه وليخلق لنفسه كونا آخر يعيش فيه ، ولكن هذا الإنسان الظالم لنفسه والباغي على بني جنسه والكافر بربه ، قد خرج في كثير من الأحيان عن قانون الله ، وتنكر لحكم الله .

وكان مقتضى العدل الإلهي تحطيم هذا الانسان الباغي ، لأنه لاحق له في الوجود في هذا الكون بعد بغيه وطغيانه وكفره وعصيانه وظلمه واجرامه ، ولكنها رحمة الله الكبرى ، وفضله الواسع ، وحلمه الذى لانهاية له ، ان يدع الكافر على كفره ، وان يرزقه مع ظلمه ، وان يمد له في طغيانه الى الحد الذى يكون فيه سببا في فساد البلاد ، وهلاك العباد ، ومحاربة حكم الله ، ومحادة الله في الأرض ونشر فتنة الكفر .

ومن هنا فان حكمة الله التامة وسننه الكاملة التي امتن بها على المؤمنين بالهدى الى صراطه المستقيم ، أوجبت على المؤمنين شكر الله على نعمه ، وذلك يكون بمجاهدة قوى الظلم ومغالبة طواغيت الكفر ، وتحطيم دولة الباطل ، واخضاع شوكة الإلحاد لقانون الله ، وذلك لايكون الا بمقارعة الكفر بالحجة والبرهان ، والسيف والصولجان ، حتى « يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » وتعلو راية الحق ، ويصبح الدين كله لله ، وحينئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

إن مهمة الأنبياء هي إظهار دين الله على سائر الأديان الأخرى ، وتحقيق العبودية لله ، وتحرير الناس من عبودية ما سواه ، هذه القاعدة العامة التي تفسر لنا كل سير الأنبياء السابقين وطريقة الأنبياء هي واحدة ، وتبدأ بالدعوة الى الله وتحمل الأذى في سبيل تبليغ الدعوة ، ثم تنظيم المؤمنين في جبهة واحدة وتوحيد غايتهم ، ثم مجاهدة الكافرين حتى يتحقق وعد الله لأنبيائه ، وقد يكون الاستيلاء على السلطة طريقا لتحقيق دين الله كما حدث ذلك ليوسف عليه السلام (**وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من شاء ولانضيع أجر المحسنين**) على أنه ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار أنه لايمكن أن تقوم دعوة وإن تحقق التنظيم والجهاد وإن تغير المجتمع دفعة واحدة ، بل إن تغيير المجتمع يحتاج الى تحديد المفاهيم وتغيير النفوس وتنظيم الجماعة في مجال الجهاد ، وتطبيقها للقيم التي تعتنقها ، وبعد ذلك يتم تغيير المجتمع ، وهذه المراحل تختلف باختلاف أمراض المجتمعات ، كما تختلف باختلاف القائمين في مجال الاصلاح ، ومدى فهمهم لمشاكل المجتمع وفهمهم لقيمهم التي يدعون اليها وتطبيقهم لها وتفانيهم في تحقيقها .

والذى يراجع تاريخ الصدر الأول يجد ذلك واضحا في المرحلة المكية والمدنية على حد سواء ، وقد بيّن لنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجهاد لإقامة الحق أمر ضرورى تفرضه طبيعة الحياة وتحتمه عوامل الدين ، قال صلى الله عليه وسلم (والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال لايبطله جور جائر ولاعدل عادل) .

(٢) « انتكاسة الفطرة الإنسانية »

الاتجاه المادى الذى يسود العالم يمثل طفولة بشرية في التفكير وأنانية في السلوك ، وتبدو مظاهر الطفولة البشرية في الايمان بالمحسوس المشاهد والاقتصار على الحياة الدنيا ، وعدم الايمان بالآخرة والكفر بالله عز وجل ، وهذا الاتجاه ليس جديدا على البشرية ليتحدثوا معه كما ظهر مع الكفرة في عهد نوح عليه السلام ، ووثنى بابل فى العراق في عهد ابراهيم عليه السلام ووثنى الجزيرة العربية في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمجتمع الإنساني لايخلو من طفولة بشرية في التفكير في مختلف العصور ، فالماركسيون الذين لايؤمنون بالأديان وغيرهم ممن يشاركونهم هذا الاتجاه لايزيدون عن عبدة الأصنام والكواكب والحيوانات في مختلف العصور في تفكيرهم أو سلوكهم ، وتبدو الأنانية في السلوك في مظاهر النفعية والانتهازية والنفاق والرياء والخيانة والتآمر والاستغلال ، بحيث تصبح الذات هي المركز الذى يدور حوله الانسان ، فكل مايحقق وجود الذات هو الحق الذى لاشك فيه ، ولو كان يعارض كل الأديان ويحطم كل القيم الانسانية ، وكل ما يخالف أهواء النفس ورغباتها هو الباطل ولو كان حقا من عند الله ، وبذا انقلبت موازين القيم في المجتمع الانساني واستباح البشر كل مايغضب الله عز وجل وأباحوه بقوانين وضعية باسم الديمقراطية ، وسخروا لحمايته السلطة التنفيذية باسم الحرية ، ولذا فان المادى بسبب مايعيش فيه من طفولة بشرية في الفكر والسلوك يكره أن يذكر بالله (**وإذا ذُكِرَ الله وحده إشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة وإذا ذُكِرَ الذين من دونه اذا هم يستبشرون**) .

ويقابل الاتجاه المادى ، اتجاه آخر يمثل الايمان بالله عز وجل ، وهو اتجاه يمثل الرجولة في عمق التفكير وتجرد السلوك ، والقرآن الكريم يذكر الرجولة في عمق التفكير بقوله (**من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نَحْبَه ومنهم من ينتظر ومابدّلوا تبديلا**) فالمؤمن الحق هو الذى لم يعاهد الله إلا بعد أن أدرك مايجب لجلاله ومايستحق من كمال في الصفات والأفعال . إن الايمان بالله عز وجل يمثل قيمة الكمال للبشرية وصفات الكمال الإلهي كالرحمة والحلم والعدل والقدرة والابداع والهيمنة والملكية والعزة والجبروت ، وغير ذلك ، تمثل القيم العليا التي تحتل بؤرة الشعور لدى الفرد المؤمن ، وتمثل القيم العليا التي تسود المجتمع الاسلامي .

والمسلم يفترض في نفسه أن يتمثل هذه القيم في خاصة نفسه على قدر طاقته البشرية ، فهو لابد أن يكون رحيما وقويا ، وان يكون مبدعا وحليما عفوا ، وأن يكون عزيزا كريما وجواداً منيعا، وبذلك تتكامل شخصية المسلم ولايكون فيها جانب من جوانب الضعف أو الانفصام بل تكون شخصيته ذات قدرة وإبداع وذات رحمة وعفو وذات هيمنة وسيطرة وذات رأفة وعلم ولكل صفة من هذه الصفات موضعها فيشتد في موضع الشدة ويلين في موضع الرحمة .

والإسلام يفترض في المؤمن أن يضع لنفسه منهاجا خاصا يطبقه في حياته لينمي شخصيته ويقوى جوانب الكمال الانساني في نفسه ، وما العبادات التي افترضها الله عز وجل على عبادة الا منهاجا متكاملا لتقدم الانسان وتنمية مواهبه وترقية وجدانه وتهذيب عواطفه . وما الأوامر والنواهي التي جاءت في القرآن الكريم الا بيانا واضحا وصريحا لطريق السلوك الى الله عز وجل للفرد والأسرة والمجتمع .

ويذكر القرآن الكريم الرجولة في تجريد السلوك بقوله (**في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال ، رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار**) .

فالمسلم قلبه معلق بالله دائما ، يخشاه في سره وجهره ويؤدى حقه في حالتي

العسر واليسر ، وهذا لايعنى انه ينقطع عن الدنيا أو يعيش بعيدا عن المجتمع ، بل انه ينغمس فيه ، وتكون له السيادة والقيادة في الجاه والمال ، ولكنه لاتسكره خمرة الدنيا ولا لذة الجاه ، بل في غمرة النجاح وفي عز السلطان يكون أقرب مايكون الى ربه (رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله) .

والمسلم الايجابي لايداهن ولاينافق ولايجامل على حساب دينه (**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين**) .

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه ، وهم مطالبون بجهاد أنفسهم أولا حتى تستقيم على الحب والبغض في الله والتجرد من هوى النفعية والمهادنة والمخادعة والتخلص من الارتباط بزخرف الدنيا ومتاعها والتطهر من الشح والبخل ، وتزكية النفس من الركون والدعة وحب الحياة في ظل ضلال الوثنية وعبادة النفعية ، فاذا استقامت نفوس المسلمين على الجادة وجب عليهم أن يخرجوا لتثبيت دعائم الحق في المجتمع الانساني بعد أن يكونوا قد أقاموه في أنفسهم ومجتمعهم .

ومما يؤسف له أننا نعيش في عصر طغت فيه الطفولة البشرية في الفكر والسلوك على المجتمع الانساني ، فأصبح دين الناس المنفعة ومعبودهم المال والجاه ، وقيمهم مستمدة من كل مايحقق لهم هذه الغاية وانزوت تبعا لذلك الرجولة في الفكر والتجرد في السلوك ، فلاتجد من يقوم سلوكه وعلاقاته وأفكاره بميزان الاسلام ، ولا من يتجرد مخلصا لتزكية النفوس وتطهير القلوب وتغيير المجتمع .

ومما لاشك فيه أن الصلاة وهي شعيرة الاسلام الأولى لها أهمية خاصة فى عروج النفس نحو الكمال لو أديت بوعي وخشوع وانكسار وخضوع ، لأنها استجماع للقلوب على الله وتركيز للفكر على الحق وإعلاء للنفس عن دنس الهوى وتصفية للفطرة مما علق بها من أدران ، وترقيق للمشاعر مما أصابها من جمود ، وتهذيب للوجدان مما لحق به من ركود ، واخراج للانسان من دائرة الجاذبية الأرضية

الى جاذبية الحضرة الإلهية ، وهي فضلا عن ذلك توحيد للصف فلا تشتت الجماعة ، وهي تدريب على النظام فلا يرتكس المسلمون في المستنقع الآسن . وتربية على الطاعة حتى لاتحدث الانسان نفسه بالخروج على الجماعة ، وايقاظ حاسة النقد لدى المأمومين والمحكومين ، حتى لايستبد الخطأ بالامام ويتمادى فيه وفيها تعميق لمعنى المساواة والمواساة ، حتى لايطغى القوى أو يذل الفقير أو يحرم الجائع أو يهمل المريض ، وفيها تمرين على التعاون والمؤاخاه حتى لاتتشعب بالمسلمين السبل أو تتنازعهم الأهواء وفيها نظافة لباطن الانسان وظاهره ، لأن الله جميل يحب الجمال « فنظفوا ثيابكم حتى تكونوا في الناس كالشامة البيضاء » .

وفيها رياضة روحية وجسدية لأن المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف .

وبالجملة فان الصلاة فيها وجبة غذائية كاملة من الناحية الروحية والفكرية والمادية والاجتماعية ، تصلح بها شؤون الفرد وكيان الأسرة وأواصر المجتمع ، وفيها تقويم للإنسانية في تفكيرها وسلوكها ، وبذا تتخلص من طفولتها البشرية .

دور الأخلاق في بناء الأمـم

قبل الحديث عن الأخلاق والسلوك ، نحب أن نبين أن الأخلاق هي أساس ارتفاع الأمم وهي أساس انخفاضها ، ولذا يقول عليه الصلاة والسلام « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » إذ الأنبياء جميعا كانت مهمتهم بعث الخلق في الفرد والمجتمع ، لأن بعث الخلق هو الأساس لبعث الأمة وبعث الفرد ، أو بمعنى أدق لاحياء الفرد وإحياء الأمة ولتوضيح ذلك .

مرحلة العقل　　　　　　　　لحظة الانكسار

مرحلة الروح　　　　　　　　مرحلة الغريزة

يتبين أن هناك في التاريخ مايسمى بالدورة الحضارية ، وتبدأ الدورة الحضارية بسيطرة الروح على الجسد وتسمى هذه المرحلة مرحلة الصعود ، وهذه المرحلة يسيطر فيها الايمان على الانسان ويتغلغل في أحشاء النفس ، فيبعث الحياة في الروح ويجعلها مندفعة للعمل لاتبالي بالعقبات .

ويسمى هذا الايمان بالايمان الاشعاعي ، حيث يكون اشعاعا نورانيا في قلب الإنسان المؤمن يجعله على يقين من أمره وعلى ثقة بربه ، ويكون له اشعاع اجتماعي بحيث يؤثر الانسان في المجتمع ، أما اذا كان الايمان يعيش مع صاحبه فقط في حاشية النفس ، وعلى هامش الشعور فانه إيمان يسمى إيمانا فرديا أو ايمانا جذبيا ، لانه لايرفع صاحبه الى أعلى وانما يجذبه الى الأرض التي يعيش عليها فيحيا لغرائزه فقط

وشهواته أو يحول حياته الى ركود دائم ، بحيث تفقد نفسه الهمة وينعدم تعطشه للفهم وتعطشه للعمل .

فما الذى يحرك هذا الإيمان ؟ .

إن هناك عدة أمور يجب توفرها لتحريك الايمان ليكون ايمانا مؤثرا في حياة الانسان والمجتمع .

إن الايمان قيمة دينية ، وهو في نفس الوقت قيمة خلقية ، وهو يستلزم قيما خلقية كثيرة كالصبر والشجاعة والتواضع والعزة والتضحية والايثار والوفاء والعدل والتوكل على الله وغير ذلك من الأخلاق الأساسية .

وبعث الايمان ومايستلزمه من قيم خلقية كان يتم في التاريخ باعجاز إآلهي ، ذلكم لأن الانسان باعتباره إنسانا فيه رغبة جامحة لاستكناه المجهول وإدراك الأشياء ، ولكن عقله لايساعده على إدراك الغيب ومعرفة حقائق الأشياء في عالم الشهادة ، وبالتالي فانه لايدرك حقائق الدين فيحتاج الى اعجاز إآلهى يقدم له حجة الاقناع بالدين ، وبما يشتمل عليه من قيم خلقية ، وهو في نفس الوقت يؤهل الانسان نفسيا لتلقي مافي الدين من هدى إآلهى وهجر كل مايخالف عقيدته . ويشترط في الاعجاز أن يدركه الجميع وأن يكون فوق طاقة الجميع .

فاذا ماجئنا الى كتاب الله عز وجل ، وجدنا أن العربي الأول بلغ من سلامة الفطرة وروعة الاعجاز البياني الى أقصى درجة تؤهله لأن يدرك أن كلام الله فوق طاقة البشر جميعا ، وأنه حين يسمعه أو يتلوه يأخذه الدهش والعجب والخشوع والرهبة ، ويدرك أنه أمام معجزة حقيقية ، كما أدرك سحرة فرعون أن عصا موسى ليست من جنس سحرهم ، وإنما هي معجزة إآلهية فوق طاقتهم ، حينئذ انسكب الايمان في قلوبهم فلم يبالوا ، فحين هددهم فرعون بقوله : لأقطعن ايديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين لم يأبهوا لقوله (**بل قالوا إنا الى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين**) الاعراف / ١٢٤ — ١٢٦ .

ولاشك أن الاعجاز يترك تأثيرا نفسيا ضخما على الانسان فيجعله يغير سلوكه اذا آمن الانسان بالمعجزة .

وحين نستعرض قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه فإننا نجد جسده يقشعر عندما يسمع آيات من أول سورة « طه » ، فتأمره أخته بالاغتسال والنطق بالشهادتين ، فيمتثل لذلك ويصبح من جند الله المخلصين ، أما الوليد بن المغيرة فانه يهتز لروعة القرآن ولكن عمى البصيرة يجعله يتنكر للإعجاز الإلهي فلا يلبث أن يرتد الى حمأة الشرك بعد أن كاد يسلم .

الإعجاز يؤثر على كيان الانسان ويجعل القلب يرتجف من شدة الفزع والقلق فيتجه الى ربه يأنس به والى كتابه يرتشف منه .

إن رجفة القلب هي بداية التحرك وقد تكون عن طريق الاعجاز أو عن طريق التحديات التي يتعرض لها الانسان فمالم تحدث رجفة القلب يظل الانسان في دائرة الركود والجمود .

حين يرتجف القلب يبدأ الانسان يتجه نحو مثله الأعلى وهو الله ، ويتخذ لنفسه قدوة يتأسى بها في طريقه الى الله وهو الرسول عليه الصلاة والسلام ، والله سبحانه يتصف بكل صفات الكمال فهو عالم ومريد وغنى وكريم وقوى ورحيم وعادل ومعين ، وغير ذلك من صفات الكمال ، ويبدأ المسلم يتصف بهذه الصفات على قدر طاقته البشرية فتكون ذاته ذات علم وذات قوة وذات عدل وذات رحمة على قدر اتصافه بهذه الصفات على قدر قربه من الله وعلى قدر بعده عن هذه الصفات يكون بعده عن الله سبحانه وتعالى .

وتعتبر حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه هي الوسيلة لبلوغ الغاية ، وهي غاية القرب من الحق ، إن في جانب الزهد أو العبادة أو الذكر أو الدعوة الى الله باعتباره أعرف الخلق بالحق .

وهنا يوجد الانسان المتكامل الذى يدخل التاريخ ، لأنه يعرف طريقه في الحياة ويبذل جهده لابتكار الوسائل نحو بلوغ غايته في هذا الوجود يضطلع برسالته الحضارية في التاريخ .

تلك بداية مرحلة الروح التي يعقبها مرحلة العقل ، وهي مرحلة استيعاب للحضارات السابقة يعقبها حالة انكسار تبدأ بعدها المرحلة الغريزية ، ويأتى الانكسار نتيجة انقلاب مفاهيم القيم فتصبح القيم الخلقية التي كانت أساس إيجاد الانسان المتكامل ، هي أساس ايجاد الانسان المتحلل من رسالته ومن وسطه الاجتماعى الذي يعيش فيه الانسان النفعي الذى يفقد معنى التضحية والفداء والمروءة ويعيش على هامش الحياة صعلوكا لايؤبه به .

وهذه نقطة خطيرة في تاريخ الأمم والجماعات يجب التنبه لها لأنها أساس بلاء الشعوب في تاريخ الانسانية ، فانقلاب القيم لحظة الانكسار في تاريخ الحضارة وهو بداية العقم والأفول فى تلك المنطقة لتشرق في منطقة أخرى ، فمثلا بالنسبة للحضارة الإسلامية يؤخذ التواكل على أنه توكل ويؤخذ الكبر على أنه عزة وتؤخذ المذلة والهوان على أنها تواضع ، ويؤخذ الضعف والركود والخمول على أنه قدر الله ، وفي الحضارة المادية ينتشر الانحلال والاستغلال باسم الحرية والتحلل من الدين باسم المؤاخاة .

التغير هنا لايصيب النظام السياسي وإنما يصيب الانسان في ذاته ، فتصاب شخصيته بالشلل وبالعقم ، فيفقد همته ويعجز عن الابداع وابتكار الوسائل ، ويعجز عن ادراك الأشياء وتمثلها في نفسه وبالتالي فانه لايستطيع تنمية مواهبه ، بل إنَّ مواهبه تصبح كماً مهدرا لاقيمة له .

وتطغى على الانسان أمراض الشيخوخة والهرم لحضارة فقدت عبقريتها في الابداع ، ويعبر الانسان عن عجزه في هذه المرحلة بالكلام لا بالعمل وهذه احدى مظاهر المرحلة .

أمراض قاتلة

لابد من وجود علاقة بين الكلام والعمل ، وهذه العلاقة تقوم على عدة أمور منها ، أن يؤمن الانسان بما يقول وأن يكون لديه الارادة التي تحمله على العمل ، فاذا انعدم الايمان بالمبدأ أو ضعفت إرادة الانسان عن الالتزام بما ينادى به ، فان الكلام في هذه الحالة يتحول الى كمٍّ مهمل لاقيمة له ، ويفقد وزنه في المجتمع كما يفقد صاحبه تأثيره في الحياة الاجتماعية .

فاذا رأيت أناسا يتشدقون بالكلام لمجرد التفاصح ولاظهار قوتهم البيانية وحجتهم الكلامية ، فان هذا الكلام يعتبر مجردا من القوة بل انه يصبح سوأة في المجتمع ، ومن شأن المجتمع الحي أن يدارى السوءات فاذا لم تدارى السوءات نتجت عنها أمراض قاتلة .

أما اذا وجدت لدى الإنسان رقابة ضمير ، ووجد لديه قيم خلقية تحكمه ، فان كلامه يكتسب قوة مؤثرة ويتحول الى عمل جاد مؤثر في المجتمع .

إن هناك شرطين أساسيين : أحدهما سلامة الفكرة .. والثاني العمل المبني على الفكرة . والذى يحدث على الساحة منذ زمن بعيد أنك تجد عملا مرهقا لكنه بدون فكرة سليمة ، أو تجد فكرة سليمة لكنها حبيسة في صدر صاحبها لاتجد لها متنفسا في مجال العمل ولهذا الموضوع عدة أسباب :

فعدم سلامة الفكرة سببها أن هناك أفكارا وردت الينا من الخارج وهي لاتمت

الى وضعنا الاجتماعى والثقافي والديني بصلة ، فهي فكرة غربية في منشئها وهي تتحول الى سم قاتل في مجال الحياة الاجتماعية ، وهناك أفكار سقيمة وردت الينا نتيجة الأمراض المزمنة والمستعصية في فترات الانحطاط التي مرت بها أمتنا ، ولقد سيطرت هذه الأفكار في مختلف مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية ، وأصبحت تكوّن خليطا متنافرا لتصنع منه عقول الأجيال الناشئة .

ووسط هذه الفوضى العجيبة ، غابت الفكرة السليمة ونحيت القيم الخلقية والاجتماعية الاسلامية عن الحياة ، وأصبحت حبيسة في كتب لاترى النور ، وتوقفت روافد الفكر الاسلامي عن الحركة في الجانب الاجتماعي .

إن كل فكرة سليمة يظهر لها تأثير في مجال الحياة الاجتماعية ، وكل حركة تقوم على فكرة تؤدى دورها المضطرد في تقدم المجتمع .

إن المنهج القائم على التلقين لايهتم بإبراز الفكرة السليمة وبيان شروط صلاحيتها للحياة وفاعليتها في المجتمع وخطورة غيبتها عن الحياة ، كما لايهتم بابراز خطأ الأفكار الضارة الوافدة من الخارج أو المتبعة التي وردت من عصور الجمود ، ولذا فانك تجد السلوك الذى يخالف القيم الاسلامية في مجال الحياة الاجتماعية يسيطر على الحياة في النادى والمكتب والمتجر دون أن يجد تكبرا من أحد .

إن منهج التلقين أوجد أناسا تافهين يهتمون بظواهر الأشياء دون بواطنها ، وبالعرض دون الجوهر ، فبينما تجد من يتشدد في قصر الثوب وطوله تجده يغفل عن تضييع حدود الله وتنفيذ شريعته في مجال العدل وتحقيق الكرامة للإنسان ، وينسى الحديث عن أمراض النفس وأمراض المجتمع وهي أخطر بكثير مما يتوهمه .

أما مشكلة العجز عن العمل فانها ترجع الى أمراض رهيبة كثيرة عششت منذ زمن بعيد فى مجتمعاتنا الاسلامية .

فقد سيطرت على الأذهان فكرة كمال الانسان لمجرد أنه مسلم دون أن يعمل

بمقتضى الاسلام ، وقد كان لهذا الخلل أثره في انحراف سلوك المسلم حيث وقع في خضم من الغرور والتعالي ، والحق ان الغرور من أخطر الأمراض التي تصيب النفس الانسانية ، وقد أصيبت به نفسية المسلم في حالة الركود التي مر بها في القرون الثلاثة الماضية .

لقد حطم هذا الغرور قابلية الفرد نحو الكمال ، كما أنه قضى على إرادته لتحقيق الكمال في ذاته وفي مجتمعه ، فشاهدنا ذلك الخمول ممثلا في المثقف والأمي على حد سواء ، كما تجلى في ذلك القنوع الذى شاهدناه في ذلك الفلاح الوديع الذى يأكل لقمة الخبز الجاف ويشرب من قناة الحقل ماء عكرا تأباه بعض فصائل الحيوانات وهو يقول نأكل القوت وننتظر الموت ، وترجع مشكلة العجز أيضا الى عدم فاعلية العلم ، فان العلم يتعلم للحياة ، ومعنى ذلك أن أى قدر من العلم له مدلول خاص ينعكس في واقع الحياة العملية ، فاذا لم يكن له مدلول أو أن مدلوله لايمكن أن يتحقق فانه لايؤدى الى فاعلية .

ومن هنا فان الأمر يرجع الى التدقيق في أمر المنهج الذى يدرس ، والعجز في مجال العلم أو في مجال العمل ليس صبغة فطرية خاصة بالمسلمين ، وإنما هو أمر عام يندرج تحته حالة مرضية تعترى الشخصية الانسانية في مرحلة معينة من مراحل الحضارة .

الفصل الثالث

وسائل العــودة

نظرات حول التعليم

النظام التعليمي الموجود في العالم الاسلامي نظام غربي وهو بالتالي يتناقض تناقضا تاما مع النظام التربوي الاسلامي وقد اثمر هذا النظام مفاهيم وسلوكيات غربية وبالتالي فانه ولد الغربة في نفوس المسلمين وأوجد تناقضا حادا في المجتمع الاسلامي بين الاسلام من جهة وبين الواقع الذى يعيش فيه المسلم المدني أى المسلم الذى تخرج في المعاهد العلمية على النظام الغربي .

النظام التربوى الاسلامي يأخذ المفاهيم الاسلامية كاملة غير منقوصة ويقدمها كحقائق للفطرة السوية وهو يدفع الانسان المسلم الى اكتشاف تلك الحقائق بنفسه وان يتمرس بها في سلوكه وان يتدرب عليها وبالتالي فان المفترض في النظام التربوى الاسلامي أن ينمي الشخصية الاسلامية في اطار من القيم التي يقدمها الاسلام للانسان المسلم منذ بدء ولادته الى أن يلقى الله ، وهذه القيم تتناسب مع النمو العقلي والنمو الوجداني وتقوى الجانب السلوكي والجانب الارادى في الانسان وتنمي فيه دوافع الخير وتساعده على كبت نوازع الشر وتدفعه الى التأثير في محيط الأسرة وفي محيط المجتمع الذى يعيش فيه وهي كما تهتم بالجانب المفاهيمي لاعطاء نظرة شمولية للانسان في الحياة وعلاقته بغيره بحيث تكون نظرة متكاملة واطارا شاملا لكل مايرد على ذهن الانسان من خواطر ومايطرأ أمامه من تغييرات فهي تنقل هذه المفاهيم الى مجال التطبيق العملي والسلوكي في حياة الانسان عن طريق العبادات التي افترضها الاسلام على المؤمنين وعن طريق ترشيد السلوك الاجتماعي فى مختلف مناحي الحياة .

ونستطيع ان نبرز اهم النقاط التى يمتاز بها الاسلام على غيره في عدة مفاهيم :

أولا : نظرة الإسلام الى الانسان باعتباره وحدة متكاملة ، فالانسان لاينحصر في الجانب الروحي أو المادى أو الخلقي أو العقلي بل ان الاسلام ينظر الى الانسان كوحدة مستقلة متكاملة فهو يهتم بنموه العقلي والوجداني والمادى والخلقى كما يهتم باستقامة سلوكه في كل جوانب الحياة كما أنه يعتمد اساسا في تحديد رسالة الانسان ووضع اسس مسئولياته في الحياة على اساس قدراته الذهنية وقدرة ارادته ويلزمه بتحمل مسئولياته اتجاه ربه واتجاه نفسه واتجاه اسرته واتجاه المجتمع واتجاه الانسانية دون أن يرهقه بما فوق طاقته (لايكلف الله نفسا الا وسعها) .

ثانيا : ينظر الاسلام الى الحياة باعتبارها وحدة متكاملة تشمل كل جوانب النشاط الانساني في المجتمع في الجانب التربوى والسياسي والاقتصادى والثقافي والخلقي وفي الجانب التعبدى ، فالدين هو الاطار العام الذى يندرج بداخله كل تلك الانظمة والمؤسسات التي تشكل البناء الاساسى للمجتمع ولابد أن تلتقى هذه كلها لتشكل لنا البيئة المتناسقة والملائمة لتحقيق نظام الاسلام الخلقي وتبين نظامه المفاهيمي في المعرفة ونظامه الادارى والسلوكى لاداء الفرد لرسالته في المجتمع وليست هناك كهانة ولاوساطة بين الانسان وربه ولايوجد فرد أو مؤسسة أو حكومة الهية تستمد نظامها من الله مباشرة وكل المؤسسات التي تقام في المجتمع الاسلامي بشرية تخضع للخطأ والصواب وليس هناك عصمة لاحد من البشر في الاسلام .

ثالثا : النظام التربوى الاسلامي هو النظام المسؤول عن تشكيل نظرة الاسلام الى الانسان وبالتالي عن تشكيل القيم وتنمية الاتجاهات الاسلامية نحو النفس البشرية ونحو الآخرين وبالتالي فهو النظام المسئول عن تشكيل نظرة الانسان إلى الوجود والى العالم والى مافيه من كائنات واشياء وتنمية هذه النظرة ومن ثم فانه يكون مسئولا عن تشكيل علوم الانسان ومعارفه وعن تنميتها وعن توظيف هذه العلوم لتنمية شخصية هذا الإنسان وتوظيفها لصالحه في الحياة العامة ، وهذه النظرة تعني ان النظام التربوى في الاسلام لابد أن يكون

نظاما كليا يحيط بكل مايقتضيه نمو الانسان الكامل العقلي والخلقي والوجداني وان يؤدى الى تشكيل اتجاهات الانسان الاساسية نحو العالم ونحو اخيه الانسان وان يحقق له طموحاته دون أن تتعارض مع قيم الاسلام . فالتربية الاسلامية مرآة كاملة للاسلام ولكن من منظور تشكيل طاقات الانسان واستعداداته ونموها المتكامل على مدى الحياة على سعة حياة الانسان وشمولها لكل جوانب الحياة .

« نحو تربية سليمـة »

التربية تعني قيام المجتمع بالمحافظة على ذاته من جهة وتطويرها من جهة أخرى والمجتمع المتطور يقوم بتطوير التربية باستمرار وبالتالي فان التربية تحافظ على كيان المجتمع وتطوره لأن التطور من سنن الله الكونية في هذا الوجود فاذا لم تقم التربية بدورها في تطوير المجتمع وفي المحافظة على كيانه فانها تصبح عامل فناء وهدم وعامل تأخر وانحطاط وبالتالي فانها تصبح بلاءً على المجتمع وخطرا على الحياة الانسانية ، والعوامل المؤثرة في التربية كثيرة نستطيع ان نجملها فيما يأتى :

١ ــ فطرة الانسان وخبراته .
٢ ــ المواريث الثقافية الموجودة في البيئة .
٣ ــ الاسلوب العملى والعلمى في مجالات التطبيق سواء أكان ذلك في داخل المعاهد العلمية أو في المؤسسات والمنظمات الحكومية وغيرها .
٤ ــ القيم التي تحكم سلوك الفرد والجماعة والمؤسسة سواء أكانت قيما خلقية أو قيما حضارية ومدى ماتتركه من بصمات على نفسية الفرد وماتؤدى اليه من تأثير في مجال السلوك في الفرد وفي الجماعة .

« الاهداف التربويـة »

١ ــ السلامة الجسدية والعقلية والخلقية والعمل على ايجاد الشخصية السوية .
٢ ــ تحقيق النجاح الاجتماعي داخل الأسرة وفي المجتمع .
٣ ــ الشعور بالانتماء والولاء للأمة .

٤ ـــ تنمية الروح العلمية وحب البحث عن الحقيقة والتعرف على النواحى العلمية الحديثة للانتفاع بكل ماهو جديد .
٥ ـــ اتساع الأفق الانساني والتفتح على العالم الخارجي وادراك حركة التطور البشرى والقدرة على تعديل مسارها بما يتلاءم مع الاسلام بحيث يصبح الاسلام هو دين الانسانية .
٦ ـــ تكوين الأخلاق الفاضلة وانشاء جيل يلتزم بالاسلام سلوكا وفكرا ويستهدف في حركته تحقيق الخير واقامة العدل والفضيلة في المجتمع .
٧ ـــ ممارسة الحياة في جو من الحرية المسئولة في اطار الشورى الاسلامي .

« دور التربية في تجميع الطاقــات »

الذى يتأمل طبيعة المجتمع الانساني في حركته التاريخية منذ بدء الخلق الى الآن يدرك ان كل شيء فيه يتغير بصفة دائمة وان هذا التغيير قد يتجه الى أعلى وقد يتجه الى الهبوط والذى يتجه الى الهبوط قد يصل به الأمر الى الانحلال ويتبعه الزوال ، هذه الحركة المتغيرة الدائمة في تاريخ المجتمع الانساني لفتت انظار المفكرين الى محاولة معرفة السر الذى يكمن وراء الصعود والهبوط ، وهناك اراء ونظريات كثيرة لتفسير هذه الظاهرة ولكن اقربها الى العقل هو تلك النظرية التى تقول ان الأمة اذا انطلقت فيها شرارة الروح فانها تبدأ فى الأرتفاع ويعقب نمو الروح عادة الاتجاه العقلي حيث تبدأ الأمة تمتد افقيا لتلتهم الحضارات السابقة وتستفيد من الانتاج العقلي والعلمي فيها ثم يبدأ بعد ذلك دور الانحدار ويسمى بالدور الغرزى وهذه النظرية اذا حاولنا تطبيقها على الأمم التى ظهرت في التاريخ منذ بدء البشرية الى اليوم نجد أنها تصيب جزءا من الحقيقة ، ولذا فاننا نراها اقرب تفسيرا لحركة التاريخ صعودا وهبوطا اكثر من غيرها ايا كان الامر فان اطلاق شرارة الروح انما يأتي ثمرة وجود عقيدة قوية تملك على الانسان فكره ومشاعره ووجدانه وأحاسيسه وتؤرق عليه مضجعه وتؤدى الى تفجير طاقاته الخلاقة .

ولاشك ان هذه العقيدة تحتاج الى مربين عمالقة يعرفون المواهب الانسانية ويكتشفون قوى الانسان المطمورة ويحركونها وفق اهدافهم المنشودة وقد كان هؤلاء

العمالقة في القديم هم الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين وهم في العصر الحالي خلفاء الأنبياء من المعلمين والمربين الفضلاء من ذوى المواهب الجبارة والعزائم القوية والعقيدة الراسخة ، ومهمة هؤلاء تكون في اكتشاف مواهب الانسان في مختلف جوانب الشخصية الانسانية ثم صياغة الكينونة الانسانية صياغة كاملة في اطار العقيدة ودفعه للعمل الجاد ولتحريك المجتمع واستثمار القوى الطبيعية في هذا الوجود لتسخيرها للانسان ولتحقيق العدل واعلاء كلمة الله .

ان اهدار الطاقات البشرية في أى مجتمع معناها ان يدخل هذا المجتمع في مرحلة الغريزية وهي مرحلة الانحدار وهي بالتالي مرحلة تبدد كل طاقات الانسان وتسم المجتمع بالتخلف في المجال السياسي والاقتصادى والعسكرى والاجتماعى والاخلاقي وهذا للأسف هو واقع المسلمين المعاصر .

يقول غورنار ميردال بعد أن درس عوامل التخلف الاقتصادى في أحد عشر بلدا اسيويا « ان العامل الاخلاقي هو الاساس لتخلف هذه الشعوب في الحقل الاقتصادى ، أما الأمور التي لاحظها في هذه الدراسة فهي مايأتي :

أولا : عدم الانضباط في العمل .

ثانيا : عدم المحافظة على المواعيد .

ثالثا : عدم الترتيب .

رابعا : المعتقدات الخرافية .

خامسا : عدم وجود اليقظة .

سادسا : عدم القدرة على التكيف .

سابعا : انعدام الطموح .

ثامنا : عدم الاستعداد للتطور والتجربة .

تاسعا : احتقار العمل اليدوى .

عاشرا : ضعف روح التعاون .

وفضلا عما تقدم فانه يتفشى في البلاد النامية وفي مقدمتها البلاد الاسلامية الجهل والأمية وعدم احترام آدمية الانسان وذلك لأن اسلوب تعامل الدولة مع الفرد

اسلوب يقوم على القهر والاستغلال والتحقير ، ولذا فاننا نجد طاقات الأمة العلمية تفر الى الغرب أو الشرق كما ان الطاقات المادية مهدرة لأنها تورد للخارج غير مصنعة في صورة المواد الخام ، ودور التربية انما يكمن في استخدام طاقات البشرية للاستفادة من الطاقات الطبيعية وتسخيرها لصالح الأمم ولهذا فانه يشترط في العالم والمتعلم عدة شروط منها :

١ ــ ادراك مشاكل الأمة وترتيبها حسب خطورتها ووضع الأولويات في علاج الأهم فالمهم .

٢ ــ معرفة الهدف الواضح للأمة ووضع خطط مرحلية للتخلص من المشاكل والوصول الى الهدف المنشود .

٣ ــ يشترط في المعلم أن يعرف عالم الانسان ومافيه من مواهب وان يعرف خصائص كل مرحلة من مراحل عمره الزمنى وان يدرك كيفية تطوير المواهب من خلال الدرس ، ولهذا فانه يجب أن يوضع المنهاج في كل العلوم لخدمة الأهداف العامة وفق الخصائص النفسية والذهنية والروحية لكل مرحلة من مراحل الانسان مع الاستفادة من الدراسات التربوية والنفسية والاخلاقية والعلمية الموجودة على الساحة .

٤ ــ أن يدرك العالم والمتعلم لزوم التربية للانسان طيلة حياته أى من المهد الى اللحد وان كل انسان يحتاج دائما الى تعديل سلوكه وفق الأهداف المشروعة التي تحددها الشريعة الاسلامية ووفق القيم الخلقية التي يؤمن بها وهذه الشروط لاتنتج ثمرة مباركة الا اذا اخذت فى اعتبارها تغذية مواهب الانسان بصورة دائمة للايمان والايمان يشمل ثلاثة عناصر :

١ ــ المعرفة التامة التي يتبعها التصديق الكامل واليقين الثابت .

٢ ــ الحب الذى يلون عاطفة الانسان بحب الله ورسوله وبالخوف والرجاء فى الله عز وجل وتزود الانسان بالحرارة الدافئة وبالقوة المحركة وبالتسامي عن الصغائر طلبا لرضوان الله .

٣ ــ الارادة : وهي العزيمة القوية التي تدفع الانسان للتضحية بماله ونفسه ووقته وجهده في سبيل تحقيق مايعتنقه في واقع الحياة .

فالايمان نفحة علوية تنمي الفكر والعاطفة والارادة وتوحدها وتوجهها فى سبيل

الحق ، والايمان بهذا المعنى اسمى مميزات الانسان لانه يرفع هامته من دنيا الغرائز والشهوات ومن دناءة الارتكاس في الشرك والضلال الى الأفق السامي الذى يشرف به الانسان ويرتفع الى درجة يتسامى بها مع الملائكة المقربين .

ومما لاشك أن البشر لم يخلقوا متساوين من حيث استعدادهم الفطرى للايمان فكما أن هناك في مجال الذكاء الانسان العبقرى والانسان الذكي ومتوسط الذكاء والغبي والبليد كذلك الأمر في مجال الايمان فهناك الانسان ذو الشفافية الكاملة والروحانية التامة والعزيمة الصادقة وهناك الانسان ذو الشفافية المتوسطة ، وهناك الانسان الذى اظلمت فطرته فلم يشرح الله صدره للإسلام .

ولابد من أن تأخذ التربية في الاعتبار هذا المعنى وان تساعد الانسان ذا الشفافية على أن يأخذ حظه كافيا من الحقائق الاسلامية التى تشبع نهمه وتغمر روحه في عالم النور وكذلك الامر بالنسبة للانسان المتوسط الشفافية ، اما من فسدت فطرته بفعل البيئة أو بشدة طغيان الأمراض النفسية عليه فان الامر يختلف اذ يحتاج الامر الى محاولة ازالة الصدأ الطارىء على الفطرة وهذا يقتضى معرفة امراض النفس ومعرفة امراض البيئة خاصة الأسرة ، ومن ثم علاج تلك الأمراض بعد تشخيصها لتعود الفطرة نقية سليمة كما كانت في الأصل ثم تغذيتها بعوامل الايمان لا عن طريق المنهج المدرسى فحسب وانما يضاف الى ذلك أجهزة الاعلام والمسجد والنادى والأسرة وكل ماله صلة من قريب أو بعيد بالانسان بحيث تؤدى كل هذه العوامل ازدهار الايمان في نفسه .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

« المقومات الاساسية للتربية في وصية لقمـــان »

يقول الحق تبارك وتعالى :

« ولقد آتينا لقمان الحكمة ان اشكر لله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غني حميد . واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لاتشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم . ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله في عامين . ان اشكر لي ولوالديك اليّ المصير . وان جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا . واتبع سبيل من أناب اليّ ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يابني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير . يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك ان ذلك من عزم الامور ولاتصعر خدك للناس ولاتمْش فى الأرض مرحا . ان الله لايحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير . ألم تروا ان الله سخر لكم مافي السموات وما في الأرض . واسبغ عليكم نعمهُ ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولاهدى ولاكتاب منير »

سورة لقمان الآيات من ١٢ ــــ ٢٠

الحكمة هى التوفيق في القول وفي العمل ، ومعنى ذلك بلغة حديثة هى ان يكون الفرد صاحب فاعلية في المجتمع ، اى ان يكون له تأثير نافع في الحياة . لكن هذا التأثير هل يرجع الى خصائص نفسية لدى الانسان ، أم أنه يرجع الى المدرس ، أم أنه يرجع الى المجتمع ؟ أم أنه يرجع الى توفيق الله عز وجل مقدما ؟ .. لكل ذلك تأثيره في فاعلية الانسان .

فاذا أخذنا الخصائص النفسية . باعتبارها اهم المؤثرات لنجاح الانسان في الحياة ، فاننا نجد أنه كثيرا مازيفت حقائق التاريخ ، وابتكرت نظريات عن خصائص الاجناس ، واقيمت حجج كثيرة لتأييد تلك النظريات ، ولكن الحق الذى لا مراء فيه ، ان خصائص الانسان لها تأثير محدود في الحياة ، ولنأخذ مثالا توضيحيا لذلك : فبعد الحرب العالمية الأولى استطاعت المانيا ان تبني نفسها بسرعة . وبعد الحرب العالمية الثانية استطاع الشعب الالماني ان يعيد بناءها من جديد بسرعة . حتى لقد اغتر الالمان وقالوا ان ذلك يرجع الى خصوصية في الجنس الالماني . فهو يتفوق على سائر الاجناس ولكى تثبت هذه النظرية أتوا بطفل من افريقيا . من الزنوج ، وبطفل آخر من المانيا وربّياهما معا واعطوهما الرعاية والعناية الكاملة ، وبعد ان كبر الطفلان ، كان الطفل الزنجي اذكى من الطفل الالماني ، وله تأثير في الحياة اكثر من تأثير الطفل الألماني ، وبذلك تبين لهم ان المسألة ليست مسألة خصوصية لجنس دون جنس لأن الله عز وجل حين وزع المواهب والارزاق ، في باطن الأرض ، انما وزعها على البشر جميعا بالقسطاس المستقيم ، فهذا الطفل الزنجي الذى تقدم على الالماني لو نشأ في مجتمع الزنوج في افريقيا . لظل كما مهملا في الحياة ، لكنه حين تحول الى مجتمع متقدم راق . أصبح انسانا مؤثرا ، له تأثيره في الحياة ، لأن هناك عوامل أخرى غير الاستعداد النفسي ، فهناك مجتمع بدائي ، كمجتمع الزنوج بافريقيا يعيشون على هامش الحياة ، فيضع قائمة من الخرافات كالسحر والكهانة وغيرها ، تسيطر على الانسان منذ نشأته فيصيب شخصيته بالشلل ، ويعيش في خمول وفي كسل . في حين ان مجتمعنا يعيش في التاريخ . ويحيى حياة متحضرة كالمجتمع الألماني . استطاع أن يمنح هذا الطفل نفسه فاعلية لأنه قدم له من الضمانات ، ومن الرعاية ماجعله مؤهلا لان يكون انسانا متحركا في التاريخ . فيحرك المجتمع الذى يعيش فيه أيضا ، فاذا انتقلنا الى المدرسة باعتبارها احد المؤثرات الرئيسية في صياغة الانسان ، واعداده للحياة فان المدرسة لها تأثير لاشك فيه ، لكنه تأثير محدود . وقد رأينا عقب الحرب العالمية الثانية المثقفين اليهود الذين يعيشون في بعض البلدان العربية . يتقدم الواحد منهم واضعا قائمة من المطالب كأنه هو الذى يمثل الأمة العربية في الوقت الذى غاب فيه كثير من المثقفين العرب عن المجتمع لماذا ؟ إن المدرسة التى تربي فيها اليهودى والعربي واحدة . لكنها لاتمنح كل القوى المؤثرة لاننا لم نجد المثقف العربي على نفس مستوى المثقف اليهودى ، إذن هناك امر آخر وراء ذلك . وهو ان المثقف اليهودى

استمد فاعليته من البيئة اليهودية التي يعيش داخلها . وهى بيئة متحركة في التاريخ . في حين ان البيئة العربية في تلك المرحلة تعيش على هامش التاريخ ولكي ندرك ذلك يجب أن نعلم ان البيئة التي يعيش فيها الانسان كرحم الأم ، فرحم الأم يهيئه الله عز وجل بمناخ خاص وبدرجة خاصة من الحرارة وبامكانيات خاصة . ليَنشأ فيه الجنين . ففي أرحام الأمهات يتربى الجنين الذى سيكون فيلسوفا ، والجنين الذى سيكون خادما ، أو راعيا كذلك البيئة ، رحم كبير يتربى داخله كل افراد الأمة ، فاذا جهزت هذه البيئة بالمناخ الصالح وبالقيم التي تحفظ على شخصية الانسان توازنها ، وكيانها فان الطفل ينشأ سليما مُعَافَى . اما اذا وجد خلل في البيئة . او انحراف فانه يؤثر على مكونات الشخص ويجعله ينحرف مع المنحرفين ، ففي البيئة السليمة تنمو شخصية الانسان حسب مواهبة وميوله وتُعَدِّل البيئة من تلك الميول ، اذا كانت لاتتفق مع القيم التي تسود المجتمع ، وهذا الامر — ينقلنا تلقائيا الى قضية التوفيق الالهي . فالتوفيق الالهي لايتنافى مع الاخذ بالاسباب ، وهو من الزم الأمور لكل انسان مهما علت درجته وارتفعت منزلته ومن دعاء نبي الله : شعيب : وماتوفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب .

والقرآن الكريم يقرر تلك القضية في غاية الوضوح بقوله تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى) وبقوله عز وجل (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) . هذا حكم ازلي قاطع في قضية يستعصي على الناس فهمها ، ماداموا بعيدين عن تحديد المفاهيم ، وتحكيم كتاب الله عز وجل ، والقضية واضحة . جلية . فهيى تبين لنا ان توفيق الله انما يكون للانسان الذى يبدأ ويأخذ باسباب التوفيق ، فاذا وفر المجتمع للطفل أسباب الهداية . والرشاد . وبدأ الطفل يأخذ بهذه الاسباب وعاونه على ذلك أبواه والمدرسة . والمجتمع . وبدأ المؤمنون يأخذون بهذه الاسباب فان الله يوفقهم ويهديهم . أما اذا بدأوا بالانحراف فان الله يزيدهم انحرافا . فالقرآن هنا يقرر حقيقة هامة وهي ان الارادة الانسانية والبيئة الاجتماعية لهما دورهما . في اعداد الناس وتهيئتهم للهداية أو الانحراف . فاذا بذل المجتمع مجهودا واذا بذل الانسان مجهودا فهنا يأتي التوفيق من الله . فالبيئة لابد ان تسيطر عليها ثقافة معينة يمتصها كيان الانسان الروحي في البيت . وفي المدرسة . وفي المجتمع وكما ان الجسد يتنفس الهواء في كل وقت وفي كل حين . فاذا انقطع عنه الهواء فانه يموت كذلك الانسان لكي ينمو نموا

سليما ، لابد ان يتنفس الثقافة الاسلامية الكاملة بكل مقوماتها في كل مكان وطيلة حياته منذ ان يولد الى أن يموت .

والسؤال الذى يطرح نفسه تلقائيا هو : ماهى مقومات تلك الثقافة التي لابد من سيادتها في المجتمع ؟ ولكي نجيب على ذلك السؤال نقول ان الآيات التي معنا توضح لنا تلك المقومات وهى تتلخص فيما يأتى :

اولا : القيم الخلقية التي يجب ان تسود المجتمع .
ثانيا : الاسلوب العملي لتطوير المجتمع .
ثالثا : الذوق الانساني الرفيع الذى يحمي القيم .
رابعا : امتلاك نظرية علمية سليمة عن الحياة والكون ، والانسان تُساعدهُ على ترسيخ المفاهيم التي يصاغ فيها الانسان المسلم .

ان تكوين الانسان انما يتم بانشاء شبكة ثقافية تتكون من تلك المقومات ، وتربط كل ابناء المجتمع برباط واحد . فالقيم الاخلاقية هى المثل التي جاء بها الاسلام وهي قيم خلقية ايجابية ، وهناك قيم سلبية اخرى تعيش في المجتمع بجوارها . فالعدل قيمة خلقية ايجابية ، والظلم قيمة سلبية والرحمة قيمة ايجابية . والقسوة قيمة سلبية . هذه القيم لها تأثير على بنية الانسان . لان اى جزئية من هذه الجزئيات يمتصها كيان الانسان الروحي . وتقيم حوارا معه دون ان يدرك ، وتظل معه منذ ولادته الى أن يموت . فمثلا الأمن قيمة ايجابية ، والخوف قيمة سلبية . فاذا حرم الانسان الأمن في طفولته وروع فان هذا الترويع يظل يقيم مع الانسان الى أن يموت ، ويؤثر عليه في فترات حياته المختلفة ويشعر بخوف . وباكتئاب . وبمرارة . في كثير من مراحل حياته . حتى لو حاول أن يتخلص من تأثيره مااستطاع . لذلك كان التعبير الذى معنا في القرآن الكريم . (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غني حميد) مامعنى ذلك ؟ يشكر فعل مضارع والفعل المضارع يفيد التجدد والحدوث . كفر هذا فعل ماضي ، والفعل الماضي يفيد الحدوث فيما مضى ، وهنا عبر القرآن بيشكر وكفر لينبهنا الى ان القيم الخلقية العليا يجب ان تستمر في المجتمع (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) فيظل الشكر ويظل العدل ويظل الايمان وتظل الرحمة مستمرة . تقيم مع الانسان ويتنفسها في كل مكان يحل به . ومن كفر .

والكفر رمز للقيم السلبية المؤثرة على انحراف الانسان . وهذا يجب ان تزول من المجتمع وان تبقى القيم الايجابية فقط لتحيا مع الانسان طوال حياته على ظهر الأرض الى أن يخرج منها الى الدار الآخرة . هذا سر قوله تعالى (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه . ومن كفر فان الله غني حَميد) ثم يبين الحق تبارك وتعالى بقوله (فان الله غني حميد) بأنه غني عن شكر الانسان وكفره ، لأن الشكر لايزيد في ملك الله والكفر لاينقص من ملك الله . فهو غني بذاته ، والكل محتاج الى فضله ، وينعم بنعمه ، وهذا الغنى المستحق للثناء فغناه غني غنى ذاتي . وفقر ماسواه فقر ذاتي .

روى الامام احمد من حديث بشر بن جحاش القرشي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما في كفه فوضع عليها اصبعه ثم قال : قال الله تعالى (ياابن آدم اني تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى اذا بلغت التراقي . قلت اتصدق وأنى أوان الصدقة) وهذا التذكير باصل الانسان . انما هو لكي يدرك الانسان حقيقة نفسه وحقيقة فضل الله فيحيا في دائرة الرضوان الالهي .

ثم تتحدث الآيات بعد ذلك عن وصية سيدنا لقمان لابنه . وهذا يشعرنا بمسئولية الآباء تجاه الابناء . وان المسئولية الأولى تقع على عاتق الآباء لتنشئتهم تنشئة اسلامية ومن الطبيعي ان تتعرض الآيات بعد ذلك للأسرة لتبين اهميتها ودورها في تنشئة الابناء والله عز وجل يضع خطوطا عريضة للابناء في هذا المجال .

الخط الأول : يتجلى في شكر الله .

الخط الثانى : يتجلى في شكر الوالدين .

الخط الثالث : يتجلى في التزام الانسان بالمبدأ الذى يعتنقه بغض النظر عن عاطفة الأبوة أو البنوة . (واتبع سبيل من اناب الى) و (وان جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا) .

والآية تبين لنا مدى اهتمام الإسلام بتهيئة الجو الاسرى الصالح . وتضع له ضوابط لئلا تؤثر البيئة على انحراف الانسان . فالبيئة الاسرية لها تأثير خطير على حياة الطفل وقد بين لنا ذلك سيدنا رسول الله في حديث آخر حيث يقول :

(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) فالله عز وجل يهب الآباء الابناء وقلوبهم غضة طرية ليس فيها شيء من شوائب الشرك أو الاجرام ، وانما ينعكس آثار البيئة وآثار الأسرة على هذا الطفل فينحرف عن الاسلام الى الكفر والى الشرك . ويخرج عن فطرته الأساسية التى فطره الله عليها . والاسرة هى البيئة المصغرة التي يصنع فيها الانسان ويهيأ لحمل اعباء الحياة . فهل الأسرة المسلمة اليوم اعدت الانسان المسلم اعدادا كاملا لحمل اعباء الحياة . ولرفع كلمة الاسلام . والالتزام بمبادىء الحق بغض النظر عن العواطف والمصالح الذاتية بحيث ينشأ في حياته نشأةً اسلامية لايبتغي في أموره كلها الا وجه الله نقول لا . وشاهدنا على ذلك . مانجده من اهدار مصالح المسلمين . واختلال موازين القيم فى المجتمع وشيو ع النفعية والنفاق والكسل والخمول . مما أدى الى هبوط المسلمين الى الدرك الادنى في السلم الحضارى . ولكي تتضح هذه المعاني . نستعرض بعض المقارنات لتكون نماذج تجرى عليها بعض الدراسات .

في الحرب العالمية الثانية . أصدرت الحكومة التي عينت من قبل هتلر في الجزائر أمراً بتطبيق قوانين الحرمان على اليهود الجزائريين من التعليم . لكن الطالب اليهودى لم تؤثر فيه هذه القوانين . بل إننا نجد ان كل فرد يهودى في الجزائر قام بواجبه ، فالمتخصص في الكيمياء والمتخصص في الحساب . والمتخصص في الطبيعة . خصص جزءاً من وقته لتعليم الطالب اليهودى . وأعد نفسه لذلك ، وتحولت بيوت المثقفين الى مدارس صغيرة في جزء من اليوم . وانتهى العام . وقد أخذ كل الطلاب اليهود في الجزائر كل المقررات التى لهم وحين انتهى الأمر وزال كابوس هتلر عن العالم لم يخسر الطالب اليهودي بالجزائر شيئا في الوقت الذى وجدنا فيه الطالب الجزائرى . المسلم لم يهيأ له هذا المناخ . حين ندرس موضو ع الطالب المتعلم الجزائرى اليهودى والمسلم نجد أن كليهما تربى فى مدرسة واحدة . لكن المتعلم اليهودى أخذ القضية بالنسبة لليهود على أنها مبدأ إلتزم بقضية اليهود . فهو يدرك ان أى تقصير للطفل اليهودى انما يعود بالضرر على اليهود في العالم . فهو لذلك يشعر بمسئولية نحو أبناء جلدته . أما المسلم فانه لم يأخذ المسألة من زاوية قضية الالتزام . وإنما أخذها من زاوية أخرى وهى زاوية ظلم وقع على أمة وهو كغيره من البشر ليس ملتزما بشيء اتجاه أمته لأن كل من حوله يعيش لنفسه . ولا يهتم بصالح أمته . فانعدام

الوعي وانعدام الشعور بالمسئولية هما السمة الغالبة على المسلمين في هذه المرحلة ، ولنأخذ نموذجا في مصر : كان يوجد يهودى يعمل رئيسا لدار الهلال ، حين قامت الثورة في مصر ، وشعر بالتأميمات فخرج وذهب الى ايطاليا ، وفي ايطاليا بدأ من نقطة الصفر ، وبعد فترة بسيطة بعد حوالي عشر سنوات أصبح رئسيا لأكبر مؤسسة للنشر في ايطاليا . اليهودى المصرى تعلم مع المصريين لكنه اكتسب روح الكفاح من بيئته اليهودية . نحن في امتنا المسلمة اذا وصل الانسان منا الى درجة وظيفية عالية . ثم اخرج منها تعتريه الأزمات النفسية والضيق والكرب ويصبح عبئا على أمته بل ان شخصيته تهتز بسبب ذلك . لماذا ؟ لأننا لم نكتسب روح الكفاح . اننا نأسف للتمثيل بنماذج يهودية لكن عذرنا فى ذلك . اننا في صراع مع اليهود والحق الذى لامراء فيه ان هذه النماذج ليست قاصرة على اليهود . وانما هى تشمل كل أمة تعد ابناءها للحياة فقديما وجدنا في ميدان الكفاح العملي على سبيل المثال رجلا كابن رشد يتحدث عن نفسه فى أخريات حياته . فيقول : (اني لم انقطع عن التعليم طول حياتي الا ليلة تزوجت بامرأتي وليلة مات ابى) . انه رجل وهب نفسه للكفاح العلمي . فعاش طيلة حياته يعمل في ميدانه ــ بجد ــ ووجدنا في ميدان الحرب عقبة بن نافع يقف على شاطىء المحيط الأطلسي ويقول : (لو أعلم أن وراءك اناسا لخضت هذا المحيط بفرسى . جهادا في سبيل الله) .. المشكلة إذن هي مشكلة اعداد الانسان للحياة وللكفاح .

فإذا رجعنا الى الآيات التى معنا فاننا نجدها ، قد رتبت القيم الايجابية التي يجب ان تسود في الأسرة ، وبالتالى في المجتمع على النحوالتالى . شكر الله . ثم شكر الوالدين . الصبر على مواجهة الوثنية بكل ماتملك من نفوذ ، حتى ولو كانت ضغوطها من قبل الوالدين . ومع هذه المقاومة العنيفة لما يتحمله الانسان من آلام لعواطف الانسان النبيلة نحو والديه فانه يطلب من المؤمن ان يظل في دائرة الاحسان لوالديه والبر بهما . ثم يتبع ذلك الأمر بالتزام سبيل المؤمنين والانخراط في صفوفهم والتزام جماعتهم (واتبع سبيل من اناب الي) .

ويقابل هذه القيم الايجابية قيم سلبية تؤثر على بنية الأسرة . وعلى سلامة المجتمع . وهى الكفر بالله وعقوق الوالدين . والانحراف عن تعاليم السماء . ثم تأتى

الآية بعد ذلك لتقرر علم الله المحيط بكل صغيرة وكبيرة تحدث فى هذا الكون سواء أكانت ايجابية أو سلبية مهما صغرت سواء أكانت داخل جسم سميك مسمط أم لا ، وسواء أكانت في السموات أم في الأرض وسواء حدثت الآن أم فيما مضى . أم في المستقبل . والآية الكريمة تحكي لنا ان علم الله لايقيده المادة أو البعد المكاني أو الزماني لأن علم الله المحيط لا يند عنه شيء ومادام كذلك فان جزاءه العادل يتم وفق علمه المحيط .

قال تعالى : (يابني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت به الله) .

ويقول جل شأنه أيضا (ان الله لطيف خبير) . فهو عالم بدقائق الأشياء . وهذه الآية كخاتم المسك لما قبلها .

فالذين في السفح هم الذين يعيشون تحت وطأة الغرائز من المتحللين من القيم ومن الأخلاق ومن كل المبادىء ويريدون أن يتحرروا من كل التزام تجاه المجتمع الذى يعيشون فيه هؤلاء يريدون خرق السفينة ، وخرق السفينة هنا يعني تحطيم المجتمع لأنهم لو تركوا وشأنهم يفعلون مايشاءون من ظلم ومن سرقة ومن اغتصاب ومن نهب ومن زنى وما الى ذلك من وسائل الاجرام ، فإن ذلك يؤدى الى ضياع الأمة . أما الذين فى أعلى السفينة فهم القادة في المجال الفكري والسياسى والاقتصادى والعلمي . شريطة أن يكونوا ملتزمين بالجانب الخلقي . هؤلاء جميعا مسئولون عن حفظ المجتمع من هذه الفئة الباغية وعن ابعاد كل العناصر السلبية التي تؤثر على هذا المجتمع . ان في مجال الفكر وان في مجال العمل وفي كل مجتمع يوجد هذان النموذجان . نموذج الذين يعيشون في القاع ونموذج الذين يعيشون في القمة الخلقية . وهناك التزامات من قبل الذين في القمة السامقة يلزمهم بها المجتمع وهو مايعرف بالمسئولية الاجتماعية ، مقاومة السلبيات ونشر الايجابيات ليعم الخير كل جنبات المجتمع . مجتمعنا المسلم المعاصر في وضعه الحالى انتشر فيه كثير من المظالم وعمت فيه كثير من الجهالات وانحدرت الينا من قديم الزمان . كما اجتمع عليه الفساد والانحلال الوافدين من الخارج ، فالواجب علينا أولا ان نحرر المجال العام من هذه الأخطاء لينشأ أبناؤنا في

جو كريم وفي جو طاهر نقي . هذا أمر ضروري .

لكن القيام بهذا الأمر فضلا عما تقدم يقتضي ايجاد الرباط المحكم الذى يربط الانسان — بمجتمعه ويجعل ولاءه له وأوضح الرسول ﷺ بقوله (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) معنى هذا أنه لابد ان يشعر الانسان المؤمن بالانتماء للمجتمع الذاتي الذي يعيش فيه . وان تحطيم أى قالب من البناء الذى يعيش فيه هو تحطيم له . وهو تحطيم لهذا المجتمع ولكي يشعر المسلم بذلك لابد ان تكون هناك لحمة اجتماعية تربطه بهذا المجتمع هذه اللحمة تتمثل فى الحب في الله عز وجل الذى يوحد بين المسلمين ، انه لكي يتم الترابط بين الفرد ، والمجتمع لابد من ان تتضح الغاية التي يسعي اليها الجميع وهى بناء مجتمع يحقق مبادىء الخير ، والفضيلة ، والعدل ، ويرفع لواء الحق لأنه مالم تكن الغاية واضحة أو كان هناك تناقض بين غايات الأفراد والجماعات الذين ينضمون تحت لواء هذا المجتمع ، فإنه لايمكن إحكام بناء هذا المجتمع . بل ان ذلك يعرض المجتمع للدمار ، أو بمعنى أدق لايسمى هذا مجتمعا بل يسمى أفرادا مكدسة . اذ لابد أن يعمل الانسان وفق غاية محددة — كما تعمل النحلة ضمن مجموعة من النحل لبناء الخلية الواحدة يعيشون في اطارها فلو أنها انفصلت عن ذلك المجتمع فإنها ستموت مهما كان لديها من طاقات للعمل ، وذلك لأن الله عز وجل ربط وجودها وحياتها ضمن هذا الاطار الاجتماعى ، وهكذا الأمر بالنسبة للمؤمن فإنه يشترك مع المؤمنين في بناء مجتمع اسلامي وعلى هذا المجتمع ان يوفر الضمانات الكافية لأبنائه فالمجتمع ليس مجموعة من الأفراد تتكدس في مكان واحد ، ولكنها مجموعة متساندة متعاضدة وفق هدف واحد فإذا فقد الهدف الذى يجمعهم تحطمت الروابط . فوظيفة المجتمع حفظ كيان الفرد ، وتحقيق هدف الجماعة ، فوظيفة الفرد المساهمة في بناء المجتمع ، والقيام على حفظه من العاديات التي تهدد وجوده وتحطم بنيانه ، فهنا مبادلة في الحقوق والواجبات ، بين كل من الفرد والمجتمع ولحمة ذلك هو الحب والوئام الذى يسود الجميع . فإذا لم يستطع المجتمع المسلم ان يحقق هذا الترابط العضوى بين الفرد والمجتمع ، فإنه لايستطيع أن يهيء المناخ ، لنجاح أبنائه في الحياة ، وهذا ماتعيشه مجتمعاتنا اليوم .

المسلم المعاصر لايقل في الثقافة أو الذكاء عن غيره من الأمم المتقدمة لكن

هناك أشياء كثيرة تجعله غير منتج ، ويأتي في مقدمة ذلك عدم شعوره بالانتماء والارتباط العضوى بأمته ، ان مأساة الأمة في العصر الحالي رهيبة ، ومن الناس من يعايشها في كل وقت حتى وصل به الأمر الى اليأس ، ومنهم من انفصل عن أمته ويعيش تبعا لهواه ، وكلا الفريقين عبء ثقيل على الأمة . ان القرآن الكريم يعطينا نموذجا رفيعا لمقاومة السلبيات ففي كل بيئة توجد عناصر ايجابية وعناصر سلبية . اى عناصر تعد الانسان للحياة والكفاح وعناصر أخرى تحطمه وتبعده عن مجال العمل والانتاج . فإذا كثرت العوامل السلبية على بيئة فانها تؤثر على الانسان — وتجعل هذا المجتمع مهددا بالدمار أما اذا كثرت العوامل الايجابية في المجتمع فان معنى ذلك إن هذا المجتمع يقوم بدوره في التاريخ .

ويوضح لنا الرسول الأعظم هذا المعنى ، في صورة تمثيلية واضحة في نموذج الذين ركبوا السفينة ، وهو نموذج يبين لنا الجوانب الايجابية ممثلة في أهل السلوك القويم والجوانب السلبية ممثلة في أهل الانحراف .

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبي ﷺ :
« مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم اعلاها وبعضهم اسفلها . وكان الذين فى اسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو انا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا . فان تركوهم وما ارادوا هلكوا جميعا وان اخذوا على ايديهم نجوا ونجوا جميعا) .

رواه البخارى

فإبراهيم الخليل عليه السلام حين وجد في مجتمع كان يسوده الشرك قام بدعوة قومه الى الايمان بالله ، ولما لم يجد منهم استجابة قام بفأسه وحطم الأصنام ، تحطيم الأصنام كان عملا ايجابيا ، فى مواجهة جريمة الشرك . فابراهيم عليه السلام لم يهادن قومه ، ولم ييأس ولم يعش على هامش الحياة لأنه ملتزم أمام الله تعالى بتحويل المبادىء التي يدعو اليها الى حقائق واقعية تسود المجتمع ، ولكن مجتمع الشرك غليظ الفؤاد عصي الطبع منحرف السلوك ، وهيهات ان يؤثر في ذلك المجتمع منطق العقل ، وخطاب الشعور ، ولكن وخز القوة وسطوة اليأس من أهم العوامل في تحريك الجسد

المترنح ، تحت سكرات الاثم لذا فقد قام ابراهيم عليه السلام بفأسه وحطم الاصنام معتمدا على ربه عز وجل .

في عصرنا الحاضر توجد سلبيات كثيرة كالنفاق والفوضى والظلم والقهر والاستغلال وعبودية المال ، والمنفعية ، وعلينا ان نعلن الحرب على هذه السلبيات وتحطيمها كما حطمها ابراهيم عليه السلام . فإذا رجعنا الى الآيات التي معنا فإننا نجدها قد رتبت القيم الايجابية التي يجب ان تسود في الأسرة ، وبالتالي في المجتمع على النحو التالي . شكر الله . ثم شكر الوالدين ، الصبر على مواجهة الوثنية بكل ماتملك من نفوذ حتى ولو كانت ضغوطها من قبل الوالدين ، ومع هذه المقاومة العنيفة لما تحمله من آلام لعواطف الانسان النبيلة نحو والديه ، فإنه يطلب من المؤمن أن يظل فى دائرة الاحسان لوالديه والبر بهما ثم يتبع ذلك الأمر بالتزام سبيل المؤمنين والانخراط فى صفوفهم والتزام جماعتهم (واتبع سبيل من أناب الي) .

ويقابل هذه القيم الايجابية ، قيم سلبية تؤثر على بنية الأسرة وعلى سلامة المجتمع . وهى الكفر بالله وعقوق الوالدين والانحراف عن تعاليم السماء . ثم تأتى الآية بعد ذلك لتقرر علم الله المحيط بكل صغيرة وكبيرة تحدث في هذا الكون ، سواء أكانت ايجابية أو سلبية مهما صغرت ، سواء أكانت داخل جسم سميك مسمط أم لا ، سواءً أكانت في السموات أم في الأرض وسواء حدثت الآن أم فيما مضى أم في المستقبل ، والآية تحكي لنا ان علم الله لايقيده المادة أو البعد المكاني أو الزماني لأن علم الله المحيط لايند عنه شيء ، ومادام كذلك فان جزاءه العادل يتم وفق علمه المحيط ولذا كان المناسب أن تختتم الآية بقوله (ان الله لطيف خبير) فهو عالم بدقائق الأشياء خبير بها . وهذه الآية ختام المسك لما قبلها وهى في نفس الوقت تأسيس لما يأتي بعدها .

ثم تبدأ الآيات بعد ذلك بهذا التوجيه (يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على مااصابك ان ذلك من عزم الأمور .

اقامة الصلاة . لماذا ؟ لأن الصلاة هى الوسيلة الأساسية لأن يكمل الانسان نفسه في مجال الأخلاق . فالصلاة هى التمرين العملي لتربية النفس كما ان التمارين الرياضية تكمل جسم الانسان وكما ان الانسان يمرن يده بالقلم على الكتابة فالصلاة هى التمرين العملي لتنقية النفس من أمراضها والزامها بالطريق السليم ليكون الانسان فى قمة الكمال الخلقي (يابني أقم الصلاة) فعلى الانسان ان يكمل نفسه بهذه المبادىء التي ذكرتها الآيات السابقة ، والصلاة هى الوسيلة العملية لتحقيق الكمال النفسي للانسان ، ونلاحظ أن الاسلام رتب عناصر القيم الخلقية ، ولم يجعلها متساوية في منزلة واحدة في الآيات السابقة ، نقرأ قوله تعالى (ان اشكر لي ولوالديك الى المصير) أى أن شكر الله قيمة اساسية تأتي أولا ، ثم يأتي ثانيا شكر الوالدين ، ثم يأتى حق المجتمع . وهكذا بالترتيب فاذا كمل الانسان نفسه ورباها في هذاالمجال ، فإن الشيء الطبيعى ان يكلف بتهذيب غيره واصلاح مجتمعه (وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على مااصابك) . في مراجعتي لتاريخ المصلحين . ماوجدت مصلحا في العصر الحديث الا وكان منذ صغره يقوم بدوره كاملا في أداء فرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في أى صورة من الصور وبعكس ذلك فإن الانسان الخامل لايرى له نشاط في صغره ، ولعل هذا هو السر في وصية لقمان لأبنه بأن يقوم منذ صغره بهذه الفريضة فالتعود عليها فى الطفولة ادخال لمصلحة المجتمع في دائرة اهتمام الطرف وتوسيع هذه الدائرة لتشمل المجتمع كله من هنا يتضح لنا اخطاؤنا الفادحة في التربية حين لاتعود ابناءنا على هذه الفريضة لأن الاسلام لايكتفي بالوصايا الخلقية ، بل انه يغرسها في نفوس الانسان بالتربية العملية عن طريق الصلاة وينزع الى ايجاد اسلوب عملي فى المجتمع يتربى عليه الناس . انه لايطلب من بنيه ان يعيشوا في عالم خيالي من القيم والمثاليات ، وانما لابد ان تنزل هذه القيم الى ميدان الحياة العملية . فبعد ان يكمل الانسان نفسه بهذه القيم والمثاليات ، وانما لابد ان تنزل هذه القيمة الى ميدان الحياة العملية فبعد الانسان نفسه بهذه القيم لابد ان تسلك طريقها الى المجتمع . فيقول يابني اقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على مااصابك . الامر بالمعروف امر بايجاد عمل وانت اذا تحركت عشر خطوات في المجتمع فانك تنتج اكثر ممن يتحرك خطوة واحدة والذى يتحرك خطوة واحدة ينتج أكثر من الذى ينام فالامر بالمعروف هو امر بحركة جديدة نافعة ، وبحدث جديد مؤثر وبعمل جديد منتج ، والنهى عن المنكر طرد لعمل خبيث يؤثر على بنية المجتمع

وهذا شي عملي ، فلابد ان يحياه المسلم بإيجاد فعل جديد دائما ، وطرد فعل الخبيث من المجتمع فاذا كان المجتمع فيه قيم تحكم سلوكه ، والفرد متحرك فانه يكون هناك شي، نسميه الارغام الاجتماعي ، وحركة الانسان لايجاد فعل طيب أو ازالة فعل خبيث تعتبر محاولة بناءة لتصحيح مسار المجتمع وهذا مايسمى بالنقد البناء ، فمعنى الارغام الاجتماعي ان المجتمع الذى تسوده القيم يرغم الانسان المخطىء على أن يعيش في المجال الخلقى ، الذى يسيطر على المجتمع ، اما الانسان الخاوى من القيم ومن الاخلاق فانه لاوجود له فى مجتمعنا المسلم ، لأن المجتمع المسلم مادامت فيه القيم ، فانها ترغم الانسان على ان يعيش في هذا المستوى الراقي أو ان يستتير على اقل تقدير بعيدا عن يتجاهر بالفسق والمعصية . الانسان المسلم . الايجابي الذى أوتى الحكمة والذى اصبح له تأثيره ، والمجتمع لابد ان يمارس ، عملية النقد ، ممارسة النقد امر ضرورى للحفاظ على بنية المجتمع ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى (واصبر على مااصابك) لأن انشاء هذه الأعمال ، وهذه القيم في المجتمع ليس امرا سهلا لأنه يحتاج الى ذكاء خارق ، والى المام بتطوير الحياة في المجتمعات الأخرى ، ولادراك الحقائق والى معاناة في نفس الوقت من قبل المنحرفين ولهذا قال سبحانه وتعالى (واصبر على ماأصابك ان ذلك من عزم الأمور) .

ان مشكلة الفاقد ليست سهلة لأنه قد يكون ضيق الأفق يحرم كل جديد ، فيصاب بالعقم ، وقد يكون مستهترا فينحرف المجتمع ويصاب بالتحلل ، ولقد بين القرآن أمراض المجتمعات السابقة ، وبين الجرائم التي كانت سببا فى دمارها ، وأمر المسلمين بالسير في الآفاق والبحث في أعماق التاريخ ، لادراك حركة التاريخ ، ولا يقف الأمر عند القيم الخلقية ، والأسلوب العملي لتقييم المجتمع بل ان الاسلام يربي الذوق لدى المسلم ، والذوق شيء أساسي في تكوين الانسان ، والجمال شيء فطرى فى هذا الوجود ، والمسلم مكلف بالالتزام بكل مايعطر هذه الحياة بأريج الجمال ، والخلق الكريم . فأنت قد تقدم حقيقة من الحقائق ناصعة لكنك تقدمها بأسلوب ينفر الناس منك ، ويجعلهم يكرهون الحق لا لأنهم يكرهونه ، ولكن لأنه يقدم بأسلوب منفر ، ولذلك يأتي القرآن في وصية لقمان ليربت على قلوب المؤمنين ويدعوهم الى التهذيب والى الذوق (واقصد في مشيك واغضض من صوتك ، ان انكر الأصوات لصوت الحمير ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا . ان

الله لايحب كل مختال فخور) انت مسلم ترتبط برباط أكيد مع الله سبحانه وتعالى ، فالتزم بقيم الاسلام ، وانت تتعامل مع الآخرين ، والتزم به وانت تدعو غيرك ، ولا تنفر الناس من دعوة الحق لأنك انت وغيرك جميعا تشتركون في معان كريمة هي معانى الانسانية الفاضلة النقية الشريفة . فلا يؤدى بك اعتناقك للحق وحرصك على تبليغه ، الى تنفير الناس من الحق والقيم الخلقية . الانسان في تعامله مع غيره يحتاج الى كبت عواطفه وكبح جماح غضبه والتزام الكياسة والآداب العامة حتى يستطيع ان ينجح فى أداء رسالته والقرآن الكريم ينكر في هذه الآيات الكريمة على الذين يسيئون التصرف في سلوكهم وتنعكس على حياتهم امراض نفوسهم ، ويعيشون تحت وطأة أمراض قلوبهم ينكر عليهم هذا التصرف البغيض لأنه يتنافى مع الخلق الكريم والذوق الانسانى .

ان القيم الايجابية والأسلوب العملي في اصلاح المجتمع وتحقيق الذوق الانساني الرفيع انما يتم اذا امتلك المجتمع نظرية علمية متكاملة عن الكون والحياة والانسان وعن صلة ذلك كله بالله عز وجل ، وان تكون اهداف الحياة واضحة وضمن هذه النظرية المشاعة في كل جنبات المجتمع يمكننا صياغة الأفراد صياغة تامة لأن وسائل الاعلام ومناهج التربية والاطار الثقافي العام للمجتمع ذلك كله هو الذى يتولى تحديد المفاهيم ، وتنمية العقل وتربية الذوق . لذلك فان الآيات تنتقل بعد ذلك الى الحديث عن الجزاء الأخير من مكونات الثقافة ، وهو العلم سواء أكان انسانيا أم عمليا والذي يجب ان يسود المجتمع .

قال تعالى :

(الم تروا ان الله سخر لكم مافي السموات وما في الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) آية ٢٠ سورة لقمان .

والآيتان السابقتان لهذه الآية . بعد الحديث عن القيم الاجتماعية والأسلوب العملي والذوق الانساني العام ترتيب نسقي بديع لأنها ترشد الى أهمية التدبر في ملكوت الله في توفير نظرة متكاملة للانسان عن الحياة والكون . وتكشف له عن

اسرار وجوده وتوضح له انتماءه الى الله عز وجل ، واذا كان القرآن الكريم قدم في وصية لقمان القيمة الأساسية للأخلاق ، وهى الشكر لله فانه في نهاية الوصية بين بعض اسرار القدرة الالهية في مجال الخلق ، والنعمة ، وهذا يستوجب كمال الشكر ، فتنتهي الوصية بمثل ما ابتدأت به .



دور القيادة الفكرية فى المجتمع

منذ أمد طويل حدث خلل في بنية المجتمع المسلم ، وفي بنية الشخصية المسلمة ، تمتد جذور هذا الخلل الى ماقبل سقوط بغداد وقرطبة وسمرقند ، ورغم كل الكوارث التي نزلت بالمسلمين ، فان المسلمين لم يتخلوا عن دينهم ، لكن ساد أغلب المسلمين في هذه المرحلة إيمان جذبي يعيش على هامش الشعور فلا يتغلغل في أعماق القلب ولايسيطر على العاطفة ، ولم تُبْنَ حقائقه بناء سليما في عقلية الانسان المسلم ، ولهذا فانه لم يؤثر في فكر المسلم ولا في سلوكه .

وفي خلال هذه الفترة ساد الجمود في مجال الفكر والعقم في مجال الابداع الحضارى ، وتخلت الحضارة الإسلامية عن قيادة العالم ، وتقدمت الحضارة الغربية لتسيطر على زمام البشرية ، وبالتالي تقدم حلولا للدول غير الأوروبية كي تستطيع أن ترفعها الى مصاف الدول المتقدمة حسب زعمهم ، ولكن هذه الحلول كلها فشلت فشلا ذريعا ، لأنها لم تكن نابعة من ضمير الأمة ولا من إرادتها ، ولم تراع قدسية رسالتها ، ولم يكن هناك الرغبة الصادقة من الدول المتقدمة في مساعدة غيرها على النمو .

ورغم كل ماحققته الدول المتقدمة من إبداع في مجالات الحياة المادية فإنها لم تحقق لنفسها أو لغيرها الاستقرار النفسي ، والنمو الروحي ، ولم توفر لمجتمعاتها الدوافع النفسية والخلقية اللازمة لسيطرة الانسان على ذاته ، وايجاد الأهداف الفلسفية التي يستلهمها في كل نشاطاته ، إن في علاقته مع ربه أو في علاقته مع غيره ومنهجه لرسالته في الحياة .

أبعاد الأزمــة

يحتاج المسلمون الى بذل جهد خاص لمعرفة الواقع الذى يعيشون فيه ، والمستقبل الذى يتطلعون إليه ، وادراك دور الإسلام في علاجه للواقع وتحديده لأبعاد المستقبل .

إن الأزمات التي تمر بها الأمم إنما هي تحديات تواجه إرادة كل أمة ، فان استطاعت هذه التحديات أن تستثير عزائم الأمة فان ذلك يؤدى بها الى فاعلية حقيقية لتخطي الأزمة ، وتحطيم الركود وازالة العقم ، ويبدأ دور الأمة بعد ذلك في الإيناع الحضارى كي تبدأ الأمة دورة حضارية جديدة . أما إذا كانت الأزمة اضخم من إمكانيات الأمة وطاقاتها فان ذلك قد يؤدى الى أن تلف الأمة في أكفان الموتى ، وأن ينتهي دورها على مسرح الحياة ، ليبدأ غيرها دورة جديدة ، أو يعطل طاقات الأمة لفترة طويلة يسيطر عليها فيها الخمول ، وتطول فيها فترة الانحدار الحضارى حتى يأذن الله بفتح جديد لها .

وأمتنا الإسلامية لها من رصيدها الحضارى منذ بدء الإسلام الى اليوم من قيمها الإسلامية الخالدة ، ومن الأمجاد والبطولات التي حققتها في مجال الفكر والسلوك مايجعلها أهلا لحمل الرسالة من جديد ، وهو في نفس الوقت يحميها من الوقوع في دائرة اليأس .

إن فاعلية الانسان في الحياة تعتمد على إمكانياته المادية وإمكانياته المعنوية ، وعلى أسلوب المجتمع الذى يدفعه للنهوض أو النكوص ، والأمة الإسلامية بشكل عام لاتشكو من الأزمة المادية وإن كانت هذه موجودة لدى بعض البلدان الإسلامية ،

الا أن البعض الآخر لايشكو من هذه الأزمة ، لكن الأزمة الحقيقية إنما مردها الى الناحية المعنوية ، والى أسلوب المجتمع ، ونعني بالناحية المعنوية توظيف القيم الإسلامية بحيث تتغلغل في أحشاء الانسان وتلون عاطفته وتدفعه للحركة الدائمة .

لقد استطاعت على سبيل المثال إسرائيل أن توظف خرافة شعب الله المختار في تحريك الشخصية اليهودية ، وان توجد مؤسسة صهيونية تكون بداية لايجاد اسرائيل ومع ذلك فلم يستطع المسلمون أن يوظفوا العقيدة الحقة التي ارتضاها الله للبشرية ، لايجاد الشخصية الإسلامية الواعية .

لقد استطاعت الحضارة المادية المعاصرة أن تشوش على الإسلام في عقر داره ، وأن تنشيء قطيعا ضخما من البشر يؤمنون بهيمنة الحضارة المادية الغربية ، وأحقيتها في الحياة ودورها في إنقاذ الإنسانية دون أن يدركوا أى شيء عن الاسلام .

إننا مطالبون اليوم بأن نزيل هذا الركام العفن ، وأن نقدم الإسلام الناصع في أسلوب سهل مبسط يتفق مع قدرات المسلم المعاصر الذهنية ، حتى نستطيع أن نحركه من جديد كي يؤدى دوره بفعالية كاملة .

والأمر كذلك بالنسبة لأسلوب المجتمع ، فان اسلوب المجتمع المعاصر قائم على القهر والكبت ، وبالتالي فانه لايترك مجالا للانسان المسلم كي يتنفس الحرية ملء رئتيه ، وأن يقوم بصناعة نفسه وصناعة مجتمعه .

وقد أدت أساليب القهر الى حالة من الاحباط الذى أصاب البعض ، فاختاروا أن يعيشوا على هامش الحياة ، وأن يسيطر عليهم شعور اللامبالاة ، أما البعض الآخر فانه يكتم ايمانه في قلبه لكنه لايستطيع أن يقدم شيئا لأمته .

الأزمات الخطيرة التي تمر بها الأمم لاتفسرها الحوادث المباشرة ، وإنما يجب على الباحث أن يغوص في أعماق التاريخ لتعمق الأزمة ، لأن الأزمات تنشأ نتيجة أمراض مزمنة سيطرت على الأمة لفترات طويلة حتى تنتهي بها الى الشلل الكلي أو الجزئي .

ونحن ندرك بحق أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد صنعا عقلية الإنسان المسلم الأول صناعة محكمة ، وبالتالي فان حركته استقامت على هدى القرآن والسنة ، وكان لأسلوب المجتمع الإسلامي في المدينة أثره الكبير في تكوين شخصية الانسان المسلم المثالية .

بيد أن الذين دخلوا الإسلام هامشيا ولم يتعمقوا مفاهيم القرآن لم يدركوا أسراره ، وبالتالي لم يتغير سلوكهم .

ووجدنا أن القرآن الكريم ينبه على خطورة هؤلاء (**ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم**) **التوبة / ١٠١** ، (**الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم**) **التوبة / ٩٧** (**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمَّا يدخل الايمان في قلوبكم**) الحجرات .

لكن والحق يقال ، أن القيادة الإسلامية الربانية في المدينة أيام الرسول عليه الصلاة والسلام كانت تمارس دورها في تنمية جذور الايمان في تصحيح المفاهيم وتعميقها في وجدان الانسان المسلم ، ولما فصلت القيادة الفكرية الربانية عن المجتمع ولم تؤد دورها منذ عهد يزيد الا في فترات قليلة في عهد الامام العادل عمر بن عبد العزيز ، كان لهذا الانفصال السيء أثره الكبير في نشوء الأمراض المزمنة .

وقد قلل من خطورة الأزمة في عهدها المبكر ، أن أئمة الفكر الإسلامي كانوا يحيون حياة ربانية كاملة وإن عزلوا عن مجال السلطة ، لكنهم عاشوا في ضمير الأمة ، تفزع اليهم في الملمات وتلوذ بهم في الأزمات ، ومع تراخي الزمن نتيجة لأسلوب القهر ، بدأ يخف وزن هؤلاء العلماء في الأجيال التالية ، ويقل دورهم في المجتمع ، وبالتالي قلت فاعليتهم وسادت الجهالة في بعض فترات التاريخ فتفاقمت بذلك الأزمة .

لقد ورثنا نحن هذا البلاء ، فالمفكرون الإسلاميون المعاصرون لايصلون الى

درجة الأئمة أمثال مالك وابو حنيفة والشافعي واحمد والغزالي وابن تيمية ، وهم لايحتلون ضمير الأمة لهذا السبب ، كما أنهم عزلوا عن مجال القيادة والتوجيه وأدى بهم الأمر الى الاغراق في العزلة والى شدة الانغلاق والتعلق بالقضايا الجزئية دون الكلية ، فساد العقم وعم الجمود وسيطر الركود . إنه لايصلح أمر آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها ، اذ لابد من أن يوضع منهج دراسي للقيادات الفكرية الإسلامية يراعى فيه مايلي :

١ — حقائق الاسلام

٢ — التاريخ الإسلامي بما فيه من ايجابيات وسلبيات .

٣ — حركة التاريخ البشرى والتطور الحضارى .

٤ — الأمراض التي نتجت عنها الأزمات العالمية المعاصرة سواء أكانت هذه الأمراض محلية في بلاد المسلمين أم عالمية .

٥ — أن تباشر هذه القيادة الفكرية الربانية دورها في قيادة المجتمع ، إن في مجال التربية والتعليم ، وان في مجال الاعلام ، وإن في مجال السلطة التنفيذية وبذلك نستطيع أن نضع أقدامنا على بداية الطريق لحل الأزمة المعاصرة .

وبذا يحتاج المنهج الدراسي الى نظرة كلية بدلا من أن يعيش بنظرات جزئية لاتصل به الى الحقائق الإسلامية الكاملة التي يجب أن يدركها قائد الفكر الرباني ، وأن يمارس دوره التطبيقى في ميدان الحياة الاجتماعية لتربية الناس على الخلق الإسلامي وقيادته في معارك الصراع ضد مفاهيم الجاهلية الخاطئة ، ويطلب في نفس الوقت من المفكرين الإسلاميين أن يضعوا الأصول العامة للفكر الإسلامي في مجال السياسة ، وفي مجال الاقتصاد ، وفي مجال الحياة الاجتماعية ، وفي مجال العدالة ، وفي مجال الاجتماع البشرى ، وفي الجانب الحركي للمسلم لتحقيق رسالته وللسيطرة على الأحداث .

إن هذه الحقائق موجودة في كتاب الله وسنة رسوله ، لكن الفكر الإسلامي عجز عن تحقيقها طوال الفترة السابقة لما أصيب به من أمراض أدت به الى العقم ، اذا استثنينا القرون الثلاثة الأولى التي قام فيها المفكرون الإسلاميون بدراسات جادة في مجال الفقه وأصوله ، وفي مجال الحديث والتفسير ، ثم ظهرت ومضات تجلى فيها الفكر

الإسلامي التحليلي الكلي على يد أئمة أمثال الغزالي وابن تيمية ، ثم يأتي بعد ذلك دور الفكر في تصحيح المفاهيم الإسلامية ، والتي حدث فيها تحريف أدى الى الخلط بين الحقائق والهامشيات ووضع الجزئيات مكان الكليات .

إن هناك خليطا عجيبا على الساحة الإسلامية في مجال الفكر والسلوك ، أدى الى تناقضات رهيبة بين التيارات الإسلامية الموجودة على الساحة ، وقد ترتب على ذلك صراع ضخم غذته جهات خفية مما بدد طاقات الأمة ، وأدى الى صراع في الهواء ، انه صراع ضد شيء غير مرئي وغير واضح المعالم .

لقد سيطر ضباب كثيف على الرؤية الإسلامية في مختلف القضايا ، وترك ذلك الجماهير في حيرة من أمرها .

واذا كان المسلمون يشكون من هذه الأزمة ، فان أزمة غير المسلمين في هذا المجال أشد وأعتى ، لأن الشعوب غير الإسلامية خاصة المتقدمة تعيش تحت وطأة القوميات والاحتكارات والنزعات الطبقية والتحلل الخلقي ، وفي نفس الوقت تملك إمكانيات مادية ضخمة ويسيطر عليها عقدة الرجل الأبيض وامتيازه على سائر الأجناس ، ودوره في السيادة على البشرية عن طريق الصراع والسيطرة على الآخرين .

إن هذا التركيب الغريب في المجتمع الغربي الأوروبي والأمريكي قد يؤدى به ذلك الى تحطيم نفسه وتحطيم البشرية جمعاء .

إن العالم المتقدم يحتاج الى منقذ ، والعالم الاسلامي يحتاج الى منقذ ، ولامنقذ للجميع الا الإسلام ، والاسلام وحده كحقيقة أزلية خالدة ، لايتقدم تلقائيا لحل الأزمة المعاصرة ، إنما يتجسد الاسلام أولا في المفكرين الربانيين ، ثم في الشخصية المسلمة السوية وفي المجتمع المسلم الرباني حينئذ يستطيع أن يتقدم لحل الأزمة المعاصرة .

استبانـة الطريـــق

إن نجاح أى أمة في مضمار الحضارة إنما يكمن في معرفة نقطة البدء التي تبدأ منها خط سيرها ، ومعرفة الغاية التي تعمل لها ، ومعرفة الطريق الموصل لهذه الغاية ، وأى أمة نجحت في صنع حضارتها سلكت هذا الطريق . نأخذ على سبيل المثال في عالمنا المعاصر . الصين واليابان والاتحاد السوفيتى . هذه الأمم ابتدأت نهضتها بعد الأمة الاسلامية بمراحل طويلة مختلفة — بيد أنها سبقت وتأخرنا . ونهضت ورجعنا الى الوراء . ذلك لانهم بدأوا من النقطة الأساسية التي تبدأ منها كل أمة تريد النهوض ، حيث استطاعوا أن يصهروا مجتمعهم داخل بوتقة من الأفكار الاجتماعية والسياسية والدينية ، حيث وصلوا ماضيهم بحاضرهم ولم يتنكروا لهوية أمتهم ، وأغلقوا على أنفسهم أبواب العادات الاجتماعية الغربية والفكر الغربي المنحرف وكل مايمت الى الحضارة الغربية بصلة ، في جانبها الترفيهي أو الاجتماعي ، ثم بدأوا ينقلون الجانب العلمي والصناعي الغربي وكل مايمت به بصله .

لقد رفضوا الفكر الغربي في الجانب العقائدى ، وحرموا على أنفسهم كل مايعرقل جهودهم فسمعنا عن حملة تدمير تماثيل فينوس ، وتحريم موسيقى الكلاسيك الغربية والروسية في الصين ، لأن الصين ترفض الذوبان في كلتا الحضارتين الروسية والغربية ، وهناك نص للينين يحرم على الروسيين بعض أنواع الموسيقى الغربية ، لأنها تؤدى إلى ضعف الثورية لدى الروسيين ، ونفس الشيء فعلته اليابان فترة عبادة الامبراطور ، وعبادة الأسلاف والاحتفاظ بسيف العائلة ، ومقعد خاص لايجلس عليه أحد ، لاحتمال أن يمر عليه الامبراطور يوما فيجلس عليه . والهدف من كل ذلك إنما هو احتفاظ الأمة بشخصيتها والمحافظة على هويتها ، أما نقطة الخطأ عندنا فتمثلت في أننا بغباء أو بخبث من العدو ، أو هما معا غباء منا وخبث من العدو ، ظننا أن بإمكاننا اذا استولينا على منتجات الحضارة الغربية وكدسناها عندنا وأدرنا

ظهرنا لتراثنا أصبحنا أمة متحضرة ، تمثل ذلك يوم أن اوفد محمد علي مع بداية النهضة بعثات الى الغرب بهدف التمرن على السلاح وشراء المدافع لتحقيق مجده الشخصي ، ولم ينظر الى حاضر الأمة وماضيها ولم يعمل على صهر الأمة في بوتقة الحضارة الإسلامية ، وفي الوقت الذى استطاع فيه أن يكون جيشا يهدد الخلافة ، استطاع فيه أن ينشىء في الأمة طوائف متنافرة .

١ ــ طائفة ارتضعت لبان الحضارة الغربية ، وأدارت ظهرها للإسلام ، تمثل ذلك يوم أن بدأ ظهور الاتجاه العلماني مبكرا في بلادنا ، ويعني الاتجاه العلماني استقلال الفرد والأسرة والدولة عن التوجيه الديني وابتعاد الدين عن التوجيه في مجال السلوك والتربية، وعن التشريع في مجال القضاء وفي نظام الحكم . وقد نشأ ذلك أولا في المجتمع الغربي بعزل الكنيسة عن مجال التوجيه لأخطاء ارتكبتها بعض أفرادها واتجه المجتمع الغربي لعبادة الانسان وتقديسه وإحياء القوميات وتقديسها لتحل محل الدين . ونتيجة لذلك نشأت الحرية بلا ضوابط في مجال السلوك ، ونشأت الديمقراطية لممارسة الحرية في السياسة والحكم ، ونشأت الرأسمالية في مجال الاقتصاد تحقيقا لطموحات الأفراد والدول في استقلال هذا المجال ونشأ في الغرب ثالوث جديد يسمى العلمانية والرأسمالية والديمقراطية ، بالرغم من نجاح الغرب في الجانب المادى ، الا أنه في نفس الوقت بدأت معاول الهدم للمجتمع الغربي في مجال القيم والاخلاق لدى الفرد ولدى المجتمع ، وكان الاتجاه العلماني تمهيدا للاتجاه الالحادى الذى نشأت عنه الشيوعية فيما بعد .

٢ ــ طائفة الدراويش الذين تسيطر عليهم الأفكار الجبرية التي كانت سببا في وقوع الأمة فى فترة الجمود ، وقد برزت أزمة الجبرية في العالم الاسلامي ، عندما انحرف التصوف عن الكتاب والسنة وهبت عليه رياح مجوسية الفرس وبرهمية الهند ووثنية الاغريق ، وكان أبرز مظاهرها القول بالحلول ، والقول بوحدة الوجود ، ولقد أدت هذه الأفكار الى ضعف صلة المسلم بالكتاب والسنة ومع عجمة الأتراك وعاطفتهم الشديدة نحو الدين سرى في كيان الأمة خدر عام أفقدها القدرة على الابتكار أو السيطرة على عالم الأفكار ، ونشأت سلبية قاتلة

في شخصية الفرد ، وخلل شبه كامل في أسلوب المجتمع وفوضى خطيرة في مجال الحكم .

٣ ــ طائفة علماء الدين الذين استطاع محمد علي بمهارة أن يعزلهم عن موكب الحياة الاجتماعية والسياسية وأن يدخلهم في زوايا النسيان .

بدأت النهضة في مصر وتبعتها النهضات في العالم العربي على هذه الوتيرة ، ثم واكب ذلك حركات شرسة تعمل بخبث ودهاء لدحر الإسلام عن المجتمع ، تمثلت في حركة الاستشراق والارساليات التبشيرية الى بلاد الإسلام ، والبعثات التي أرسلت الى الغرب دون أن تحصن بالمبادىء الإسلامية .

يقول (زويمر) ، اذا نظرنا الى البلاد التي يحكمها هذا الدين الكبير المخاصم لنا ، والى البلاد التي يتهددها بحكمته ، إياها يظهر لنا أن كل واحدة من هذه البلاد هى رمز لعنصر من المعضلة الكبرى ، فالمغرب الاقصى في الإسلام مثال الانحطاط ، وفارس مثال للانحلال وجزيرة العرب مثال للوقود ، ومصر مثال لجهودات الاصلاح ، والصين مثال للاهمال ، وجاوة مثال للتغيير ، والانتقال ، والهند مركز التحكك بالإسلام ، وافريقيا الوسطى مكان الخطر الإسلامى ، والاسلام يحتاج قبل كل شيء الى المسيح ، فهو الذى يرسل أشعة النور الى المغرب ويعيد الوحدة لفارس والحياة لجزيرة العرب ، والنهضة لمصر ، ويرد الى الصين ما أهمله الاسلام فيها ، وهو الذى يبقى لأهالي ماليزيا بلادهم ويزيل الخطر العظيم من أفريقيا[1] .

ثم كانت الطامة الكبرى في وضع منهج للتعليم على يد القس دانلوب في مصر وتزاملت هذه الحركات للعمل على تفتيت قوى الأمة وبعثرت جهدها ، ثم جاءت حركة مصطفى كمال أتاتورك ثمرة مرة للتآمر الخبيث وللبداية الخاطئة من جهة أخرى فألغى الخلافة وألغى اللغة العربية ، وأمر بلبس القبعة وعمل على نشر الانحلال في الأمة ليواكب بذلك ركب الحضارة الغربية ، لقد بذلت جهود كثيرة من قبل

(١) من كتاب الغاره على العالم الاسلامي .

المصلحين المسلمين لكنها لم تؤت ثمارها المطلوبة ، لأن رجال السياسة ومعهم دهاقين الاستعمار في مختلف التخصصات أرادوا أن يفرغوا الأمة من محتواها الاسلامي ليضمنوا بقاءهم اطول فترة ممكنة ، دون ان يجدوا مقاومة تذكر من أحد . يقول أحد منشورات حزب تركيا الفتاة ، إن هذه البدعة الخيالية المخيفة التي يسمونها الأمة الإسلامية التي ظلت الى أمد طويل سدا يحول دون التقدم بوجه عام ، ودون تحقيق الوحدة الطورانية بوجه خاص ، هى في طريقها الآن الى التفكك فالزوال ، وليس لنا أن نتخوف منها على أنها تشكل خطرا على خططنا في تحقيق مبادئنا وأهدافنا ، ويقول أحد العلماء أن الدرس الذى تعلمه أعضاء تركيا الفتاة هو أن الرجوع بالشعب التركي الى مؤسساته الاجتماعية قبل دخول الاسلام شأنه أن يعود بهم الى إحياء الروح الوطنية ، وفي الوقت نفسه يكون أساسا للتقارب والتعاون بين الأتراك وبين الشعوب التركية الأخرى خارج الحدود العثمانية .

كان اتجاه تركيا الى العلمانية بعد إلغاء الخلافة التركية ثمرة مرة للاتجاه العلماني في أوربا ، وللخطة الثلاثينية التي وضعتها الماسونية في تربية أجيال من المراحل الابتدائية حتى الوصول الى مراكز مرموقة لتنفيذ اوامر دهاقين اليهود ، وكان الانقلاب الشيوعي ثمرة كريهة لاتجاه الإلحاد الايدلوجى الذى ظهر في أوربا ، نتيجة لتخطيط اليهود في الاحياء المنعزلة والخاصة بهم داخل الاتحاد السوفيتى ، وقد كان الأعضاء الأول الذين قاموا بالثورة البلشفية خمسمائة منهم ٤٥٠ من اليهود والباقى من غير اليهود ولهم صلات باليهود عن طريق المصاهرة أو التلمذة ، فاذا اتجهنا الى العالم العربي وجدنا هذه الأوضاع كلها تنعكس عليه وفي سنة (١٩٠٧) يجتمع فريق من الخبراء في شأن سياسة الامبراطورية العجوز ليقروا أن الخطر انما يكمن في الاسلام وفي هذا الشرق بالذات ، ويقررون وضع حاجز بين المشرق العربي والمغرب العربي ، يتمثل فيما بعد في إسرائيل ، وتزداد المأساة حدة حين يستطيع إقامة صلح بين أقوى الدول العربية واسرائيل فتزداد المشكلة تعقيداً ، لأن عزل المغرب العربي أفقد المسلمين نصف قوتهم وتحييد أكبر الدول العربية يعتبر ضربة قاضية لقضية المصير المشترك ، ويأتي هذا الصلح ثمرة مرة لعوامل الفرقة والتخاذل وانتشار الالحاد والانحلال بين أبناء الأمة تحت مبادىء وشعارات براقة .

نقطة البدء كانت خاطئة لأننا ظننا أن استيلاءنا على منتجات الحضارة الغربية يعتبر تحضرا ، والواقع غير ذلك ، لأن الحضارة عقيدة تسيطر على روح الانسان وأفكارة ومشاعره ، فتدفعه الى العمل والجد والمثابرة ، وتثير فيه كوامن اليقظة وتتسرب في مجارى النفس وخفقات القلب ، وتفجر طاقات الانسان فيندفع الجميع للعمل وفق خطة منظمة ونحو هدف واحد ، فيطلع فجر الحضارة وقد تسمو قيادة الانسانية وغيبة الاسلام عن الساحة نتيجة التخطيط الخبيث من العدو والغفلة القاتلة التي أصابت المسلمين .

ونريد أن نخلص من ذلك الى النتائج التالية :

١ ــ تحول قسم كبير من أبناء الأمة الاسلامية الى جانب العلمانية الغربية أو الالحاد الشرقى يعتبر عاملا أساسيا في كل ماحدث في بلاد الاسلام والمسلمين .
٢ ــ إحياء القوميات المحلية سواء أكانت باسم القومية العربية أو غيرها ، تخطيط مدروس يستهدف فريقا كبيرا ممن وقعوا فريسة للغزو الثقافى لضمهم اليه ، وطعن الأمة في أعز ما تملك وهى القوة البشرية .
٣ ــ الأمة التي لاتحسن صناعة الموت لاتحسن صناعة الحياة ، وقد قدمت أمتنا الاسلامية في عصرنا الحديث ملايين كثيرة ، لكنها دفعتها وهى ذليلة كسبحة الداهنة وكل من يعمل على تعطيل عودته الى الحياة والى المجتمع هو عضو يعمل مع معسكر الأعداء وإن كان لايدرى .
٤ ــ عودة الاسلام الى المجتمع تحتاج الى خطة واعية وجهود مضنية من المجتمع .
٥ ــ مأساة أفغانستان يجب أن تكون البداية لمنطلق جديد للاسلام مع الاستفادة من الدروس السابقة لتصحيح المسيرة وذلك لايكون إلا بصهر الأمة كلها في بوتقة الاسلام ونفي الأفكار الخبيثة انه البحث أساسا عن هوية الأمة .

أين الطريق ؟

الشباب المسلم اليوم في حيرة ، إنه فى حيرة من واقعه الذى يعيش فيه ، وفي حيرة من مستقبله الذى ينتظره ، ولهذه الحيرة أسباب كثيرة يأتى فى مقدمتها :

١ ــ طبيعة الحياة المعاصرة وما فيها من تقلبات وتغيرات ، وماجد فيها من علوم وفلسفات في مختلف جوانب الحياة ، كل هذا جعل للشباب منطقا خاصا غير منطق الأجيال السالفة ، إنه منطق يعطى لصاحبه الحق في قبول أو رفض مايعرض عليه ، لأنه متأثر بموجات التيارات المعاصرة المختلفة التى تقتحم عليه ذهنه دون أن يستطيع الافلات منها ، وتملك عليه أقطار نفسه دون أن يجد عنده من الأصالة الفكرية مايستطيع أن يميز به بين الخطأ والصواب .

٢ ــ عرض الدعوة الاسلامية ، مما لاشك فيه أنه قد جدت علوم كثيرة حديثة لم تكن قد وصلت الى هذا المستوى فى العصور السابقة ، أو نالت هذا الاستقلال أو دخلت الميدان التطبيقى الذى دخلته فى العصر الحديث ، كعلم النفس وعلم الاجتماع ومختلف العلوم الانسانية والتطبيقية ، ولهذه العلوم أثرها الذى ينعكس على الشباب فى ظل الحضارة .

وقد جدت وسائل كثيرة للاعلام ، كالاذاعة والتلفاز والصحيفة والسينما والمسرح وغير ذلك مما ابتكره العلم الحديث ، واستطاعت هذه الأجهزة أن تدخل الى كل بيت وأن تصل الى كل أذن ، ومع كل ذلك فان الدعوة الاسلامية لاتزال تتعثر على أيدى حملتها ، فان الكثير منهم لايزال يعيش عالة على تراث الأولين دون النظر الى واقع الحياة المعاصرة أو هضم ما استجد من علوم .

والا فأين الفيلم الاسلامى ، والصحيفة الاسلامية والتلفار والاذاعة ، وغير ذلك من الوسائل الاعلامية الحديثة ؟

وأين رجال الفكر الاسلامى الذين عندهم من الأصالة والقدرة مايمكنهم من مجابهة الفلسفات المختلفة المعاصرة ، وبيان مافيها من أوجه الخطأ والصواب ، ويواكبون التطور الحضارى فى جميع مجالات الحياة ؟

والى جوار هذا الخلل ، يوجد خلل آخر لايقل عنه خطورة ، وهو التشويه المتعمد للمبادىء الاسلامية والتاريخ الاسلامى والثقافة الاسلامية من قبل المبشرين والمستشرقين وتلاميذهم ، ومن قبل رجال الفكر المادى والعلمانى على حد سواء ، سواء أكانوا من أبناء جلدتنا أو من أعدائنا .

ويضم الى ذلك عزل الاسلام عن مجال التوجيه في ميدان الفكر والتربية ومختلف مجالات الحياة ، وترك الميدان فسيحا أمام النظريات الغربية المؤسسة على الفلسفة العلمانية والالحاد تملأ مختلف أرجاء العالم الاسلامى .

وفى نفس الوقت ، لاتزال بعض الخرافات التى لا تمت الى الاسلام بصلة ، تسيطر على قطاع كبير من أبناء المسلمين ، وتتحكم فيهم باسم الاسلام وهو منها براء ، وقد أعطى ذلك الفكر الوافد دفعة قوية لأن تمتد جذوره فى قلوب الكثير من المثقفين ثقافة غربية ، وأن يعشش فى أذهانهم وأصبح يسيطر عليهم ، إنه لا مانع من الجمع بين الاسلام وبين غيره من المبادىء كالماركسية أو الوجودية أو العلمانية ، كما أنه لامانع من أن يكون المسلم مسلما باسمه وغربيا أو شرقيا بسلوكه وفعله ، وأن على رجال الدين ، أى علماء الاسلام أن يطوروا الاسلام ليصبح متمشيا مع أحدث الموديلات الفكرية الحديثة .

الصراع السياسى : ورثت الأجيال المعاصرة صراعا سياسيا بين مختلف الأقطار الاسلامية ، نشأ عن سقوط الخلافة وتمزق الوحدة الاسلامية ورضوخ كل جزء من أجزاء الأمة لسيطرة أجنبية معينة ، وبالتالى فقد نشأ نتيجة لذلك أن فقدت المجتمعات الاسلامية دورها القيادى ، وأصبحت تابعة لغيرها ، ولم تقتصر التبعية على الناحية السياسية وحدها ، بل إنها تعدتها الى الناحية الفكرية والاقتصادية والاجتماعية ، وحتى بعد أن حصلت الأقطار الاسلامية على استقلالها السياسى ،

لاتزال تبعيتها بعد الاستقلال لاتختلف كثيرا عنها قبله ، وقد أحدثت هذه الحالة رد فعل فى نفوس القلة من ذوى الاستقلال الفكرى ، فنشأ صراع بين الطائفتين ، طائفة الذين لايزالون يعيشون فى التبعية ، والذين يفقهون معنى الاستقلال بمعناه الحقيقى ، وبين هذا وذاك يعيش الشباب المسلم يجتر آلامه وقد ساعد على تعقد الموقف سرعة المواصلات وسرعة التطور ، بحيث أصبح من الميسور أن نجد الكثير من الأفكار والمبادىء تخط طريقها الى الشباب دون اختيار منه .

وشبابنا يعيش بين طرفى النزاع السياسى ، الذى يجعل كلا من الفريقين يحمل الحقد للآخر ، كما أنه يعيش بحكم نشأته وهو يحمل عقيدة الايمان التى ورثها عن الآباء والأجداد ، وبحكم ثقافته الجديدة فى ظروف الأحوال العالمية وما فيها من تيارات توجهها الصهيونية من خلف ستار ، فيعيش ممزق النفس ، موزع القلب مشتت الفكر ، ونستطيع أن نستنتج مما تقدم أن المجتمع الاسلامى يعيش أبناؤه فى خصومة عنيفة وتنعكس ظلالها على الشباب للأسباب التالية :

١ ــ إسلام مشوه فى عرضه بسبب عجز الكثير من دعاته وموقف الحقد الأعمى من خصومه من المستشرقين والمبشرين .
٢ ــ تشبث العلمانية بموقفها فى نفوس المستغربين من أبناء المسلمين ومحاربتها للاسلام بضراوة وتمكن دعاتها من تيسير عرضها بمختلف الوسائل .
٣ ــ دخول المادية الالحادية ميدان الصراع بعد أن استطاعت أن تضم أكثر من مائة مليون مسلم وأن تسيطر عليهم بالحديد والنار .
٤ ــ تبنى أصحاب التبعية فى المجتمع الاسلامى ، وأرباب الانحلال والاباحية للفكر المستورد الدخيل ، والدفاع عنه بشدة ، وتسخير ما يستطيعون السيطرة عليه من موارد المسلمين لنشره بين المسلمين .
٥ ــ تدهور المؤسسات الدينية التى تعمل للاسلام على المستوى الحكومى والشعبى .

(س ١) أين المعاهد التى كانت تقوم بنشر الاسلام بعد دراسة مبادئه بإمعان ؟

(س ٢) أين الأوقاف الاسلامية التى حبست لصالح الدعوة الاسلامية ؟
(س ٣) أين محل القضاء الاسلامى بين القوانين الوضعية ؟
(س ٤) أين الدعاة المتفرغون والذين كانوا يتطوعون فى الزمن السابق للدعوة الى الاسلام بأقوالهم وأعمالهم ؟
(س ٥) ماموقف الجمعيات الاسلامية من بعضها ؟ وما برامجها ؟ ولماذا التعدد بكثرة هائلة فى القطر الواحد .

ان كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت الشباب المسلم لايستطيع أن يخط لنفسه فى الحياة خطة واضحة ، أو أن يضع لنفسه منهجا مستقيما ، إنه يجد بناء المجتمع الاسلامى يتهدم لبنة لبنة دون أن يجد الطريق السليم لحمايته من الهدم وينتقص من أطرافه كل يوم دون أن يجد فى نفسه القدرة على الدفاع عن أى جزء منه ، أن يجد الأفكار المتعارضة تأخذ طريقها الى نفسه وتملك عليه فكره دون أن يجد له شاطئا يرسو بسفينته عليه .

إنه يجد كل المجتمعات الانسانية تسيطر عليها المادية والعلمانية والوجودية مع اختلافها فى درجات السيطرة ، دون أن يجد لنفسه مناخا إسلاميا يتنفس فيه ملء رئتيه ، إن شباب المسلمين بحاجة اليوم الى :
— حماية الدولة له من الأفكار الدخيلة عن طريق المناهج أو اجهزة الاعلام ووضع دراسة إسلامية تواكب التطور الحضارى .
— إعداد الدعاة الذين يعيشون قدوة للاسلام فى حياتهم .
— التخطيط الجاد لإقامة الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم .
— عرض الاسلام على أنه منهج متكامل للفرد والأسرة والمجتمع .

بذلك يستطيع الشباب المسلم أن يسهم فى بناء مجتمع اسلامى ، يحمى القيم الانسانية العالمية ، ويقطع الطريق على الصهيونية التى تهدف فى كل تخطيطاتها إلى تدمير كل القيم الانسانية .

خطورة التغريب

هناك طريقان لتغيير المجتمع ونقله من الجاهلية الى الاسلام ، ومن الحياة البدائية الى الحياة الحضارية ، كي يحمل رسالته في الحياة .

الطريق الأول : هو بناء القاعدة الشعبية وتربية الأفراد تربية سليمة على القيم والمبادىء التي يتوخاها المصلحون ويهدف اليها المرسلون .

والطريق الثاني : هو السيطرة على الحكم وتغييره تغييرا جذريا واتخاذه وسيلة لاصلاح المجتمع ونقله من الركود الى الحركة ومن الخمود الى اليقظة .

وقد اتبع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الطريقين ، فكثير من الأنبياء قاموا وسط شعوبهم ونادوا بالتوحيد وبعبادة الله وحده ، وطالبوا بتطويع نظام الحياة كلها لله عز وجل وجاهدوا الطغاة والمنحرفين والكفرة والمشركين ، وتعرضوا للاضطهاد والتعذيب ، ومن آمن برسالتهم وظلوا ثابتين على أوامر الله حتى تتحقق أو يموتون دونها ، وإنك لواجد في كتاب الله عز وجل أمثلة كثيرة على ذلك كابراهيم عليه السلام ونوح ومحمد وعيسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين .

والطريق الثاني وهو الاستيلاء على السلطة وتطويع المجتمع والحكم لعبودية الله عز وجل هو الطريق الذى سلكه يوسف عليه السلام فبينما نجده عليه السلام يدعو في السجن الى وحدانية الله (**أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار**) ، نجده بعد ذلك يفسر رؤيا الملك وقد فتح الله قلب الملك لهذا التفسير ورأى الملك أن يعتمد على يوسف عليه السلام وأن يجعله مستشاره المؤتمن (**إنك اليوم لدينا مكين أمين**) فرأى يوسف عليه السلام أن الفرصة سانحة ، وأنه لايجوز له أن يبقى

مستشارا خاصا للملك فقط ، بل لابد من أن يتملك كل السلطات كي يقوم بدور التغيير والاصلاح في المجتمع فقال للملك : (**اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**) فاستجاب الملك لطلبه (**وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولانضيع أجر المحسنين**) ، وخزائن الأرض تعني كل السلطات ، لأن كلمة الخزائن تعني المنابع ، وتعني المقاليد ، وهذه بدورها تعني كل السلطات .

وقد وصف الله يوسف عليه السلام بأنه من المحسنين في آيتنا هذه وفي غيرها حيث قال (**إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين**) . وإحسان يوسف عليه السلام الذى وصف به نتيجة تقواه وصبره كان ملازما له طوال حياته ، من طفولته الى أن لقي ربه ، لأنه نبي يحمل رسالة الله ككل إخوانه الأنبياء ، واذا كان الأنبياء قد ابتلوا بالنعماء والضراء ، فان يوسف عليه السلام قد ابتلي بالضراء فصبر وبالنعماء فشكر ، فظل مجاهدا في سبيل تحقيق دين الله قبل الحكم وبعده .

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن هو كيف يرضى يوسف عليه السلام أن يكون عضوا في حكومة غير اسلامية ، اذ الاسلام يرفض التناقض بين القول والعمل ؟ .

والواقع أنه لايوجد تناقض في هذا ، فإن يوسف عليه السلام نبي مجاهد ، ورأى بثاقب فكره أن البلاد تتعرض لهزات اقتصادية وهزات خلقية ، وأن الاصلاح أصبح ممكنا عن طريق الحكم بعد أن أسلم الملك وأسلم الكثير من الحاشية ، وأن تطويع السلطات لله عز وجل وإصلاح المجتمع عن طريقها إنما هو أمر تحتمه شريعة الله .

ومما لاشك فيه أن حياة الأنبياء وأن دعوتهم لايمكن أن يكون فيها تناقض أو تضارب ، وإنما يحدث هذا اذا نسي الناس رسالتهم في المحنة أو في النعمة ، وأنبياء الله ليسوا كذلك إنهم في النعمة والنقمة لايتغيرون ولايتنازلون عن شيء من دعوتهم ،

إنهم لايطوعون دين الله للملك ، ولكنهم يطوعون الملك لدين الله ، قال تعالى : (**وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله**) .

إن للأنبياء هدفا واحدا ، هو الله ، وأن لهم طريقا واحدا لبلوغ الهدف وهو الصراط المستقيم ، (الإسلام) ، ولايمكن للأنبياء عليهم السلام أن ينسوا هدفهم أو ينحرفوا عن طريقهم ، لكن حين ينسى المسلمون هدفهم ، ويضلون طريقهم ، فانهم يختلقون المعاذير ، ويلتمسون المبررات ، ويحاولون أن يطبقوا ذلك على أنبياء الله ، ومثال ذلك أن مسلمي العصر الحديث حين قعدوا عن الجهاد ورضوا بالدون من الحياة وبخلوا عن بذل المال وضعفوا عن إدراك حقيقة رسالتهم وجبنوا عن حمل دعوتهم ، طفقوا يبحثون عن المعاذير التي تبرر لهم الحياة في ظل نظم لاتحكم بشريعة الله ، وفي شيوع المنكرات التي تغضب الله في مؤسسات كثيرة في المجتمع الذى يعيشون فيه ، وهذا يمثل التناقض الحقيقي بين مايدعيه المسلمون من أنهم حملة الرسالة السماوية ، وبين واقعهم المرير الذى يعيشونه تحت وطأة المنكرات وسيطرة الشهوات والشبهات في مختلف المجتمعات الانسانية ، ولعل أخطر تلك المعاذير هو دعوة أن الدين مسألة شخصية وأنه لاعلاقة له بالسياسة والاقتصاد ولا بالجانب الاجتماعى ، وانما الدين علاقة بين الانسان وربه فقط ، ومعنى ذلك أن الانسان يعيش مع الله فترة الصلاة فقط ، وهي فترة قد تمتد من ثلث ساعة الى ساعة ، ثم بعد ذلك يعيش متناقضا مع الله ومع نفسه باقي اليوم اى ثلاث وعشرون ساعة .

والذى يحدث في الفرد يحدث في الأمة ، فان الأمة بكل إمكاناتها وطاقاتها تعيش منفصلة انفصالا كاملا عن الله الا في جزئيات صغيرة ، كأن تبدأ كتابة قانون باسم الله ثم تجده قانونا يتناقض مع أوامر الله ، وأن تذكر فقرة أن دين الدولة الرسمي هو الاسلام ، وفي ظل ذلك تفعل كل ما يخالف الاسلام .

إن هذا التناقض الواقع في حياة الفرد وفي حياة المجتمع ، وفي حياة الأمة ككل ، هو أساس البلاء الذى ابتلي به المسلمون في العصر الحاضر ، وهو لم يأت فجأة في هذا الجيل ، وإنما جاء نتيجة تراكمات كثيرة وانحرافات خطيرة بدأت منذ أجيال طويلة .

ولقد أصبح الجيل الناشيء يتنفس المنكرات ملء رئتيه كما يتنفس الانسان الهواء ، حيث يوجد المنكر مشاعا في أجهزة الاعلام وفي النوادى وفي الشارع وفي المؤسسات الترفيهية وغيرها ، وأصبح هذا أمرا معلوما من الحياة بالضرورة وكأنه أمر لامعنى فيه .

ومما يؤسف له أن بعض المتدينين الذين يرون وجود مجاهدة المنكر كثيرا مايبتلون بالأمراض النفسية وضيق الأفق ، وينظرون الى الأمور نظرة انفعالية قاصرة ، فقد يهتمون بالأمور المظهرية دون الأمور الجوهرية ، مما يدل على عدم إدراكهم لحقائق الإسلام ، ولواقع المجتمع ولحركة التاريخ ، وقد يبدأون بالجزئيات قبل الكليات مما ينفر الناس منهم ، والذى يجب أن ندركه بحق أن الاسلام الذى جاء من عند الله نظام متكامل للفرد والمجتمع وهو لايقتصر على جانب دون آخر ، بل إن العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات والنظام السياسي والاقتصادى والاجتماعي والجهاز الثقافي والاعلامي والتربوى ، كلها يجب أن تكون خاضعة لله عز وجل ، حتى لايحدث تناقض في حياة الفرد أو في حياة المجتمع ، وان الدين لم يأت لكي يعيش في ركاب الناس أو على هامش حياتهم ، وأن تكون علاقته بهم علاقة الخادم بمخدومه ، وإنما جاء الدين هاديا ومرشدا ليضع الأطر السليمة التي يعيش الناس فيها ، فتخضع أهواؤهم ورغباتهم وشهواتهم لأوامر الدين دون حجر على العقول أو تضييق فى المباحات .

إن لله سننا ثابتة في هذا الكون لاتتغير ولاتتبدل ، وله سنن ثابتة في الاجتماع البشرى تشبه الى حد ما سنن الله في كونه المادى ، ومن سنة الله في الاجتماع البشرى أنه عندما تسيطر المفاهيم الصحيحة عن الوجود والكون والحياة والانسان ، ثم يستقيم السلوك على أساس تلك المفاهيم ، وتتضح الأهداف والوسائل التي توصل اليها .

ويبدأ الانسان في الحركة وفق الخط المرسوم له ، وتسود الروح الجماعية في الأمة ، ويسود العدل ، ويكون هناك انسجام كامل بين القيادة والجمهور ، وتختفي العلل القاتلة من حياة الناس ، فان هذه الأمة تنتصر ويعلو شأنها وتؤدى دورها بالتالي .

أما إذا انحرف الفكر واعوج السلوك ، وتقطعت شبكة العلاقات الاجتماعية في الأمة ، وغاب الهدف وتبددت السبل التي توصل اليه ، وتفرقت بالناس الأهواء ، فان هذه الأمة يضمحل شأنها ، وتصبح مأوى للرذائل ، وتسقط في يد الأعداء ذليلة مهينة .

وحين نطبق هذه السنن على أمتنا الاسلامية ، فاننا نجد تناقضا رهيبا بين الفكر الذى يسيطر على كثير من المفاهيم ، وبين حقائق الاسلام ، كما نجد انحرافا بينا لسلوك المسلمين بعيدا عن هدى الاسلام ووجود الأمراض القاتلة المتفشية بينهم ، لذلك ضاع الكثير من بلاد المسلمين ووقعت في يد الكفر ، وأصبحت السيطرة كاملة للنظم الباطلة على بلاد الاسلام ، وعاش حملة الاسلام قابعين في زوايا الاهمال والنسيان .

والمشكلة التي نعاني منها اليوم لاتتمثل فقط في احتلال البلاد الاسلامية وغزوها ثقافيا وسياسيا واقتصاديا ، وإنما تتمثل في الدرجة الأولى ، في محاولة تطويع الاسلام للكفر ، وإذابة المسلمين في حضارة الالحاد ، والتماس المبادرات لتسويغ التناقض الذى يحياه المسلمون بين الكفر والايمان .

إن هذا الاضطراب الفكرى والخلل السلوكي ، من شأنه أن ينسي أمة رسالتها ، وأن يضعف مقاومتها للغزو الخارجي ، وأن يقدمها لقمة سائغة للفجار والكفار ، بل ومن نكد الدنيا أن نجد من أذكياء المسلمين من يقومون بخدمة نظم الكفر والطغيان ، ويرون أن ذلك أمر ضرورى لحماية المسلمين والدفاع عنهم .

الايجاب والسلب في الحركة الاسلامية المعاصرة

فى الوقت الذى تشتد فيه الأزمة وتزداد الحيرة في حياة الأمم ، تشرئب الأعناق الى سلم الانقاذ وسفينة النجاة ، ولكن حياة الاضطراب ووسائل الضغط والفوضى والارتجالية التى تعيشها الأمة أثر الهزيمة فى ميادين الحياة المختلفة ، لاتدع مجالا للتفكير ولا سبيلا للتخطيط . ولذا نرى كل فرد يسأل أين النجاة ؟ ولكنه يجد أجوبة مبهمة لاتشفى غليلا ولاتروى ظمأ .

ومن حق الأمة علينا أن نقف وقفة متأنية لنتبين مواقع أقدامنا ، علنا ندرك معالم المستقبل ونتخذ من الماضى عبرة ومن الحاضر عظة نسترشد بها فى حياتنا ، وفى بناء الأجيال القادمة إن شاء الله .

إن أمتنا الاسلامية فى عصرنا الحالى ، قد نشأ فيها إثر الهزيمة تياران : أحدهما إسلامى والآخر جاهلى .

١ ــ التيار الاسلامى اتجه للاصلاح عن طريق العاطفة الدينية ، واشعل جذوة الحماس فى قلوب الجماهير مستغلا بذلك وجود الاستعمار العسكرى والسياسى والثقافى فى البلاد الاسلامية . وقد نشأ فى هذا الاتجاه مدرستان ، إحداهما لجمال الدين الأفغانى وهى تنادى بالاصلاح عن طريق الحكم ، ولقد كانت أحاديثه وتوجيهاته تدور حول كشف آثار الاستعمار فى الشعوب الاسلامية وتوضيح ضررها فى التوجيه الفكرى والتوجيه الروحى والاقتصادى والاجتماعى ، وكان رحمه الله يهتم بتزكية روح الجهاد فى نفوس المسلمين ، لأنه كان يرى ضرورة الثورة على الاستعمار

الغربى فى غير هوادة ولين ، اذ أنه كان يعتقد أنه سبب البلاء للمسلمين .

وقد كان يستنهض همم المسلمين دائما للتخلص من نير الأجنبى ، ومن ذلك قوله : (مع أن دينهم — دين المسلمين — يرسم عليهم أن لايدينوا لسلطة من يخالفهم بل الركن الأعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبى عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذى شوكة فى شوكته هل نسوا وعد الله بأن يرثوا الأرض وهم عباد الله الصالحون) ؟ .. ويقول فى موضع آخر مخاطبا المسلمين : (هذه دياركم وأعراضكم وعقائدكم دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسا فقد رأيتم أنه أفسد شئونكم وأقلق راحتكم ووهب بلادكم لأعدائكم وأضر بمنافعكم العامة وقصد الى التدخل فيما يختص بأموركم) .

مذهب الدهريين

ولم يكتف جمال الدين بمحاربة الاستعمار فقط ، بل وجه حربا شعواء الى مذهب الدهريين ، ويرى أنه أساس انحراف الجماعات البشرية فى مختلف أدوار التاريخ ، ويرى أن المذهب الطبيعى قد برز فى صور متعددة :

مذهب أبيقور فى الشعب الأغريقى
مذهب مزدك فى الشعب الفارسى
مذهب الباطنية فى الجماعة الاسلامية

ثم يقول بعد ذلك : إن حياة الشعب الأغريقى فسدت بإباحية المذهب الأبيقورى ، وكذلك فسدت الحياة فى الشعب الفارسى عندما تأثرت بمزدك والمسلمون عندما دخلت عليهم الباطنية بمذهبهم فى القرن الرابع الهجرى ، أفسدت حياتهم ، وهو يرى أن ضعف المسلمين ابتدأ حقيقة منذ ظهور الباطنية والعقائد الطبيعية أو الدهرية ، وليست الحروب الصليبية هى بداية هذا الضعف . وأمارته ، بل كانت إحدى نتائج هذا الضعف ، وهذه العقائد هى إذن التى مهدت لهذه الحروب الصليبية وكذا لحرب التتار .

ثم يتحدث عن الدين الاسلام فيقول : إنه فى مقدمة الأديان من حيث حاجة البشرية اليه ، لأن له مزايا ليست متوفرة فى دين آخر .

أولا : صقل العقول بصقال « التوحيد » وتطهيرها من لوث الأوهام ، وذلك يحول دون اعتقاد أن كائنا من الكائنات له تأثير نفع أو ضر ، كما يحول دون اعتقاد أن الله يظهر بلباس البشر أو حيوان آخر ، أو أن تلك الذات المقدسة نالت شديد الألم لمصلحة أحد من الخلق ، كما توجد تلك الأوهام فى ديانات براهما فى الهند وبوذا فى الصين وزرادشت فى بقايا الفارسيين .

ثانيا : سحق امتياز الأجناس وتفاضل الأصناف ، وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلى والنفسى لاغير ، فالناس انما يتفاضلون بالعقل والفضيلة ، وقد لانجد من الأديان مايجمع أطراف هذه القاعدة ، فالبرهمية قسمت الناس الى طبقات ، واليهودية فضلت إسرائيل على بقية الشعوب .

ثالثا : جعل العقيدة قائمة على الاقتناع لا على التقليد ..

رابعا : نصب المعلم ليؤدى عمل التعليم وأقام المؤدب الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر .

ومما تقدم يتبين لنا أن حركة السيد جمال الدين الأفغانى وإن كانت سياسية فى ظاهرها الا أنها اهتمت ، بجوانب الاصلاح الداخلى ، وبيان أن الاسلام هو أساس إصلاح الأمة وانقاذها مما هى فيه ، وعلى مبادئه يجب أن يقوم الاصلاح .

مدرسة الشيخ محمد عبده

والمدرسة الثانية للشيخ محمد عبده ، وهى تنادى بالاصلاح عن طريق تربية الجماهير تربية اسلامية . ويتمثل منهج الاصلاح لدى الامام فى جانبين : أحدهما نظرى والآخر عملى .

أ ــ النظرى . ويشتمل على عدة أمور :

١ ــ تحرير المفاهيم .

٢ ــ اصلاح اللغة .

٣ ــ التحرير من عقيدة الجبر .

٤ ــ التحرير من التقليد .

٥ ــ فتح باب الاجتهاد .

٦ ــ تحرير الكتاب من مخلفات عصر الجمود .

٧ ــ احياء التراث الاسلامى .

٨ ــ محاربة الحزبية المذهبية .

ويقول الشيخ محمد عبده بشأن الهدفين الأولين (وارتفع صوتى بالدعوة الى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفها الى ينابيعها الأولى ، واعتباره ــ الدين ــ ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه ، وقد خالفت فى الدعوة اليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم .

أما الأمر الثانى فهو اصلاح اللغة .

وفى الأمر الثالث يقول : « ومن مميزاته (أى الانسان) حتى يكون غير سائر الحيوانات ــ أن يكون مفكرا مختارا فى عمله على مقتضى إرادته ، فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته ولو سلب شىء منها لكان إما ملكا أو حيوانا آخر والغرض أنه انسان » .

ثم يقول عن عقيدة الجبر : « وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر .. ثم يقول : الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة

الجرأة والاقدام وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الأسود »

والذى يراجع ما كتبه الأستاذ الامام يجد ماأجملناه فى جانب الاصلاح مفرقا فى كتبه وفى مقالاته ودروسه فى الأزهر ، ولعلنا نجمل هنا الأسس التى وضعها لتفسير القرآن كما يراها الدكتور البهى . اذ يقول : ويقوم منهجه فى تفسير القرآن على هذه الأسس التالية :

١ ــ إخضاع حوادث الحياة القائمة فى وقته لنصوص القرآن إما بالتوسع فى معنى النص أو بحمل الشبيه على الشبيه .
٢ ــ اعتبار القرآن جميعه وحدة واحدة متماسكة لايصح الايمان ببعضه وترك بعض آخر منه كما أن فهم بعضه متوقف على فهم جميعه .
٣ ــ اعتبار السورة كلها أساسا فى فهم آياتها واعتبار الموضوع فيها أساسا فى فهم النصوص التى وردت فيه .
٤ ــ إبعاد الصنعة اللغوية عن مجال تفسير القرآن وإبعاد تفسيره عن أن يجعل مجالا لتدريب الملكة اللغوية .
٥ ــ عدم إغفال الوقائع التاريخية فى سير الدعوة الى الاسلام عند تفسير الآيات التى نزلت فيها .

وفى جانب الاصلاح العملى يقول عن الحكم :

« وهناك أمر آخر كنت من دعاته والناس جميعا فى عمى عنه وبعد عن تعقله ، ولكنه هو الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وما أصابهم الوهن والضعف والذل الا بخلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وان وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم وأنه لايرده عن خطئه ولايوقف طغيان شهوته الا نصح الأمة له بالقول والفعل .

أساس الاصلاح الحقيقى

ويرى الامام أن أساس الاصلاح الحقيقى إنما تكمن جذوره فى التربية الاسلامية فهو يرى أن « الناس فى كل الأمم أكفاء فى التمثيل ولا نقص فى الدنيا الا من جهة العقول والأخلاق ، وهى لاتكمل الا بالتربية ، وما وراء ذلك من العلوم لايبث فيها غير القلق والهذيان » . ثم يقول :

«.. والسبب فى فقر البلاد وعدم سريان روح التربية الشرعية العقلية التى تجعل إحساس الانسان بمنافع بلاده كإحساسه بمنافع نفسه ، وشعوره بأضرار وطنه كشعوره بأضراره ذاته إن لم نقل تجعل الاحساس الأول أقوى من الاحساس الثانى » .

ويرجع سبب خذلان المسلمين الى نفس السبب حيث يقول : «.. إذا استقرينا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب الخذلان لانجد الا سببا واحدا وهو القصور فى التعليم الدينى ، إما باهماله جملة كما هو فى بعض البلاد ، وإما بالسلوك اليه من غير طرقه القويمة كما فى بعض آخر » .

بيد أن الشيخ لم يستطع أن يحقق مايريده فى الجانب العملى ، وان كان قد نجح الى حد ما فى تحقيق بعض مايراه فى الجانب النظرى ، ولاشك أن ذلك لايرجع الى قصور فى نظر الشيخ أو ضعف فى الهمة ، وانما هذه الآمال الضخمة يجب أن يتوفر عليها أجهزة ضخمة من رجال مخلصين فى أنحاء العالم الاسلامى .

وقد تبعت المدرستان حركات إصلاحية فى العالم الاسلامى ، لاتزال آثارها ممتدة الى اليوم .

ومما لاشك فيه أن هذا التيار قد نجح الى حد ما فى سبيل تهيئة الجماهير لقبول الاسلام كحل وحيد لا بديل له فى انقاذ الأمة ، ولكنه ارتطم بعقبات شديدة حطمت الكثير من قواه وأضاعت الكثير من مكاسبه ، وما يؤخذ على هذا الاتجاه ، عدم استيعابه لأساليب العصر الحديث :

أ ــ فالعصر الذى نعيش فيه هو عصر المؤسسات التى تعتمد فى حياتها على التخطيط العلمى المنظم وفق دراسات ميدانية ، مع مراعاة لتقييم العمل والمداومة على تطويره بصفة مستمرة .

ب ــ عدم القدرة على تشخيص المشكلات المزمنة والتيارات الوافدة ، خاصة وأن الأمة ورثت الجمود والتخلف الذهنى لأسباب كثيرة يطول شرحها ، كما هجمت عليها تيارات عديدة إلحادية من جهات مختلفة ، وقد أدى هذان العاملان الى عدم وضوح الرؤية لدى الجماهير والى السلبية فى كثير من الأمور .

جـ ــ إغفال عنصر الزمن كجزء أساسى فى عملية البناء الاجتماعى على أسس إسلامية .

د ــ لم يضع هذا التيار فى حسبانه التكتلات السياسية والاقتصادية العالمية ، وكذا المذاهب والنحل والعقائد التى تسيطر على العالم ، وكل هذه ترى فى الاسلام خطرا يهدد كيانها فلابد من القضاء عليه فى مهده .

هـ ــ هناك أجهزة غير مرئية تحكم العالم من خلف ستار ، وأجهزة مرئية تمهد أو تسوغ للصفقات التى تعقد فى الظلام وتهيىء الرأى العام لقبولها ، وتتحكم فيه كما تشاء ، ومن ثم فان الغفلة التى تسيطر على بعض من يتصدون لقيادة التيار الاسلامى تعتبر غفلة قاتلة .

تحذير من العقبات

ولسنا هنا نحطم أركان العمل الاسلامى أو نزعزع الثقة فى القائمين عليه أو نهون من جهادهم ولكننا ننبه الى بعض العقبات التى يجب إدراكها ووضع الحلول المناسبة لها :

٢ ــ التيار الجاهلى : وهذا التيار يرى أن الأمة قد هزمت بقوة الحديد والنار وبالأساليب المكيافيلية ، فلابد أن تحارب أعداءنا بنفس القوة وبذات الأسلوب ، وطرح هذا التيار من حسابه مسألة العودة الى الاسلام ، فالأعداء لم يتغلبوا علينا بمبادىء دينية بل بالعكس نجد عندهم الالحاد والاباحية والتنكر لقيم السماء ، ومع

ذلك فلهم الغلبة ولنا الهزيمة ، فلنسر فى نفس الطريق وسوف نحقق من وراء ذلك النصر المؤزر وقد نشأ عن هذا التيار عدة اتجاهات منها : التقدمية ، الاشتراكية ، الشيوعية ، القومية .

وتقوم هذه التيارات المشبوهة على أساس من العلمانية فى الجانب الفكرى ، وعلى أساس من فصل المغرب العربى عن المشرق العربى فى الجانب السياسى ، وقد ألف نجيب عازورى كتابه « يقظة الأمة العربية » فى سنة ١٩٠٥ ، وكانت دعوته تتلخص بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، كما أنه طالب بمملكتين عربيتين ، فى آسيا واحدة ، فى سورية الطبيعية ، والأخرى فى شبه الجزيرة العربية ، مع احترام استقلال لبنان الذاتى .

وهو يرى أن حدود الأمة العربية تشمل جميع البلدان الناطقة بالضاد فى آسيا دون بلدان مصر وشمال افريقية ، فمصر فى نظره وشمال أفريقيا ليست من العروبة بمكان .

وتبعه فى ذلك الذين خدعوا بالشعارات والمبادىء الهدامة التى طرحت على الساحة العربية فى غيبة الاسلام عن المجتمع .

وقد وجدت هذه التيارات من يغذيها من الخارج ، باعتبارها مسامير صلبة تدق فى النعش الذى يعد للاسلام ، كما وجدت من يدعمها فى الداخل من الطوائف غير الاسلامية والفرق الاسلامية التى تحللت من ربقة الاسلام .

ومما لاشك فيه أن النشاط التبشيرى القائم على الارساليات التبشيرية والمدارس التعليمية والاستشراق[1] كان يستهدف بالدرجة الأو[illegible] الجو للتيار الجاهلى

(٢) الحركة التبشيرية كانت تهدف إلى احلال الايمان النصرانى مكان العقيدة المسلمة وحركات الاستشراق على تنوعها كانت تهدف الى تشويه صورة العقيدة الاسلامية وفكرها ولم يكن التلازم دائما ــ منهجا ومخططا ــ بين الحركتين ، المجلة .

وإعطائه السلاح القوى الذى يستطيع إشهاره فى وجه التيار الاسلامى ، وهو يعمل ذلك بدافع من الحقد الصليبى الأعمى ، وبهدف ابقاء الدول الاسلامية تحت وطأة الاستعمار الغربى . يقول صاحب كتاب « الاسلام على مفترق الطرق » فى حديثه عن الاستشراق : (... الا أن الشر الذى بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح ، ولكنه كان قبل كل شىء وفى مقدمة كل شىء شرا ثقافيا ، لقد نشأ تسمم العقل الأوربى عما شوهه القادة الأوربيون من تعاليم الاسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة فى الغرب) .

ثم يقول أيضا : (لا نجد موقف الأوربى موقف كره فى غير مبالاة فحسب ، كما هى الحال فى موقفه من سائر الأديان والثقافات عدا الاسلام ، بل هو كره عميق الجذور يقوم فى الأكثر على صدود من التعصب الشديد ، وهذا الكره ليس عقليا فقط ولكنه أيضا يصطبغ بصبغة عاطفية قوية ، قد لاتقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ولكنها تحتفظ دائما فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلى متزن ومبنى على التفكير ، الا أنها حالما تتجه الى الاسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفى فى التسرب ، حتى أن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمى فى كتاباتهم عن الاسلام) . والمعروف أن الكثير من المستشرقين خبراء فى الشئون السياسية يتبعون وزارات الخارجية فى الدول الأجنبية أو المؤسسات الكنسية ، لذا فان مهمتهم ليست علمية خالصة كما يزعمون ، بل إنها تهدف الى تقويض الاسلام فى نفوس معتنقيه وتقليص نفوذه فى المجتمع ، ولقد سيطرت عليهم فكرة خبيثة مؤداها أن محمدا عليه الصلاة والسلام ليس رسولا ، وأن القرآن من عنده وهو يمثل البيئة الجاهلية أصدق تمثيل لدى البعض ، أو هو صدى لما يعتمل فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم لدى البعض الآخر ، وأن أفكاره الأساسية مأخوذه من الديانتين اليهودية والمسيحية ولكن تأليفه من عند محمد نفسه .

يقول المستشرق نيكلسون فى كتابه الصوفية فى الاسلام : « والقارئون للقرآن من الأوربيين لاتعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه وهو محمد وعدم تماسكه فى معالجة كبار المعضلات ، وهو نفسه لم يكن على علم بهذه المتعارضات كما لم تكن حجر عثرة فى سبيل صحابته الذين تقبل ايمانهم الساذج القرآن على أنه كلام الله ،

ولكن الصدع من هنا وجد وسرعان ما أظهر نتائج بعيدة الآثار » .

ويقول صاحب مستقبل الثقافة فى حديثه موضحا الطريق الذى يجب أن نسلكه فى سبيل نهضتنا ، (ولكن السبيل الى ذلك واحدة فذة ليس لها تعداد وهى أن نسير سير الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ولنكون لهم شركاء فى الحضارة خيرها وشرها حلوها ومرها مايحب منها ومايكره وما يحمد منها وما يعاب ، فاذا كنا نريد الاستقلال العقلى والنفسى الذى لايكون الا بالاستقلال العلمى والأدبى والفنى ، فنحن نريد وسائله بالطبع ، ووسائله ان نتعلم كيف يتعلم الأوربى ولنشعر كما يشعر الأوربى ولنحكم كما يحكم الأوربى ونعرف الحياة كما يعرفها) .

ولقد كان لهذه الأفكار تأثير كبير فى انصراف كثير من الشباب عن دينهم واعتناق البعض منهم مبادىء وفلسفات تتناقض تناقضا كاملا مع الإسلام .

أين الطريق ؟

ويؤخذ على هذا التيار عدة أمور :

١ ــ أنهم أغفلوا الناحية الاسلامية من الوجود علما بأن العرب قبل الاسلام لم يكونوا شيئا يذكر ، ولكنهم بالاسلام كانوا كل شىء .

٢ ــ الحقائق التاريخية ، فالعرب لم يتحدوا فى تاريخهم الطويل ، ولم ينتصروا الا فى ظل الاسلام ، ولم يتفرقوا وينهزموا الا فى بعدهم عن الاسلام .

٣ ــ لم تنشأ حضارة فى العالم من فراغ ، فلم يحدثنا التاريخ أن أمة من الأمم قطعت صلتها بماضيها وتنكرت له ، وبدأت تشق طريقها بعيدا عن تاريخها القديم .

٤ ــ العصبية داء العرب الموروث من قديم ، وقد استطاع الاسلام أن يحطم هذه النعرات الجاهلية بفضل تعاليمه السمحة ، وحين نحى الاسلام عن المجتمع بدأت تظهر العصبية من جديد ، ولن يتحد العرب والمسلمون الا تحت راية الاسلام .

٥ ــ الفراغ الموجود فى نفسية الفرد وفى حياة الجماعة ، هذا الفراغ الروحى الهائل ، لايمكن ان تملأه المذاهب المادية المعاصرة ، لأنها أفلست فى بلادها ، ولا يمكن

أن تملأ التيارات الجاهلية الموجودة فى ديارنا ، وحسبك أن تنظر الى أدعيائها لترى النفعية والأساليب الميكافيلية والمؤامرات والقتل ، وغير ذلك من الأساليب الخسيسة التى يندى لها جبين الانسانية .

٦ ــ فشل هذا التيار حتى الآن فى إيجاد قاعدة صلبة له من الجماهير ، تستطيع أن تتحمل أعباء الجهاد وأعمال البناء وتكون نماذج صالحة للانسان الفاضل الذى يضحى بنفسه وماله فى سبيل أمته ، ويتمسك بقيم ثابتة سامية فى حياته الخاصة والعامة .

وبين هذين التيارين توجد فئات متدينة ، لا يهمها أمر الاسلام أو يعنيها مشاكل المجتمع ، كما توجد فئات غير متدينة تعيش على هامش الحياة ، لايهمها الا مصلحتها الشخصية ولاتكترث بالأمة أو بأحوالها .

كما أن التيار الاسلامى لايتمثل كل أفراده حقائق الاسلام فى سلوكهم ، وقد يوجد فى هذا التيار من ينطوى على نفسية مريضة تجعله أقرب الى التيار الجاهلى منه الى التيار الاسلامى .

كما أن التيار الجاهلى قد يوجد من بين أدعيائه رجال فيهم النجدة والحمية ، ولكنهم نشأوا فى بيئات ضالة أو وقعوا تحت تأثير تيارات خبيثة ، ولم يكن عندهم الحصانة الكافية التى تحميهم من الاندفاع فى هذا الطريق المنحرف ، وقد يكون من هؤلاء الناس لو يسرت لهم الثقافة الاسلامية والبيئة الصالحة ، لكانوا من أكثر الدعاة الى الله تحمسا واندفاعا الى الحق .

ولهذا فاننا نجيب عن السؤال الذى طرح أولا أين الطريق ؟

فنقول إن الطريق الوحيد الذى لابديل له هو إيجاد جيل يحمل عبء الاصلاح وتبعة تحرير الأمة .

ولابد أن يتفرغ لهذا العمل رجال نذروا أنفسهم لله ، وتجردوا عن متع الحياة

وعن هوى النفوس ، وأن يكون عندهم من سعة الأفق وقوة الارادة وغزارة العلم وطهارة القلب مايمكنهم من حمل رسالة الاصلاح ، وأن يكون عندهم من فقه الاسلام وفهم حقائقه وإدراك طبيعة النفس البشرية وأساليب العصر ، مايمكنهم من السير بسفينة المجتمع الى بر النجاة .

وسائل الضبط الاجتماعي

إن الاسلام يصوغ المسلم صياغة كاملة ، بحيث يربي فيه الخشية من الله عز وجل ويعطيه المبررات التي تجعله يضحي بكل مايملك في سبيل أداء رسالته ، وتلك المبررات تتمثل في تحقيق رضوان الله والفوز بالنعيم الأبدى في دار الخلود ، ولكي ينجح المجتمع المسلم في تحقيق رسالته ، وضع الاسلام قواعد تنير الطريق وتهدى وتقضي على نوازع الشر ، فحرم كل ما من شأنه أن يعود بالضرر على المجتمع الانساني وأمر المسلمين بالمحافظة عليها ، وأساس التحريم يرجع الى حفظ الضرورات الخمس : وهي الدين والنفس والعرض والمال والعقل ، ثم وضع عقوبات دنيوية وأخروية لحفظها ورعايتها .

إن أحكام الشريعة الاسلامية وما بها من قواعد تنير الطريق ، وتهدى السبيل وتقضي على الشر ونوازعه ، كفيلة باسعاد البشرية في الحال والمال .

من تكريم الله للانسان دون سائر الحيوان ، أن كلفه وخصه بالتدين ، ولابد أن يسلم له اعتقاده ، وأن تتوافر له حرية الاعتقاد ، وقد قرر الاسلام هذه الحرية إذ يقول الله جل شأنه : « **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي** » وقد اعتبر الفتنة في الدين أشد من القتل فقال تعالى : (**والفتنة أشد من القتل**) وقال جل شأنه : (**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين**) كما قال سبحانه (**وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله**) .

تتحقق حماية النفس بحفظ حق الحياة الكريمة ماديا بما يحقق لها الحفظ والرعاية بجميع طرق الحفظ وأدبيا بما يحقق الكرامة والحرية ، ويمنع الاعتداء على أى أمر

من الأمور التي تتعلق بها ، وبعد من مقومات حياتها كحرية العمل والفكر وحرية الاقامة ، وغير ذلك من عدم اثارة الفتن أو السعي بالفساد بين الناس ، الأمر الذى يقضي على الروابط الاجتماعية بين الناس ، في حين أن حماية النفس ورعايتها في التعاون والترابط بين أفراد المجتمع .

كذلك تقضي أحكام الدين بالمحافظة على النفس البشرية ومنع الاعتداء عليها من الغير . كذلك يحرم اعتداء الشخص على نفسه بالانتحار ، أو القتل لقوله تعالى : (**ولاتقتلوا انفسكم إن الله كان بكم رحيما**) .

وتقوم هذه الحماية على أساس المحافظة على الأعراض ، وقصد الشريعة الاسلامية واضح حينما أباحت الزواج ، وحرمت الزنا ، لأنه بالزواج تنشأ الأسرة وهي الخلية الأولى فى المجتمع التي تتكون في ظلالها العواطف الاجتماعية الراقية من مودة ورحمة وحنان وحب وايثار ، ولولا الأسس القائمة على الزواج الذى أباحه الله لما نشأ المجتمع الانساني السليم النظيف ، ولما أخذ طريقه الى الرقي والكمال ، فلا عجب إذا ما رأينا الاسلام يحرم الزنا لما فيه من اعتداء على الاعراض واختلاط الأنساب ، وفيه مضيعة للأسر وتفكك للروابط وجناية على النسل ، اذ أن المولود من الزنا لن يجد من يرعاه أو يحافظ عليه ، فينشأ عالة على المجتمع الذى نشأ فيه يهدده في كل وقت وحين .

وتكون هذه المحافظة بمنع الاعتداء عليه بالسرقة أو الغصب أو السلب أو النهب أو غير ذلك .

كما تكون بالعمل على تنمية ووضعه في أيد أمينة تصونه وتقوم على رعايته ، والقيام بحقه ، وقد وضعت الشريعة الغراء الأحكام المنظمة لذلك ، والعقوبات الخاصة بهذه الجرائم ، ولقد حافظت الشريعة على المال لأنه من ضروريات الحياة التي لايمكن للانسان العيش بدونها ، إذ أنه وسيلة التبادل والحصول على مطالب الحياة من مسكن وملبس ومأكل ومشرب ، جاء في الحديث « من قتل دون ما له فهو شهيد » .

ولقد كرم الله الانسان بعقله ، وبه فضله على باقي مخلوقاته ، وبه نعبده في الأرض ، وكانت التكاليف الشرعية ، اذ جعل مناط التكليف العقل ، فيه يفكر ويعقل ، ويعرف النافع من الضار والخير من الشر ، فاذا ما اعتدى على هذا العقل بسكر يخامره ويغيبه أصبح وجوده كعدمه ، اذ أن المجنون يرى البعيد قريبا والقريب بعيدا ، ويذهل عن الواقع الذى يعيش فيه ويتخيل ماليس واقع واقعا ، ولذلك أمر الله بالمحافظة على العقل الذى اختص به الانسان ، وحرم الاعتداء عليه بما يضره من تناول المسكرات أو المخدرات ، وذلك لأن الانسان إذا ما أصيب بآفة في عقله أصبح عبئا على المجتمع ومصدر شر وأذى على الجماعة .

على أساس ما فصلناه من أسس حرصت عليها أحكام الشريعة الغراء للحفاظ على الضرورات الخمس ، تتجلى لنا الغاية من العقاب في الفقه الاسلامي ، فلقد شرع الله العقاب على الجريمة لمنع الناس من اقترافها ، وذلك لأن النهى عن الفعل أو الأمر باتيانه لايكفي وحده لحمل الناس على الفعل أو الانتهاء عنه ، ولولا العقاب لما أثمرت الأوامر والنواهي ثمرتها المرجوة .

ولذلك اعتبرت أحكام الشريعة بعض الأفعال جرائم وعاقبت عليها لحماية الفضيلة وحفظ مصالح الجماعة لتقوم على الأخلاق الفاضلة .

فالغاية من العقاب أمران :

أحدهما : حماية الفضيلة وحماية المجتمع من أن تتحكم الرذيلة فيه .

والثاني : المنفعة العامة أو المصلحة ، وما من حكم في الشريعة إلا وفيه مصلحة للناس ولذا يقول الله جل شأنه (**يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين** »

ويقول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم : « لاضرر ولا ضرار » .

روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله ، فقد ضاد الله في أمره » ، وفي الصحيحين ، عن عائشة رضي الله عنها « ان قريشا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد ، فقال : « يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله ؟ إنما هلك بنو إسرائيل أنهم كانوا إذا سرق منهم الشريف تركوه ، واذا سرق منهم الضعيف أقاموا عليه ، والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وروى الامام مالك في الموطأ أن جماعة أمسكوا لصا ليدفعوه الى عثمان — رضي الله عنه — فتلقاهم الزبير فشفع فيه فقالوا : إذا رفع الى عثمان فأشفع فيه عنده ، فقال : إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفع ، يعني الذى يقبل الشفاعة .

وروى أصحاب السنن أن صفوان بن أمية كان نائما على رداء له في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء لص فسرقه ، فأخذه فأتى به النبى صلى الله عليه وسلم — فأمر بقطع يده ، فقال : يارسول الله : أعلى ردائي تقطع يده ؟ أنا أهبه له ، فقال : فهلا قبل أن تأتيني به ؟ ثم قطع يده .

يعني صلى الله عليه وسلم أنك لو عفوت عنه قبل أن تأتيني به لكان ، فأما بعد أن رفع اليّ فلا يجوز تعطيل الحد ، لايعفو ولا بشفاعة ولابهبة ولاغير ذلك .

وفي سنن أبي داود والنسائي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « تعافوا الحدود فيما بينكم ، فما بلغني من حد فقد وجب » . ولايجوز أن يؤخذ من الزاني أو السارق أو الشارب أو قاطع الطريق ونحوهم ، مال تعطل به الحدود ، لا لبيت المال ولا لغيره ، وهذا المال سحت خبيث ، واذا فعل ولي الأمر ذلك فقد جمع فسادين عظيمين :

أحدهما : تعطيل الحد .
ثانيهما : أكل السحت .

التدرج في علاج النفس البشرية

للاسلام منهج خاص فى علاج النفس البشرية ، يرعى فيه الضعف البشرى وتأصل العادات فى النفس بحكم الزمن ، وبحكم التكوين الخلقى ، ويوائم بين ذلك وبين القيم المثالية التى يجب ان تتصف بها بحكم الاستخلاف فى الأرض ، وبحكم النفحة القدسية التى حلت فى هذا الغلاف الترابى ، فهو فى الوقت الذى يضع فيه المنهج لاستئصال شأفة الداء ، يأخذ بعين الاعتبار التدرج فى المعادلة باعتبار الزمن جزءا حتميا للعلاج .

المثال صفة الشح لما لها من أهمية خاصة فى موضوعنا الذى نتحدث عنه .

لقد كانت هذه الصفة راسخة فى المجتمع الجاهلى ، ومتغلغلة فى أعماق النفوس البشرية ، قد يقول قائل إن مجتمع الجاهلية مجتمع بدوى يغلب عليه الكرم ونحن نقول : إن هذا الكرم الذى شاع لم يكن مرتبطا بقيم انسانية إذ ما الفائدة من كريم يأكل حقوق الضعفاء ، ويستغل حاجة المحتاجين ليقيم الولائم الضخة ليتحدث عنه الركبان بما يرضى غرور نفسه ، ويحقق له جانبا من جوانب الاعزاز بالذات وهى خلة جاهلية .

ولكى يستأصل القرآن شأفة هذه الخلة من النفوس جاء القرآن بالتنديد بالصفات الناجمة عن الشح وبيان خطورتها :

١ ــ « **كلا بل لاتكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما** » .

٢ ــ **أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدعُ اليتيم ولا يحض على طعام المسكين »**

٣ ــ **خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فأسلكوه إنه كان لايؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين »**

فأنت ترى الآيات السابقة وكلها مكية تهدف الى خلخلة هذه الصفة فى نفوس الأفراد :

فالآيات الأولى تعدد الجرائم الخلقية التى تسود المجتمع الجاهلى ، وهى جرائم نتجت عن صفة متأصلة هى صفة الشح فى نفوس الأفراد .

فعدم إكرام اليتيم وعدم القيام نحوه بواجب الرعاية والعناية أو المحافظة على ماله إن كان غنيا وتوجيهه لطريق الخير ليكون عضوا نافعا فى الأمة ، إهمال ذلك كله من صفات المجتمع الجاهلى .

وإهمال المساكين بعدم سد حاجاتهم وحل مشاكلهم خاصة الجوع لأن الجوع من أخطر الجرائم التى ترتكب فى المجتمع الاسلامى ، وسواء أكان إهمال المساكين من جانب الأغنياء بعدم البذل ، أو من جانب أهل الرأى بعدم القيام بواجب نصح الأغنياء وتنمية الدولة والرأى العام ، فان ذلك يعتبر جريمة فى حق المساكين .

وأكل المال بدون تفرقة بين كونه حلالا أم حراما ، واندفاع الناس فى حب المال الى درجة العبادة ، ذلك كله من صفات المجتمع الجاهلى التى يجب أن يبرأ منها المسلمون فى ظل مجتمعهم الجديد .

أما الآيات الثالثة فانها تعرض لنا صورة العذاب الذى أعده الله لأولئك الذين اتصفوا بصفات المجتمع الجاهلى وهى صورة منفرة ، إنها صورة لحقيقة واقعة فى الدار الآخرة ، وهى صورة مجرم مقيد بالسلاسل الضخة يؤخذ رغم أنفه ويقذف به فى

النار . ثم تبين الآيات حيثيات الجريمة ، إنه كان لايؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ، إنها عقاب لمظاهر التكذيب بالدين الذى عرضته الآيات السابقة .

ثم تأتى المرحلة الثانية هى مرحلة النهى عن الاتصاف بالصفات السابقة ، فنجد القرآن ينفر المسلمين من صفة البخل ، وهو تنفير يقتضى النهى عن هذا الخلق الذى يتسبب فى الكثير من الجرائم .

قال تعالى فى صورة الليل :

« وأما من بَخِلَ واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسره للعسرى »
فالبخل قرين التكذيب بالآخرة ، وما أعد فيها للعاصين من عقاب — أى أنه قرين الكفر .

وبجوار ذلك فإننا نجد القرآن يرغب فى السور المكية أيضا بالانفاق .. ففي سورة السجدة نجد قول الله تبارك وتعالى :

« تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون »
إنها صورة الايمان الكامل الذى يدفع بأصحابه الى هجر مضاجعهم والتوجه اليه بقلوبهم وجوارحهم لعبادته ، وابتغاء مرضاته بالانفاق مما رزقهم الله عز وجل .
ونقرأ أيضا فى سورة القصص قوله تعالى فى صفة المؤمنين :
« أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون » .
وفيها بيان صفات المؤمن الصادق الصابر المنفق فى سبيل الله .
وهكذا نجد أن القرآن فى علاج صفة الشح فى النفوس ، أخذ فى خلخلة هذه الصفة فى نفوس الأفراد الذين انتقلوا من الجاهلية الى الاسلام عن طريق التنديد بها والتحذير منها ، ثم الترغيب فى صفة أخرى تحل محلها ، وهى صفة الانفاق فى سبيل الله عز وجل .

ثم تأتى المرحلة الثالثة وهى مرحلة الالزام بالانفاق فى سبيل الله ، وقد كان الانفاق فى المراحل السابقة متروكا للمشيئة الفردية :

« ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو »
وهو يترك للفرد حرية الانفاق ببذل كل مازاد عن حاجته .

أما فى مرحلة الالزام — لكل فرد — فانه يحدد نسبة معينة هى الزكاة ، وهى نسبة يراعى فيها الظروف النفسية والمعيشية بالنسبة لمختلف الأفراد ، ثم يترك الباب مفتوحا أمام ذوى النفوس الأبية لينفقوا من العفو ما يشاءون .

ومما لاشك فيه أن هذه المراحل الثلاث ، يبرز فيها منهج الاسلام النفسى فى معالجته لأخطر أدواء النفس البشرية وهى فى نفس الوقت توضح لنا منهج الاسلام الاجتماعى فى تطويره للمجتمع .

ففى الوقت الذى تختفى فيه صفات المجتمع الجاهلى وتنحسر عن واقع المجتمع يحل محلها صفات المجتمع الاسلامى ، وتبرز الى واقع الحياة عن طريق الممارسة والتطبيق العملى لمبادىء الاسلام .

المجتمع الفاضــل

الاسلام يهدف الى إقامة مجتمع فاضل ، تقوم الأواصر فيه بين أبنائه على دعائم روحية ، هى الايمان بالله والحب لله ، والاخلاص والتجرد ، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام مبينا هذه الروابط الانسانية : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى »[1] .

وهى تقوم كذلك على المنافع المادية والمصالح المشتركة لتحقيق الرفاهية والخير لأبناء المجتمع الاسلامى ، « الخلق عيال الله وأحب الخلق الى الله أنفعهم لعياله »[2] . وفى الحديث أيضا « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم »[3] أما المجتمعات التى تقوم أواصر بينها على المنفعة المادية وحدها فانها مجتمعات أشبه بالأنقاض المتراصة التى لايربط بين أجزائها أى رابط ، ولذا فان هذه المجتمعات تتبعثر أجزاؤها عندما تثور العواصف الهوجاء أو تتعرض لتيارات براقة من المبادىء الزائفة .

أما المجتمع الاسلامى فانه برغم مايتعرض له فى تاريخه الطويل من محن ، فان أجزاءه مرتبطة مع بعضها برباط الإيمان بالله والحب فى الله عز وجل . وقد عمل الاسلام على تربية الأفراد تربية اسلامية كاملة فى مختلف مجالات الحياة الثقافية والروحية

(١) رواه مسلم وأحمد عن النعمان بن بشير

(٢) رواه البيهقى فى شعب الايمان من ثلاثة طرق كلها ضعيفة

(٣) ضعيف ذكره صاحب التمييز وقال لايصح قلت ومعناه صحيح

والاجتماعية والمادية ليكون الفرد المسلم متكامل الشخصية ، فيأتلف مع المجتمع الفاضل الذى يمثل النموذج المثالى لغيره من المجتمعات ، ويبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المثالية بقوله : « ان لله عبادا ماهم بأنبياء ولاشهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانهم من الله يوم القيامة قيل ومن هم يارسول الله قال : قوم تحابوا بروح من الله على غير أرحام تربطهم ولا أموال يتعاطونها **والله إنهم لنور وإنهم لعلى نور** ، **ولايحزنون** اذا حزن الناس ولايخافون اذا خاف الناس « **ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون** »[1] . هذه الروابط التى تقوم بين أفراد المجتمع المؤمن وأهمها رابطة الحب فى الله ، وهى أغلى مايملكه المسلمون وأهم مايحرصون عليه لأنها لاتقدر بثمن مهما غلى ، « **لو أنفقت مافى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم** » . ومع أن الاسلام يهتم كثيرا بايجاد هذه الرابطة ويجعلها الأساس الذى تقوم عليه وحدة الأمة الا أنه يرى أن أفراد المجتمع يختلفون فيما بينهم ، فمنهم اللين الوديع الهادىء ، ومنهم الصامت الذى يعيش فى المجتمع دون أن يشعر به أحد ، ومنهم الهوائى القلق الذى تستبد به الأوهام ، ومنهم الحاد الطبع الذى يستثيره الآخرون لأول وهلة ، ومنهم الهادىء الأعصاب السوى الخلقة ، ومنهم الشرس العنيف الصلب العنيد ، ومنهم الساذج السليم الفطرة ، ومنهم الخبيث اللئيم ، وبعض هؤلاء تنزع نفوسهم الى اقتراف الاثم ولايتأثرون فى سلوكهم بحقائق الايمان بالله ، والحب لله ، فلو تركناهم وشأنهم شاعت المنكرات وانتشرت الآثام ، وهبت الفوضى واننا نحاسب عن فعل غيرنا إن لم نقومه ، لأن السكوت عنه يعتبر إقرارا له روى البخارى عن النعمان بن بشير « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا فى سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين أسفلها اذا استقوا الماء مروا على من فوقهم ، فقال الذين فى أعلاها لاندعكم تصعدون فتؤذونا ، فقال الذين فى أسفلها لو أننا خرقنا فى نصيبنا ولم نؤذ من فوقنا ، فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا جميعا » ، ولذا فان الاسلام لم يكتف بعنصر التربية لاقامة المجتمع . بل شرع ثلاث وسائل لتقويم المنحرفين وللمحافظة على قيم المجتمع المثالية . وهى اليد واللسان والقلب : يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع

(١) رواه الإمام احمد بغير هذا السياق ورجاله كلهم موثقون إلا شهر بن حوشبا وفيه ضعف

فبقلبه، وذلك أضعف الايمان»[1] .

فالوسيلة الأولى : وهى اليد خاصة بالامام لأنه حاكم المسلمين ورجال الشرطة لأنهم أداة السلطة التنفيذية ، وقد أوجب الاسلام حماية الأصول الخمسة ، وهى النفس والدين والمال والعقل والنسل فالعقوبات التى فرضها الاسلام ، انما هى لحماية المجتمع من الشرور والآفات التى تفتك بالمجتمع وتروع الآمنين ، والاسلام يؤمن كل فرد فى المجتمع على حياته ودمه وعلى قوته وصحته ، وفى الحديث « اذا أصبحت معافى فى جسدك آمنا فى سربك عندك قوت يومك فقد حيزت لك الدنيا بحذافيرها »[2] .

وواجب السلطة التنفيذية تطبيق شريعة الله وتنفيذ العقوبة التى افترضها الاسلام لصيانة المجتمع وأمنه وفى الحديث « حد يعمل فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحا »[3] .

والسلطة التنفيذية تنفذ حكم الله على كل فرد من أفراد المجتمع ، لافرق فى ذلك بين قريب وبعيد ، ولابين قوى وضعيف ، وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها « أن قريشا أهمهم شأن المخزومية التى سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله فقالوا : ومن يجترىء عليه الا أسامة بن زيد قال يا أسامة أتشفع فى حد من حدود الله ؟ انما هلك بنو اسرائيل أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

الوسيلة الثانية : التغيير باللسان وهذا واجب العلماء ، وأجهزة الاعلام ، وكل من يستطيع أداء هذا الواجب من خاصة المسلمين وعامتهم ، وهو واجب يتوجب

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى سعيد الخدرى

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه عن عبد الله بن محصن باسناد حسن

(٣) رواه النسائى وابن ماجه عن أبى هريره رضى الله عنه باسناد حسن

عليهم لكل المسلمين ففى الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « الدين النصيحة قالوا لمن يارسول الله قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين » .

ويشترط الاسلام فيمن يتصدى للنصيحة عدة شروط أهمها :

١ ـــ أن يفعل ماينصح الغير به فتكون نصيحته بالقدوة الحسنة فى سلوكه قبل أن تكون بالكلمة الطيبة فى قوله ، يقول الله عز وجل (**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لاتعلمون** » .

٢ ـــ أن يكون أسلوبه مهذبا رقيقا فى أداء النصيحة يقول الله عز وجل فى شأن موسى وهارون عليهما السلام حين أرسلهما الى فرعون « **فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى** » .

٣ ـــ أن لايريد الناصح بنصيحته إحراج الغير أمام الناس ، فقد قال العلماء « النصيحة على الملأ فضيحة » .

٤ ـــ أن تكون النصيحة خالصة لوجه الله مبرأة من الهوى مجردة عن الغرض « **اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** » .

والاسلام يفرض على أتباعه وجود طائفة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتعتبر هذه الطائفة هى النواة الأساسية لايجاد رأى عام إسلامى يحمى كيان الأمة .

الوسيلة الثالثة : هى التغيير بالقلب : وهى مهمة العامة والجمهور وليس التغيير بالقلب معناه أن ترى المنكر أمامك فتحوقل ثم تلوذ بالصمت وأنت تشاهد المنكر ، إن هذا ليس تغييرا بل إنه إقرار للمنكر بل المراد بالتغيير الذى هو أضعف درجات الايمان المقاومة السلبية الأدبية ، بحيث يشعر الآثم بأنه مسىء مجرم ، وأنه كم مهمل فلا يشعر منك بالمجاملة التى كان يلقاها قبل ذلك ، بل لابد أن يشعر بتغيرك عليه واحتقارك لعمله الآثم « **فان عصوك فقل إنى برىء مما تعملون** » وقد أمر الله رسوله باعلان التبرؤ من أعمالهم لا التبرؤ منهم لأن التبرؤ منهم قطع لكل الصلات الانسانية ، أما التبرؤ من أعمالهم فانه يبقى على العلاقات الانسانية ليعاود إرشادهم

ونصحهم أما الذى يشارك من يرتكبون المنكرات بالجلوس معهم والتودد اليهم بالتزاور أو المجاملة فانه يشاركهم فى الاثم « **وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزؤ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم اذن مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا** »[1] .

فقد جعل الجلوس مع المستهزئين الكافرين الذين يستهزئون بآيات الله جريمة لاتقل أثرا عن جريمة الكافرين أنفسهم ، أما ترك الجلوس معهم والتبرؤ منهم والإعراض عنهم فانه مقاومة للشر وكبح لجماح الأشرار ، ولو أن كل فرد فى الامة قاوم الباطل الذى تفشى فى المجتمع كل فى حدود طاقته لما سرت عدوى الجرائم فى الأمة ، ولا استعلى المنكر ولأصبح المجتمع الاسلامى مجتمعا سليما معافى من هذا البلاء .

---

(١) النساء آية ١٤٠

الفصل الرابـع

صياغة العقلية الاسلاميـة

كيف نصيغ العقلية المسلمة

لكي ندرك مايجب علينا لصياغة العقل المسلم صياغة كاملة ، لابد أن نقدم نماذج للتصور القرآني لهذا الوجود ، فالله عز وجل يبين لنا القواعد الأساسية للنشاط الحضارى الفعال ، وهو نشاط لابد أن يكون منظما وفق أهداف محددة ، وان يشتمل على قواعد التطور التي تساعده على الوصول الى الهدف المنشود ، يقول الله عز وجل (**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ، وله من في السموات والأرض ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون**) ، ونلاحظ في قوله تعالى (**الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور**) .

إن الهدف هو العمل الصالح وهو يتحقق بعمارة الأرض وتحقيق العدل وإقامة البنيان الحضارى فى إطار عبادة الله سبحانه وتعالى ، وقد أوضحت الآية الأخرى في قوله عز وجل (**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز**) .

فالقسط وهو العدل ، يبين لنا أن الهدف من انزال الكتب وارسال الرسل وخلق هذا الانسان ، هو تحقيق العدل والجهاد في سبيل الله (**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد**) وتحقيق الخير في الاطار الحضارى السليم لكل البشر (**ومنافع للناس**) وفي سبيل تحقيق ذلك أعد الله الانسان إعدادا تاما لأداء هذا الدور كما أعد الأرض

وهيأ الوجود كله ليساعده على ذلك ، فلم تشأ القدرة الإلٓهية أن تمهد العالم تمهيدا كاملا حتى لايعيش الانسان في دائرة السلبية المطلقة ، كما أنها لم تجعل العالم على درجة كاملة من التعقيد بحيث يعجز الانسان عن الاستجابة والابداع ، بل جعل الطاقات الموجودة في الكون على درجة بين السهولة والتعقيد ، بحيث يثير طاقات الانسان وتحدث فيه التوتر الكامل لكى يؤدى رسالته في هذا الوجود قال تعالى **(ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن يُنَزِّلُ بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير ، وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد)** .

« مهمة الانسان »
هي الخلافة عن الله في الأرض

لقد منحه الله القدرة على التعلم والاستيعاب والفعل والابداع ، وكرمه بأن أسجد له الملائكة وجعل طريقه واضحا بانزال الهدى الالهي وإعطائه الارادة الحرة ، التي تساعده على الحركة في هذا الوجود ، وجعل أمامه معوقات منها الشيطان وجنده ونفسه التي بين جنبيه وغرائزه التي زود بها ، وعن طريق العقل وتعاليم السماء يستطيع الانسان أن ينظم حركته في هذا الوجود .

المنهاج الالهـي

الدين الاسلامي هو المنهاج الشامل الذى وضعه عالم الغيب والشهادة ، والذى يعلم مايصلح الانسان ومايفسده ، والانسان مكلف بأن يتحرك في هذا الوجود وفق مبادئه وقيمه ومخططاته وأهدافه ، وحركة الانسان وفق هذا المنهج هي العبادة التي فرضت عليه ، فاذا انحرف عنه أو تنكر له فانه يعيش في ضياع ويفقد القدرة على أداء مهمته التي نيطت به ، وعمل الانسان اذا سار وفق هذا المنهج فانه ولاشك يبدّع النموذج الحضارى المثالي الذى يحقق للبشرية هدفها المنشود ، وعلى الانسان المسلم الذى حقق قيم الاسلام المثالية في نفسه وفي مجتمعه الذى يعيش فيه ، أن يقوم بالدعوة الى مبادىء الحق التي اعتنقها وآمن بها ، وأن يقوم انحراف

المنحرفين الذين يخططون للافساد في الأرض ، والوقوف في وجه الاسلام (**وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله**) .

واذا كان الانسان قد أعطي حرية تساعده على أداء رسالته ، فان حريته محدودة بنواميس الكون الكبير التي تحيط به ، فهو لم يختر الزمان والمكان اللذين جيىء فيهما الى الدنيا ، وعند خروجه منها ، وكذلك هو لايستطيع أن يرفض البعث ولا الحساب عند الله في الدار الآخرة ، ولا ان يساق الى جنة أو نار وفق الحساب العادل ، ومن ثم فان الانسان وإن اعطي إرادة حرة الا أنها تظل في إطار محدد في هذا الوجود على ظهر هذا الكوكب الأرضى .

ومن هنا فان الاسلام يضع المقياس السليم لحضارة الانسان ، فهي إما أن تتوافق مع المنهج الإلٓهى وتنسجم مع نواميس الكون ، وإما أن تخالف ذلك الأمر الذى يترتب عليه تمزق بشرى شامل وشقاء انساني في الدنيا ومصير سيىء في الآخرة .

فالنشاط الحضارى في نظر الاسلام هدفه تنظيم طاقات البشرية وتوجيهها الى الخير لتحقيق الهدف المرسوم ، وحفظها من الانزلاق الى السفوح الدنيا التي تهبط بالانسان عن مستواه الانساني .

الحضارة الاسلامية

الحضارة الاسلامية لها ملامح أساسية نستطيع أن نجملها فيما يأتي :

أولا : العمل والابداع ، أكد القرآن على العمل وأورده في آيات كثيرة فيما يزيد على الثلاثمائة وخمسين موضعا ، وذلك لأن العمل هو المحور الأساسي الذى يقوم عليه وجود الانسان في الدنيا والآخرة ، كما أنه المقياس العادل الذى يترتب عليه النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة والخسران فيهما معا .

ثانيا : يعتبر الايمان من أهم العوامل لأنه يمتد افقيا ليوحد الجماعة ، ويمتد رأسيا

في قلب الانسان ليوحد شخصيته ويفجر طاقاته ، وهو بذلك يعتبر المفاعل المحرك لقوى الفرد وطاقات الجماعة ، وقد أشار القرآن الى هذين العاملين . يقول تعالى (**والعصر إن الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**) .

ثالثا : مجابهة التخريب والافساد : إن إصلاح الأرض وإعمارها وإن تحقيق العدل وجعل كلمة الله هي العليا يستوجب توجيه كل الطاقات الاسلامية لحماية البناء الحضارى الاسلامي ومقاومة الفساد . قال تعالى (**أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانٍ خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين**) . وقال تعالى (**لايزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا**) وقال تعالى (**فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض الا قليلا مما أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**) .

رابعا : يهتم الاسلام بالتوازن بين الجانبين المادى والروحي ، والعلمي والعملي في حركته من اجل البحث والتنقيب عن السنن والنواميس الإلّهية في كل ماتصل اليه يد الانسان في هذا الوجود ، وقد انعكس هذا التوازن بين قيم الروح والمادة بوضوح كامل خلال مسيرة الحضارة الاسلامية ، ولم يهمل جانب على حساب الجانب الآخر إلا في فترات الانحدار الحضارى ، وذلك بسبب الاهتداء بتعاليم الكتاب الكريم ، فالانسان المسلم يربط بين سنن الله في كونه وبين عظمة الله سبحانه وتعالى وقدرته وحكمته فيزداد بذلك إبداعا في الجانب الحضارى .

إن كل آية في القرآن تتحدث عن شيء من الطبيعة ترتبط ذلك بفاعلية الله عز وجل ، ينعكس اثر ذلك على الانسان بالتقوى والاحسان ، وبالتالي يتم توازن حقيقي في شخصية الانسان فيسمو بنفسه على الصغائر ، ويعيش في كنف الله متحصنا بحصنه المنيع ، وبذا يتضح لنا أن الانسان المسلم له هدف أعلى هو الله وله قيم تحكم سلوكه هي أكثر سموا من تركيز النشاط الانساني في مجرد اشباع الغرائز يقول الله تعالى (**ذلك متاع الحياة**

الدنيا والله عنده حسن المآب) .

خامسا : النزعة التحررية : لقد حرر الاسلام الانسان من الضلالات والأوهام كما حرره من الخوف والجهل والخضوع لغير الله ، كما حرره كذلك من الفوضى والتسليم للصدفة العمياء ، وبصره بقوانين الحركة والعمل في هذا الوجود ، وهو يشمل الكون والعالم والتاريخ البشرى ، ولهذا فانه حرم عليه كل مايصطدم مع هذا التحرير قال تعالى (**قل إنما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)** .

إن كبت الغرائز هو تزوير للموقف الانساني في الأرض ، وان الشرك بالله هو أخطر تزوير ، وان الخوف والاضطراب والجهل والأمية في الانسان ، هو خطر داهم يهدد الانسان بالفشل في أداء رسالته .

سادسا : الانجاز الحضارى ليس هدفا نهائيا : إن الحياة الحقيقية هي الحياة الأخرى التي تتميز بالبقاء والدوام التي كتب فيها للانسان الخلود المطلق ، وانما الدنيا وسيلة فحسب لتهيئة المناخ المناسب لانجاز مهمة الاستخلاف في الأرض والاعداد للحياة الباقية (**وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وأن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون)** .

إن نسبية التجارب البشرية وعدم دوامها لاتبدوان فقط بعرضهما على مطلقات الآخرة وخلودها ، وإنما من خلال حركة التاريخ البشرى ، كذلك الحركة الدائمة التي ترفع وتخفض وتقدم وتؤخر .

العلم والعمل

العمل الناجح يحتاج الى تأصيل نظرى وممارسة عملية ، ونتيجة تتناسب مع المقدمات ، والى عملية نقد دائبة ومشكلة المسلمين اليوم في هذه المجالات الثلاثة تحتاج الى مراجعة دقيقة كي يستبين الطريق الواضح ، وسط الظلمات المدلهمة التي تخيم على الأجيال المعاصرة .

إننا نجد القرآن الكريم يؤكد على أهمية العلم ، والعلم في نظر الاسلام ، يعني العلم بحقائق الوجود الذى نعيش وبحقائق الاسلام الذى نعتقده ، ولايكفي مجرد المعرفة بل لابد أن ينفعل المسلم بهذه الحقائق وان تتسرب الى وجدانه . قال تعالى « **إنما يخشى الله من عبادة العلماء** » .

إن الاسلام يعطي تصورا عاما لرسالة الانسان ، ولهذا الوجود الذى نعيش فيه وبذلك يضع ركائز هامة في شخصية الإنسان للاستقرار النفسي ، الذى يساعد الانسان على النجاح في حياته ويأخذ بيده عن طريق الفكر الى اليقين بالتدبير الإلّهي لهذا الكون العظيم ، وبالايمان بصفات الجمال والكمال للذات الإلّهية .

ويطلب الاسلام من المسلم العمل بمقتضى هذا الايمان ، وللعمل المقبول شروط منها ، أن يكون مشروعا ، ومنها أن يكون خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى ، ومنها الديمومة بحيث لايعيش متأرجحا بين المنكر والمعروف بل يصر على عمل المعروف ويبتعد عن المنكر قدر طاقته ، أما خطأ الاجتهاد فهو معفو عنه اذا صلحت النوايا ، وخطأ العمل نتيجة الضغوط التي يتعرض لها الانسان سواء كانت نفسية أم اجتماعية

أم مادية مع التوبة والاستغفار ، وعدم الاصرار على الخطأ (فهي من الأمور التي نرجو من الله فيها العفو والمغفرة) .

ثم يتأتى بعد ذلك النتيجة التي تترتب على ذلك ، فكل عمل لابد أن يتبعه نتيجة والنتيجة هنا ذات شعب ثلاث ، شعبة توطد صلة الانسان بربه « **ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم** » واخرى تؤثر على شخصية الانسان بالتكامل والسوية « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين** » وثالثة تقوى علاقة الانسان بأخيه المسلم وتنمي بذور المحبة وتقوى أواصر القربى الروحية « **إنما المؤمنون أخوة** » .. تلك هي الأسس التي وضعها الاسلام لصياغة شخصية الانسان المسلم لتحقيق رسالته في الحياة ، فاذا وجدنا المسلم يعيش هامشيا في هذا الوجود فلابد من عملية تقييم جادة لتلك الأسس ، والذى نستطيع أن نلاحظة بشكل سريع بالنسبة للتأصيل النظرى لقضية الاسلام ، أن نسبة الأمية في المجتمع المسلم تزيد على ٧٥٪ من المسلمين ، فاذا أخذنا نسبة ٢٥٪ وهي نسبة المتعلمين ، وجدنا أن ٢٤٫٥٪ منهم تقريبا تأثروا بالمناهج العلمانية عن طريق المناهج العلمية لمختلف العلوم ، والتي تسود العالم حاليا والمتدين منهم انما هو بحكم الفطرة أو بمحض الصدفة ، وهي نسبة قليلة ، أما نسبة ٠٫٥٪ وهي نسبة الذين درسوا العلوم الاسلامية ، وهم أقل بكثير من هذه النسبة ، فان الكثير منهم وضع في قوالب محددة بحيث يعيش في عصر غير عصره ، كما أن بعضهم ليس مؤهلا نفسيا لهذا العمل ، وهناك سلبيات كثيرة في إعداد الدعاة ولاشك ، فاذا حاولت أن تجد دعاة على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم فانك لاتكاد تجد الا عددا محدود لايكاد يصل الى نسبة واحد في المليون بأى حال من الأحوال ، فاذا انتقلنا الى مجال العمل ، فاننا نجد أن العمل بشقيه التعبدى والدنيوى يكاد يخلو من المضمون والمحتوى ، فالعبادة هامشية لاتؤثر في السلوك والعمل المعاشي هامشي لايحقق النتائج المرجوة ، والعملان التعبدى والمعاشي وجهان لعملة واحدة ، واذا أدركنا أن النتائج تتبع العمل ، وان تلك هي سنة الله في هذا الوجود ، وعلمنا أن الطاقات البشرية معطلة في الفرد وكم مهمل لدى الجماعة ، بل إن مجتمع المسلمين يكاد ينفرد عن غيره بوجود عوامل كثيرة مرئية وغير مرئية تستهدف تبديد طاقات الأمة ، أدركنا السبب الحقيقي لعدم فعالية المجتمع المسلم المعاصر .

إن سنة الله في هذا الوجود لاتتغير ، وأن مهمة المسلم ليس التصادم مع سنته ، وإنما استخدام هذه السنن للوصول الى النتائج المرجوه ، إن قانون الجاذبية سنة من سنن الوجود الكوني ، وضعته يد القدرة الإلّهية لحماية الانسان من التيه في هذا الوجود ، وظل الانسان خاضعا له طوال حياته ، ولكن مع التقدم العلمي ، استطاع أن يستخدمه بما يحقق أغراضه ، فأصبح يحلق في الفضاء ، ويتنقل بين الكواكب دون أن يصطدم بها ، وسنة الله في اعتلاء مسرح الحضارة لقيادة البشرية هي في وضوح الرؤية للعمل الجاد المبني على أسس علمية في مختلف المجالات وتقييم النتائج المترتبة على ذلك وتركيز عملية النقد البناء على هذه المراحل الثلاث بشكل دائم .

السلوك الفعال للمسلم القرآني لايتم تربيته داخل المدرسة المعاصرة ، لأن المناهج الموجودة في المجتمع الاسلامي لم تمنح هذا السلوك الفاعلية التي كانت للمسلم الأول ، وكذلك الأمر بالنسبة للمعاهد الدينية فهي لم تعد الإعداد الكافي لوضوح الأفكار القرآنية ، والتفاعل معهم لتشكيل التحرك القرآني لصناعة المجتمع .

ومن هنا فان على المسلمين أن يبحثوا بشكل جاد وسريع ، الكيفية التي يتم بها إعداد الأفكار القرآنية وتسلسلها بحيث تتناسب مع الطفل منذ ولادته الى أن يلقى الله ، واعداد الاطار الاجتماعي الثقافي الذى يحيط بالفرد بحيث يشكل الفرد في محيطه .

فالمدرسة وحدها لاتكفي للاعداد المطلوب لأنها جزء من الكل الذى يسيطر على الانسان ، فالبيئة بمثابة الرحم للناحية الثقافية للانسان ، حيث انها تتكون من كل الأشياء التي تحيط به من المهد الى اللحد ، أو بمعنى آخر نستطيع أن نقول إن الثقافة هي كالبيئة المكونة من الألوان والحركات والمناظر والصور والأفكار والعادات والتقاليد التي تتمثل في المجتمع ككل ، في البيت في المدرسة في الشارع في النادى في أجهزة الاعلام المختلفة ، في المسجد . وفي هذه البيئة يصنع كل أفراد الشعب من الفيلسوف الى الحارس حيث تمارس ضغوطها عليهم ويتشكلون في اطارها .

وكما يتشكل الكيان العضوى للانسان فى إطار البيئة المادية كذلك يتكون العقل داخل اطار البيئة الثقافية التي تحيط به أو بمعنى أوضح أن الانسان لايتلقى الثقافة كما يتلقى التلميذ المنهج المقرر داخل المدرسة ولكنه يتنفسها ملء رئتيه أينما حل وحيثما كان .

ولكي تنجح الأمة لابد أن تقوم باعداد البيئة الثقافية الملائمة لرسالتها ، والتي تتفق مع تاريخها الطويل ، إذ لايمكن أن تقع الأمة عن ماضيها ولا عن رسالتها ، لأن ذلك يؤدى الى تدمير كيانها الداخلي والخارجي ، اذ الأمة كالانسان سواء بسواء ، يحكمه ماضيه ، وحاضره امتداد له ومستقبله امتداد لواقعه الذى يعيش فيه .

ومشكلة اعداد الثقافة ليست أمرا سهلا ، لأنها تقتضي القيام بعمليتين متوازيتين في وقت واحد

الأولى ــ الهدم

والثانية ــ البناء

ذلك لأنه وصل الينا من فترة العقم الحضارى الذى أصاب الأمة أمراض مزمنة توطنت في المجتمع الاسلامي ، كما وفد مع الغزو الاستعمارى ثقافات وأمراض طارئة سيطرت على الأمة إبان محنتها .

وقد اجتمع على أمتنا هذان الأمران :

الأول : فيه خرافات تمثل الجمود الفكرى والمرض النفسي الذى أصاب الأمة .

والثاني : فيه انحرافات ثقافية وسلوكية .

والمشكلة في الانحراف الفكرى أنه يقيم مع الانسان حوارا منذ ميلاده ويستمر حتى الشيخوخة ، لأنه ينتقل من منطقة الشعور الى منطقة اللاشعور ، حيث يشكل كيانا حيا يسيطر على فكره وسلوكه وينطبع في ذاتيه ويشارك في تكوين شخصيته .

أما عملية البناء فانها تقتضي بذل مجهود ضخم في استيعاب الحقائق الاسلامية من كتاب الله وسنة رسوله وازالة ماعلاها من غبار وتقديمها باسلوب سهل يتناسب مع واقع المسلمين ، ثم دراسة التاريخ الاسلامي وبيان الجوانب الايجابية

والسلبية فيه وتنقيته تنقية كاملة من الشوائب ، وابراز الدروس المستفادة منه ، ثم تنسيق ذلك مع مستحدثات العصر في المجال العلمي والتقني لتكوين إطار عام يحكم سلوك المجتمع ، ويتعمق وجدان الأفراد ، ويشكل الكينونة الجديدة للانسان المسلم .. على أننا يجب أن ندرك أن الأسلوب العملي لتحطيم السلبيات والتخلص منها هو الأسلوب الناجح الذى يسهل طريق اقامة الكيان الجديد وهذا هو مافعله ابراهيم عليه السلام عندما قام بدعوة التوحيد ونشر لواء الاسلام في البيئة التي بعث فيها ، اذ لم يكتف بالدعوة الى الله فقط وإقامة الحجة على صدق دعواه وإنما سارع الى أخذ فأس وحطم الأصنام ليزيل العقبة امام دعوته ، على أن هذا العمل بشقيه الايجابي والسلبي لايجوز أن يؤخذ على أنه أمر معصوم لايقبل الخطأ ، إذ أنه في الواقع يظل في إطار دائرة الاجتهاد ، لأن استنباط الأفكار وترتيب الأولويات وتعداد السلبيات واختيار التوقيت المناسب والأسلوب الذى يتفق مع واقع الأمة ، كلها أمور يجتهد فيها العلماء المخلصون وهي قابلة للخطأ والصواب .

ومن هنا ، فانه يجب أن يضم الى ذلك أسلوب النقد الذاتي وايجاد مناخ الحرية الكامل يمارس فيه الأفراد حرية الكلمة وحرية النقد ، وذلك لأن البيئة تشكل إرغاما اجتماعيا على الانسان ، والنقد يحرره من الخطأ الذى قد ينطوى عليه هذا الإرغام ، وبذا تتم عملية تشكيل العقل فى إطار سوى سليم .

الشباب عدة الأمـم

يوجد صراع مرير بين الأمم المختلفة فى الناحية العقائدية ، ممثلا فى المذاهب والنظم والأديان التى تسود العالم ، كما يوجد صراع حول الثروات الاقتصادية ممثلا فى استغلال المواد الخام وتصنيعها ، وفتح الأسواق الاستهلاكية أمام الدول المستغلة .

ويضاف الى ماتقدم الصراع حول الثروة البشرية واستغلال الانسان لصالح المنافع الاقتصادية أو العقائدية على حد سواء ، ولاشك أن الصراع حول الثروة البشرية هو أخطر ألوان الصراع قاطبة ويقدر ثراء الأمة بمقدار ماتملك من أرصدة بشرية .

ويعتبر الشباب المنتج المستقيم هو العملة الصعبة التى تتسابق الأمم على حيازتها فى توفير كل ما من شأنه أن يعاونه على اجتياز هذه المرحلة بسلام ، ذلك لأن الشباب له دور من أدوار الحياة التى يمر بها الانسان فى مراحل حياته المختلفة . وهو أهم هذه المراحل جميعا لما يتميزه من تطورات جسمية وعقلية ونفسية فى غاية الأهمية ، دفعت الكثير من علماء الحياة والنفس والدين والتربية الى اجراء بحوث مختلفة حول هذه التغيرات ، وخرجوا منها بنتائج هامة متفقة على أنه فى هذه المرحلة يتقرر مصير الانسان .

ولذا فقد اهتمت الدول قاطبة بالشباب ، إن فى توجيهه أو إن فى توفير كل ما من شأنه أن يعاونه على اجتياز هذه المرحلة بسلام .

إن من يلقى نظرة عامة على الانقلاب الجذرى الذى يحدث للانسان فى تلك المرحلة ، يجد أن هذا الانقلاب يسير فى اتجاهات كثيرة مختلفة منها :

(أ) **الجسمية** : كامتداد القامة ويظهر الشعر فى أماكن مختلفة من جسمه ، ويشعر بتدفق الدم وسريان الحيوية فى جسده ، مما لم يكن يشعر به قبل ذلك ويواكب ذلك تحرك الغريزة الجنسية فى جسده وفق سلسلة مترابطة من التغيرات الجسمية .

(ب) **النفسية** : يمر الانسان فى تلك المرحلة بثورة نفسية لعلها أعمق من الثورة الجسمية ، لما يصاحبها من انفعالات حادة ، ولما فيها من تطلع نحو الرجولة وتعشق للبطولة وما يوازيها من اضطرابات عاطفية نحو الجنس الآخر ، وما يصاحبها من خجل وإقدام أو إحجام ، نتيجة للمبادىء والقيم التى تحكم الأسرة والمجتمع الذى يعيش فيه الانسان .

(ج) **العقلية** : تنتقل المواهب العقلية فى هذه المرحلة نقلة كبيرة حيث تنمو قدراته الذهنية نموا كبيرا ، ومن الحقائق المقررة الآن أن الذكاء التجريدى ينمو فى هذه المرحلة ليؤهل الناشيء لدراسة العلوم النظرية ، كما تظهر قدرته الذهنية على الرفض والقبول والنقد للآراء المختلفة .

ومما يضطرب له كثيرا علماء الأخلاق ورجال التربية ، ظهور النزوع الى الناحية الخلقية حيث يعجب الناشيء بمظاهر التضحية والفداء ، ويتعشق ألوان البطولة وهذا الاعجاب يتكون عنه احترام القيم والتمثل بها والدعوة اليها .

ولذا فانه يعجب كثيرا بقراءة قصص الأبطال ويتأثر بهم تأثرا كبيرا .

وتنمو كذلك قوة الخيال فيعجب بألوان القصص والأساليب الأدبية الفنية

التى تشبع فيه هذه الناحية ، وتلبى رغباته ، وكثيرا ما يتصور نفسه يقوم بهذا الدور البطولى أو ذاك ، ويهتم علماء التربية والدين بذلك الثراء الذهنى ، والتفتح لنمو الجانب الخلقى وتمتاز هذه المرحلة بظاهرتين :

(**الأولى**) ظهور روح التدين الذى ينبع من أغوار النفس البشرية فى عصر الشباب .

(**الثانية**) لنزوعه الى الحرية والاستقلال .

تتفق نتائج البحوث التى قام بها بعض علماء النفس على الشباب فى هذه المرحلة على حقيقة أساسية هامة ، وهى أن مرحلة الشباب أكثر من أى مرحلة أخرى بالنسبة لظهور الشعور الدينى الأصيل فى الفرد ، ولاينكر هؤلاء العلماء أن ظهور التدين قد يكون فى فترة الطفولة أو الرجولة ، ولكن الذى يؤكدونه أن فترة الشباب هى فترة التفتح الدينى القوى المنبثق من أغوار النفس البشرية ، وهو انما يحصل فى العادة فى زمن البلوغ .

(وليس ثمة شك أو ارتياب فى أن هذه الظاهرة تحدث تحت تأثير عوامل مختلفة ، فالتربية والبيئة والنمو الجسمى والعقلى ، لها فى هذه الظاهرة آثارها التى لاسبيل الى إنكارها) .

يقول علم النفس الدينى ، إن ظاهرة الاهتداء أو التحول الى الدين تحدث أكثر ماتحدث بين العاشرة والخامسة والعشرين من عمر الشباب ، ويرى (استاربك) أنه اذا لم يحدث تحول دينى قبل العشرين فقلما يحدث بعد ذلك ، اما (كو) فينتهى بعد دراسة ١٧٨٤ حالة ، الى أن العمر العادى الذى تحدث فيه ظاهرة التحول الدينى الحق ، هو سن السادسة عشرة . أما (استانلى هول) فبعد أن درس أكثر من أربعة آلاف حالة يقرر أن التحول الى الدين حدث أكثر ماحدث فى سن السادسة عشرة ، ثم يورد ملاحظات رجال الدين العاملين فى ميدان الدعوة فاذا بها تؤيد الحقيقة الآنفة الذكر .

وبجوار ذلك الامتياز يوجد جانب آخر هو الترك الدينى الذى يعتبر من المعالم الرئيسية لفترة الشباب ، وهو يأتى نتيجة القصور فى التربية الأسرية أو المدرسية أو الاجتماعية أو هذه الأسباب مجتمعة ، وعلى المحيطين بالشباب فى هذه المرحلة أن يدركوا حرج ودقة موقفه ، اذ أنه يتميز بتوهج عاطفته وتوقد ذكائه وكثرة تطلعاته وكثرة شكله الذى قد لايستطيع أن يفصح عنه وقد يؤدى ذلك الى كارثة ، ان لم يجد بجواره من يساعده على اجتياز هذه المرحلة .

وفضلا عن ذلك ، فان الاتجاهات المضادة تركز كثيراً على الشباب ، وعلى ما تتميز به هذه المراحل من توثب وحيوية ، فتزين له الفساد . أما عن طريق الأفلام التى تمجد الجريمة أو تغرى بالجنس أو تحطم القيم الفاضلة فى نفسه أو عن طريق الصحافة الماجنة التى تدس السم فى العسل ، وتستخدم كل أساليب المكر والخديعة فى مختلف أبوابها للتوصل الى الهدف المنشود من إفساد الشباب وكسب الأرباح .

وإما بتهيئة وسائل الفساد عن طريق الحفلات الصاخبة فى النوادى والبيوت والأماكن المخصصة لذلك .

ويقابل ذلك التخطيط المدمر لأخلاق الشباب ، والذى تدبره من خلف ستار الصهيونية الماكرة للقضاء على التدين فى نفوس الشباب المسيحى والمسلم ليتسنى لها حكم العالم فى المستقبل . يقابل ذلك جوانب ضعف نلمحها فيما يأتى :

أولا : ضعف أساليب التربية الدينية :

والتربية الدينية تعتمد أساسا على المدرس والمنهج ، ويشترط فى مدرس الدين أن يلم بحقائقه إلماما كافيا ، وأن يلم بطبيعة العصر ، وأن يكون قدوة فى سلوكه ومظهره وأن يلم بطبيعة الشباب الدقيقة التى يمرون بها ، وأن يكون مؤمنا برسالته محبا لها ، وأن يكون متطورا فى أسلوبه فيعرض حقائقه بأساليب العصر ، فيستخدم الفيلم والصورة والكلمة المنطوقة والمكتوبة ، ويخرج معهم فى الرحلات ويشاركهم فى الاجتماعات ويصادقهم ويفتح لهم أبوابه ويقبل عثراتهم . ويشترط فى المنهاج أن لايتقيد

بالتفريعات العقلية التى يضعها رجاله وهم على مكاتبهم ، وانما يشترط فيه أن يلبى حاجات الشباب وتطلعاتهم ، وأن يرضى نفوسهم ، وذلك يتطلب معرفة كاملة بمرحلة الشباب ومشاكلها ومميزاتها ، وذلك كله غير موجود ، وإن توفر فى نفر قليل جدا من المدرسين ، فانه لايتوفر فى الكثرة منهم ، وأما من جهة المنهج فانه غير متوفر بشكل أكيد ، بل نستطيع أن نؤكد أنه لايوجد مدرس الدين المتخصص ولامفتش الدين المتخصص فى معظم البلاد العربية والاسلامية ، وسبب ذلك إما عدم إدراك المسئولين لأهمية الدين ودوره فى صناعة جيل المستقبل ، وإما أن يكون الهدف من ذلك هو السير وفق خطة موضوعة تهدف الى إبعاد الدين عن مصدر التوجيه فى الحياة كما هو الحال فى الاتجاه العلمانى الصهيونى .

ثانيا : دراسة العلوم الطبيعية والعقلية :

تهدف أساليب التربية الحديثة الى تعويد التلاميذ أساليب التفكير ، فهى تفترض فى التلميذ أن يعرض عليه المدرس الدرس فى صورة مشكلة ويتوصل هو عن طريق الحوار الى حلها ، ويستنتج منها الحقائق التى يريد المدرس أن يوصلها الى أذهان التلاميذ ويقرب من هذا تدريس العلوم الطبيعية ، فهى تخضع للتجربة والملاحظة والفرض واختباره والاستنتاج وهذه الطرق بشقيها فى العلوم العقلية والطبيعية ينتج عنها عقلية مرنت على التمحيص والنقد والشك والافتراض ، فهى لاتقبل الحقائق باعتبارها مسلمات أولية أو بدهيات عقلية ، فإذا جئت تعرض عليها الحقائق الدينية دون أن تأخذ فى الاعتبار الأسس العلمية التى يقوم عليها أسلوب التفكير العلمى الحديث فانك قد تخفق فى الوصول الى هدفك ، ولسنا نطالب الدعاة الى الدين بنقد المذهب الحسى أو الفلسفة الجدلية ، وإنما فقط أن يوضحوا للشباب أن العلم يتفق مع الدين فى أن هناك عالما مجهولا أضخم بكثير من العالم المحسوس الذى نعيش فيه ، وأن هذا العالم المجهول له قوانينه التى لاتنفع فيها القوانين الحسية فى عالمنا المادى ، وهذه أصبحت بدهية من البدهيات العلمية .

ثالثا : الحضارة المادية المعاصرة :

الشباب المسلم ينتمى الى أمة ذات حضارة راسخة لها قيم فى الحياة ولها رسالة

لهداية البشرية قاطبة ، ولكنه نشأ فى ظل حضارة مادية مظلمة ، ودينها المنفعة وقيمها فى أرصدة البنوك وألهها العلم المادى المحسوس ، وهى تقيس الانسان بمقدار مايحققه لنفسه من ملذات ومكاسب مادية محضة . ولايوجد فى مناهجنا التعليمية بشكل عام شىء يذكر عن الحضارة الاسلامية وقيمها ومبادئها وأسسها وموقفها من الحضارات الانسانية المختلفة ، بل إن ذلك غير واضح فى أذهان الكثيرين من رجال التخطيط التربوى فى البلاد الاسلامية .

ومن هنا فاننا نؤكد أن الشباب لهم العذر ، كل العذر ، فى أن يعيشوا بعيدين عن الدين لأنهم نشأوا على الانتماء لغير أمتهم وخطط لهم للابتعاد عن حضارتهم .

تعتبر فترة الشباب من أخطر الفترات فى حياة الانسان لما يحدث فيها من تفاعلات داخل النفس نتيجة للتغيير الجسمانى والنفسى والعقلى المتوثب ، ولمحاولة إنسان هذه المرحلة التكيف مع المجتمع الذى يعيش فيه باحثا عن ذاته ومكانته ، فى الوقت الذى لا يفسح له الكبار المجال لتحقيق هذه المكانة وإرضاء غروره الاجتماعى باثبات وجوده وفاعليته .

بينا تنازعه أحيانا بعض الأساليب من السلوك الصبيانى والتصرفات الفجة غير المقبولة منه ولا من غيره من الكبار وهو فى هذا محكوم بعاملين :

(١) **العامل الوراثى** : وهو يشمل القدرات والطاقات الجسمية والنفسية والعقلية .

(٢) **العامل الخارجى** : وهو يشمل الأنماط الثقافية السائدة فى المجتمع والمثيرات الخارجية المحيطة به .

الصراع النفسى

يغلب على فتى هذه المرحلة الانفعال ، وينتقل من حالة الى أخرى ، فهو

يتأرجح بين الجبن والتهور ، والغضب والاستسلام ، والواقعية والمثالية ، وبين التدين والكفر ، وبين اعتداده بذاته وخضوعه للمجتمع .

وهذا التأرجح راجع الى عدم الاتزان فى نموه خلال هذه المرحلة ، فبينما نجد أن دوافعه وانفعالاته تبلغ القمة ، نجد أن نموه العقلى لم يكتمل فى بداية المرحلة بالقدر الكافى الذى يمكنه من السيطرة على انفعالاته ، وهو يحتاج الى من يقف بجواره خلال هذه المرحلة ليساعده على الاتزان النفسى ، كما يحتاج الى مفاهيم جديدة عن الحياة والمجتمع والقيم وغير ذلك ، لأنه يعيش فى جوع نفسى وخواء عقلى يشعر بهما ولايستطيع الحديث عنهما ، ونسيان هذه الحقائق يعقد الأمور بالنسبة للشباب .

طريق الانقـاذ

إن طريق إنقاذ الشباب يكون فى مساعدتهم على تحقيق ذاتهم ومساعدتهم على ترويض دوافعهم وفق القيم التى جاء بها الاسلام الحنيف .

(أ) تحقيق الذات :

ان الاحساس بالسلبية أو الايجابية فى الحياة ينبع من رأى الآخرين فيه ومن قدرته على تحقيق فاعليته وإثبات نجاحه ، ولكى ينجح أبناؤنا فى حياتهم لابد أن نساعدهم على ادراك قدراتهم وأدوارهم فى الحياة ، وأن نحكى لهم نماذج مثالية ينسجون على منوالها ويقتفون أثرها ، وأن نشعرهم بالأمن والاحترام ، وأن يعاملوا معاملة الرجال فى المدرسة وفى البيت ومن افراد المجتمع الخارجى ، وأن نبتعد فى معاملتهم عن القسوة أو الإهمال أو الضعف .

توصيات عامـة

وهناك توصيات عامة فى معاملة الشباب يقدمها علماء النفس لمن يتعامل معهم نجمل بعضها فيما يلى :

١ ـــ التعبير عن الذات أمر ضرورى ، فلابد أن تتاح لهم الفرصة ليعبروا عن أنفسهم بما يرونه يحقق وجودهم ويثبت أهميتهم فى الحياة .
٢ ـــ الدفاع عن الذات أمر طبيعى ، لأنه يحقق الرغبة فى المحافظة على تكامل الشخصية ،
٣ ـــ اذا حدثت انحرافات فى الشخصية الى الجانب السلبى ، فان من الممكن التغيير الى الناحية الايجابية اذا توفرت الظروف الملائمة .

(ب) أثر القيم :

يعيش الانسان مضطربا بين عالمين : دوافعه التى تدفعه الى العمل والتحرر يساندها عزم الشباب وفتوته ، وبين قيود المجتمع وقوانينه فتزداد حدة التوتر الذى يسببه تصارع الدوافع والاتجاهات مع القيود الدينية والقيم الخلقية والمبادىء المثالية التى يدرسها أو يسمعها من غيره .

ولهذا فان الواجب أن يكون أهم شىء يعنى به رجال التربية ورجال الدين هو دراسة أنجح الوسائل التى تساعد على أن يقيم الشباب لنفسه نظاما من القيم الاسلامية يستمدون منه توجيه دوافعهم الى الخير ، وأن يزنوا كل سلوكهم بميزانه ولايكون ذلك الا اذا تحولت القيم الى السيطرة على بؤرة الشعور والتسرب الى العقل الباطن والجانب اللاشعورى للسيطرة عليه ، ثم تتحول الى سلوك عملى فى حياة الشباب فيصبح ذلك عادة مألوفة وسنة متبعة .

وسبيل ذلك أن يكرر الشباب العبادات الاسلامية والأخلاق الدينية بشكل فردى وجماعى ، وأن يكون ذلك هدفا مثاليا تدور حوله أفكارهم ، ويخلب ألبابهم باعتباره مثلا أعلى لهم فى الحياة .

ويذكر العلماء المسلمون قصة رمزية طريفه تدل على تحكم العادة فى حياة الانسان ، وتأثيرها فى مستقبل حياته ، ومجمل هذ القصة ، أن رجلين اصطحبا فى بعض الأسفار أحد الرجلين مجوسى من أهل كرمان والآخر يهودى من أهل اصفهان ، وكان المجوسى راكبا على بغلة وعليها كل مايحتاج المسافر اليه فى سفره من

الزاد والنفقة والأثاث وهو يسير مرفها ، اما اليهودى فكان يمشى ليس معه زاد ولانفقة ، فبينا هما يتحدثان إذ قال المجوسى لليهودى ما مذهبك وما اعتقادك يا هذا ، فاخبره اليهودى بأنه يعبد إلّها فى السماء عبده بنو إسرائيل وأنه يستعين به فى قضاء مصالحه ، وانه يريد منه الخير لنفسه ، ومن لا يوافقنى ومذهبى فحلال لى دمه وحرام على نصيحته ونصرته . ثم طلب من المجوسى أن يخبره عن مذهبه واعتقاده فقال له المجوسى ، اما اعتقادى ورأيى فهو أنى أريد الخير لنفسى ولأبناء جنسى كلهم ، ولا أريد لأحد من الخلق سوءاً لا لمن كان على دينى ، أو من كان يضادنى فى مذهبى فقال اليهودى وان ظلمك وتعدى عليك ؟
قال نعم : قال : لم ؟

قال لأنى أعلم أن فى هذه السماء إلّها خيرا فاضلا عادلا حكيما لا تخفى عليه خافية من امر خلقه ، وهو يجازى المحسنين باحسانهم ويكافىء المسيئين باساءتهم فقال اليهودى فلست أراك تنصر مذهبك وتحقق اعتقادك .

فقال المجوسى : كيف ذاك ؟

قال اليهودى : لأنى من أبناء جنسك وأنت ترانى أمشى مجهدا جائعا وأنت راكب شبعان مرفه .

قال صدقت فماذا تريد ؟

قال اليهودى اطعمنى شيئا واسقنى واحملنى ساعة ، فقد هممت لأستريح ساعة ، فنزل المجوسى عن بغلته وأطعمه وسقاه حتى أشبعه وأرواه ، ثم اركبه ومشى معه ساعة يتحدثان ، فلما تمكن اليهودى من الركوب ، وعلم أن المجوسى أدركه التعب حرك البغلة وسبقه . وجعل المجوسى من ورائه فلا يلحقه ، فناداه قائلا : إنه قد تعب ليقف ، فلم يهتم به وقال له ألست قد أخبرتك عن دينى ومذهبى لقد حققت مذهبك وأنا أريد أن أنصر مذهبى وأحقق اعتقادى .

وجعل اليهودى يحرك البغلة والمجوسى يعدو إثره ويتوسل اليه أن يحمله معه ولايتركه فى الصحراء فتأكله السباع أو يموت جوعا وعطشا ، ويطلب منه أن يرحمه كما رحمه ، ومضى اليهودى دون أن يفكر فى صاحبه أو يلوى عليه ، فلما يئس منه

المجوسى وأشرف على الهلاك تذكر تمام اعترافه وما وصف له بأن فى هذه السماء إلّها خيرا فاضلا عالما عادلا لاتخفى عليه من أمر خلقه خافية فرفع رأسه الى السماء فقال :

يا إلّهى قد علمت أنى اعتقدت مذهبا ونصرته وحققته ووصفتك بما سمعته وعلمته فحقق عند موشار يعنى اليهودى ما وصفك به ليعلم حقيقة ماقلت .

فما مشى المجوسى الا قليلا حتى رأى اليهودى وقد رمت به البغلة فاندكت عنقه وهى بالبعد منه تنتظر صاحبها ، فلما لحق المجوسى بغلته وركبها ومضى لسبيلة وترك اليهودى يقاسى الجهد ويعانى ويشرب كأس الموت ناداه ليحمله معه حتى لايموت فى هذه الصحراء ، وذكره مرة ثانية بمذهبه واعتقاده فقال لقد وصفت لك مذهبى ولم تصدقنى بقولى حتى حققته بفعلى . فقال له اليهودى قد فهمت ماقلت وعلمت ما وصفت .

فقال المجوسى فما منعك أن تتعظ بما قلته لك ؟

قال اليهودى إعتقاد قد نشأت عليه ومذهب قد اعتقدته ، وصار عادة وجبلة بطول الدءوب فيه وكثرة الاستعمال له اقتداء بالآباء والأمهات والمعلمين من أهل دينى ومذهبى ، وقد صار جبلة وطبيعة ثابتة يصعب على تركها والاقلاع عنها .

فرحمه وحمله معه حتى جاء به الى المدينة ، ولما سمع الناس بقصته لامه بعضهم على رحمته به ، بعد قبيح المكافأة التى نالها منه .

فقال المجوسى إنه أعتذر بتأصيل العادة فى نفسه وأنا كذلك ، قد اعتقدت مذهبا قد صار عادة وجبلة وطبيعة أخرى يصعب على تركها والاقلاع عنها .

تلك قصة رمزية تبين لنا خطورة العقيدة وتأثيرها فى الانسان اذا ماتحولت الى سلوك عملى يصبح بالتالى عادة متأصلة لايستطيع الفكاك منها ، وعلى الرغم من ضلال اليهود فى تحريفهم للهدى الإلّهى وافترائهم على الله ورسله ، خاصة فى

التلمود ، فليس معنى ذلك ان المجوسية تعاليم سماوية مقدسه تجعل المجوسى فى هذه المثالية .

والذى يهمنا ، هو الهدف الذى تهدف اليه القصة من تحول الثقافة العقائدية الى سلوك متأصل فى النفس ، ويتحكم فى الفرد ، وهذا هو مايخشى على أبنائنا فى ثقافتهم الغربية عن الاسلام .

« التربية الاسلامية ودورها في حل مشكلات المسلمين »

التهذيب والتأديب والتربية ، كلمات مترادفة ، يقصد منها تنشئة المرء على المبادىء الاسلامية التى نزل بها القرآن الكريم وفصلتها السنة النبوية الشريفة ، وطبقها المجتمع الاسلامى الأول بصورة كاملة ، حتى غدت نموذجا حيا للأجيال المسلمة كي تحتذيها ، وتتأسى بها الى يوم القيامة .

مبادىء التربية الاسلامية :

يمكننا تلخيص مبادىء التربية الاسلامية بصورة موجزة كما يلي :

١) **الايمان بالله** : الاعتقاد بأن الله رب العالمين ، ومالك يوم الدين ، كل شيء بأمره ، هو الخالق وغيره المخلوق ، بيده مصائر العباد ، لايتحرك ساكن ولايسكن متحرك الا بأمره ، خلق الأشياء من عدم ، وبرأ الأكوان ثم أوجد الانسان ليعبده ويطيع أمره ، وحدد له الغاية من خلقه ، كما نصت على ذلك الآية الكريمة :
« وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين »[1] .

إن هذه العقيدة تحرر الانسان من الخوف على الرزق ، ومن الخضوع الى الناس ، والاذعان للارهاب ، والتعلق بالعباد رغبة فى قضاء الحاجات ، لأن

(١) الذاريات (الأيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨)

كل شيء بيد الله تعالى ، فالأرزاق مقسومة والآجال مكتوبة . قال الله تعالي : « **وفي السماء رزقكم وما توعدون** »[٢] . وقال جل شأنه : « **فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون** »[٣] فالله هو الذى يحيي ويميت ، وهو الذى يعطي ويمنع ، ولارادّ لقضائه ولامعقب لحكمه .

بهذه العقيدة يتخلص الانسان من كل أسباب الضعف التى يعانيها الملحدون ، والذين حرموا نعمة الايمان بالله ، فأظلمت قلوبهم وحجبوا عن نوره وصدق الله العظيم : « **كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم** »[٤] .

٢) **القيم الاسلامية** : نلحظ من تاريخ الدعوة الاسلامية أن الرسول عليه الصلاة والسلام عُني بتربية أصحابه على مجموعة من الفضائل النفسية والأخلاق المثالية ، من ذلك :

أ — حب الخير للناس جميعا وكره الأذى والبعد عنه .

ب — مساعدة المستضعفين والمحتاجين بدءاً من الأرحام والجيران وانتهاء بأى انسان ، شريطة أن لا يكون عدوا لله وللمسلمين .

جـ — التزام الصدق في كل شيء واجتناب الكذب ، لأن الأول دليل الإيمان ، ولأن الثاني دليل الفجور والعصيان .

د — حفظ اللسان من الغيبة والنميمة وقول الزور واشغاله بذكر الله وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والبعد عن اللغو واللغط الفاحش .

قال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا أو ليصمت »[١] .

هذه التربية تجنب أصحابها مايقع فيه كثيرون من إنفاق الوقت وضياع

---

(٢) الذاريات (آية ٢٢)

(٣) الأعراف (آية ٣٤)

(٤) المطففين (آية ١٤)

(١) جزء من حديث أخرجه الشيخان عن أبي هريرة .

العمر بالخصومات والسباب والشتائم وتجريح الناس ، حتى تصبح حياتهم فارغة وأحاديثهم لغوا .

وبهذا تنقذ هذه التربية المثلى المسلمين من الاسفاف والهبوط ، وترتفع بهم الى مستوى الانسان الراقي أو المثالي الذى بحثت عنه المجتمعات الانسانية طويلا فلم تعثر عليه الا في ظل الاسلام ، وفي نطاق التربية الايمانية المثلى .

٣) النظام الاسلامي :

بعد أن ربى الاسلام أتباعه على أساس الايمان المطلق بالله ونشأهم على مكارم الأخلاق وفضائل النفس ، جعل لهم نظاما كاملا يحدد لكل فرد فى المجتمع الاسلامي ماله وما عليه ، فعلاقة الفرد بزوجته وأبنائه وأبويه وأرحامه وجيرانه محددة ، وعلاقته بأفراد المجتمع وبالدولة محددة كذلك .

في ظل هذا النظام الرباني ، يزول التناقض بين الذكر والأنثى ، وبين الفقراء والأغنياء ، وبين الأقوياء والضعفاء ، وتزول كل ألوان الصراع القبلي والطبقي اللذين تعاني منهما جميع المجتمعات الانسانية ، وتفتش دائما عن الحل ، وتضع لنفسها أنظمة وفلسفات دون أن تبلغ من ذلك شيئا ، بل نجد كل حل يأخذ به مجتمع مايزيد الأمور تعقيدا ويحتاج الى حل آخر وهكذا ، فالرأسمالية مثلا ، هدرت قيمة المجتمع لصالح الفرد وطموحه ، فجاء العلاج بالاشتراكية ، فاذا بها تهدد كرامة الفرد لصالح الجماعة ، وهكذا نجد أن أى علاج حاول الانسان أن يستشفي به زاد الطين بلة وجعل المرض عضالا .

النظام الاسلامي حل جميع المشكلات وألغى كل التناقضات ، وأزال الصراع بين الطبقات ، جعل المجتمع على قدم المساواة ، ونظر الى الناس على أنهم من أصل واحد : « كلكم لآدم وآدم من تراب »[1] . وصان كرامة المجتمع ، وأتاح الحرية

(١) جزء من حديث رواه البزار عن حذيفة وهو صحيح

للفرد ، وأوجد مؤسسات لإسعاف المحرومين والمنكوبين من مرضى وفقراء وبائسين ، وحرم الظلم بكل أشكاله ، وجعل الأمر شورى في شؤون الحكم ، وضرب على أيدى العابثين والمفسدين .

وبذلك صان القيم الروحية والنفسية التى تربى الفرد المسلم على أساسها ، وبمعنى آخر ، فان النظام الاسلامي يدعم التربية الاسلامية ويمكن لها ، وذلك بالقضاء على جميع مظاهر الضعف الى تمسها أو تنال منها بالنسبة لأى فرد من أفراد المجتمع الاسلامي ، وهو بهذا يكمل دور التربية الاسلامية في بلوغها غايتها .

الجهاد في سبيل الله :

ان التوجيه والنظام اللذين يقوم عليهما المجتمع الاسلامي لابد لهما من حماية في الداخل والخارج .

أ ــ في الداخل لابد من مجاهدة النفس بصورة دائمة وتزكينها وتصعيد ميولها كيلا تقع في معصية أو فساد ، وهذه المجاهدة قد أكد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم تأكيدا شديدا واعتبرها عملاً عظيماً ينبغي على كل مسلم أن يضطلع به ويداوم عليه ، قال عليه الصلاة والسلام إثر معركة خاضها المسلمون ورجعوا منها ظافرين ، قال لجنوده وأتباعه :« عدنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر »[٢] تنويها بأهمية جهاد النفس وأثرها في تربية الفرد وتماسك الجماعة .

وفي ظل هذه الحماية التى ضمنها الجهاد ترعرع الاسلام ووجدت مبادئه المجال لتثمر وتؤتي أكلها لخير الانسانية جمعاء ، وبالجهاد استطاع المسلمون أن يبلغوا دعوتهم الى الناس كافة ، وأن ينشروا مبادئهم في أنحاء العالم . فشع نور الاسلام وعم ضياؤه .

---

(٢) رواه البيهقى عن جابر وهو ضعيف

والجهاد علاوة على أنه وسيلة حماية للمجتمع الاسلامى ، فانه يربي في المجاهد خصال الصبر والتجلد والاعتياد على النفس ، ويعوّده على التقشف وخشونة العيش ، ويسمو به الى التضحية ونكران الذات في سبيل الله ، دفاعا عن الأوطان والحرمات والحمى .

والخلاصة فان حل المشكلات التى يعانيها المجتمع الاسلامي تكمن في الاسلام ذاته ، وفي منهاجه التربوى الذى يتعهد المسلم كانسان مثالي وكعضو في جماعة متماسكة تحقق أهدافا محددة وتسعى الى غاية سامية .. وأن أى انحراف عن هذا المنهاج يجعل أمر الأمة شتاتا .

وصدق الله العظيم :

« وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »[1] .

---

(١) الأنعام آية ١٥٣

الفصل الخامس

مسئولية المســلم

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

(المسئولية في الاسلام)
« الاعداد الإلهي للوجود »

المسئولية في الاسلام موضوع هام ، يجب أن يكون هو الدرس الأول والأخير للانسان المسلم .

قبل أن نتحدث عن موضوع المسئولية بأبعاده يجب أن نتحدث عن ماهو الانسان ؟ فالانسان يختلف عن غيره من المخلوقات وهي كلها مهيأة لأداء رسالتها في الحياة ، حيث أن الله سبحانه وتعالى قد أعد كل كائن حسب الرسالة المناطة به ليكون اهلا لحملها ، ويستوى في ذلك الانسان والحيوان والجماد والنبات ، فكل شيء أعد بقدر وخلق لحكمة يعلمها الله ، والوجود يكمل بعضه بعضا ليؤدى الدور المناط به كي يساعد الانسان على حمل رسالته في الحياة .

الله سبحانه وتعالى ، حين تحدث عن الأرض والسموات قال : « **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضٰهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم** » فصلت / ٦ـــ ١٢ .

هذه الآيات تنبيء أن الله ائتمن الأرض على أقوات البشر ولو تضاعف البشر عشرات المرات مثل العدد الموجود حاليا فان الأرض لن تضيق بهم لأن البشر حين يبحثون في الأرض سوف يجدون فيها الرزق المقدر لهم منذ الأزل .

ولو افترضنا أن الأرض بخلت بما فيها أو استأثرت به لنفسها وحرمت منه الإنسان لكان ذلك منها تمردا على المشيئة الإلّهية وخيانة للأمانة التى أؤتمنت عليها .

ومن هنا لم تمنح الأرض ولا السماء حرية الاختيار أو التصرف ، بل إنهما من حيث التكوين والنشأة هيئتا للخضوع المطلق والطاعة الكاملة ، نجد ذلك واضحا في قول الله عز وجل للسموات والأرض « ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » .

هنا خضوع مطلق للارادة الإلّهية وللمشيئة الربانية وهو خضوع ينبيء عن طاعة مطلقة وخضوع كامل « **وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم** » .

هذا الكون بما فيه يردد أنشودة واحدة وهي التسبيح بحمد الله ، والتسبيح يعني تنزيه الله عما لا يليق بذاته ، والحمد يعني الثناء على الله بما هو أهل له من الكمال ، فالشهادة بالوحدانية وتنزيه الله عما لايليق بذاته والثناء على الله بما هو أهل له من الكمالات ، هو شعار هذا الوجود كله ولايوجد نشاز في هذا الكون الا هذا الانسان حين يزل أو يضل عن هدى ربه عز وجل ، ولكي ندرك تلك الحقيقة ، فاننا نقرأ الآية التي تحدث فيها الحق سبحانه وتعالى عن دور الانسان بالنسبة لهذه الكائنات فيقول سبحانه : « **انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا** » الأحزاب / ٧١ ، امتنعت السموات والأرض عن حمل الأمانة ولكن قبلها الانسان فلم قبلها ؟ وماهي هذه الأمانة وما حدود تلك المسئولية ؟ .

السموات والأرض خاضعة للقوانين التي أودعها الله في هذا الكون ، كقوانين الجاذبية وغيرها ، فأنت مثلا تقرأ في العلوم الطبيعية أن الذرة وهي الهباءة الصغيرة التي لاترى بالعين المجردة فيها نواة ، والنواة يوجد حولها الكترونات وهذه الألكترونات تدور حول النواة مع أنها ذرة صغيرة ، وتقرأ أيضا أن المجموعة الشمسية والكواكب حولها وهي الأرض والقمر والمشترى وزحل وغيرها تدور حول الشمس ، باعتبارها المركز الأساسي الذى تدور حوله . فالنواة هي المركز في الذرة والشمس هي المركز في

المجموعة الشمسية وكلاهما يدور بقدرة الله وبامر الله وكلاهما يسبح الله عز وجل ، وكل الكائنات هكذا ، اما الانسان فان خلقته تختلف ، فالانسان كون من هذا الوجود كله ، فيه من الأرض وفيه من السماء وفيه من الحيوان وفيه من النبات والتراب ، وفيه من كل هذه الكائنات المخلوقة عناصر وهي أساس تكوين الانسان .

فانت تشارك الحيوان في النمو والطعام ، وتشارك الجماد والنبات في أنك جسم وتشغل حيزا من الفراغ ، وتشارك النجوم بأن عندك إشعاعات نورانية أودعت في قابك اسمها الفطرة ، وانت الذى اسجد الله ملائكته لك حيث يقول الله عز وجل في كتابه (**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون**) البقرة /٢٩ ــ ٣٠ .

الله سبحانه وتعالى حين كون هذا الانسان أعطاه امتيازا لم يعطه لأحد من الكائنات ، هذا الامتياز هو النفحة الروحية « **فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** » هذه النفحة الروحية سر من أسرار الله لاندرك مغزاها ولامبناها ، والله عز وجل يحدثنا عنها فيقول « **يسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** » ، هذه النفحة العلوية فيها أسرار كثيرة ولها أنشطة عظيمة فحين يتعلق الأمر بالزكاة نطلق على هذه النفحة العقل ، وحين يتعلق الأمر بالحياة نطلق عليها النفس ، وحين يتعلق الأمر بالايمان نطلق عليها الروح ، وحين يتعلق الأمر بتلوين الوجدان بعاطفة الايمان نطلق عليها القلب . نشاطات كثيرة للروح وهي سر لايعلمه الا الله عز وجل .

هذا الانسان بتركيبته المتناقضة من روح وجسد ، كون بهذه الكيفية لكي يحمل الرسالة التي نيطت به ، ولو خلق بكيفية غير هذه ماصلحت له الحياة ولا صلح لها ولاصلح لحمل رسالته ، ونحن لاندرك عن هذه الروح شيئا ، ترى أهى تتعلق بكل جزئية من أجزاء الجسم ، أو بكل خلية من خلاياه ، أم هي أمر جوهرى يدير الجسم من خارجه أو من داخله ، أم هي تسرى في الجسم سريان الماء في الورود . هذا سر لايعلمه الا الله ، ومادام الله عز وجل نفى تعلق قدرة الانسان

بادراك هذا السر فلنرح انفسنا من عناء البحث في هذا الموضوع ، لكننا سنظل نقول الانسان جسم وروح ، كما نقول طلعت الشمس وغربت الشمس ، فالشمس لم تطلع ولم تغرب ، لأن الشمس كما هي ، لكننا نقول طلعت الشمس وغربت الشمس ، كذلك الأمر نقول إن الانسان جسم وروح ، دون أن نستطيع عزل أحدهما عن الآخر ، واجتماع هذه المتناقضات في الانسان جعل الانسان غريبا في خصائصه بالنسبة لكل الكائنات ، ولذلك قال الشاعر العربي :

دواؤك فيك وما تشعر ودائك منك وما تبصر
وتحسب أنك خلق صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

العالم الأكبر كله ينطوي في هذا الانسان لتكونه من جسد وروح ، بيد أن مشكلة الانسان لاتقف عند هذا الحد ، لأن الخصائص الروحية لانستطيع أن نسبر غورها ، ولا أن ندرك أسرارها من حيث الشفافية والنورانية والذكاء والارادة والنية وغير ذلك من الطاقات والمواهب النفسية ، فهي مواهب متعددة وهي متفاوتة بين مختلف البشر بعدد أفراد الجنس البشرى ، وإنك لواجد كل انسان له سمات معينة وخصائص متعددة تختلف عن غيره من بني الانسان ، ومهما اجهدت نفسك فانك لن تجد شخصين متماثلين في كل شيء ، وفي ذلك تتجلى قدرة الله التامة وحكمته البالغة .

فالله سبحانه وتعالى فاوت بين خصائص هذا الانسان ليعمر الكون ، ولايوجدتفاوت بين نوع من الأنواع كالتفاوت الموجود بين بني الانسان ، فالتفاوت بين الحيوان لايزيد عن كونه زيادة في كمية اللحم ، وكذا الأمر بالنسبة للنباتات لايزيد عن كونه زيادة في كمية الانتاج او ضخامة الجسم ، أما التفاوت بين بني الانسان فان أمره عجيب ، فبينما نجد إنسانا يصل الى درجة الملائكة ، نجد أن انسانا ينحط الى درجة أسفل من الحيوان وأخس من الشيطان .

هذا التفاوت الشاسع بين بني البشر ، يرجع الى الخصائص التي زود بها الانسان والى القيم الخلقية التي التزم بها ، والى الأعمال التي عملها الى ماتنطوى عليه نفسه من خير أو شر ، والى الاشعاعات التي تنبعث منه ومن أقواله وأعماله ،

وأساس الانحراف تحدده الآية الكريمة في الظلم والجهل « **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا** » . فوصف الانسان بالظلم وبالجهل ، وفي مقابل ذلك يكون اصلاحه بالعلم والعدل .

والعلم يعني : العلم بالحقائق الإلٓهية والعلم بتطور هذا الوجود ، والعلم بكل مايستطيع الانسان أن يدركه في جوانب الحياة المختلفة .

والعدل يعني : تحقيق العدل في ذات الانسان وفي أسرته ، وفي واقع المجتمع الذى يعيش فيه ، وفي الانسانية جمعاء ، لأن الله حين تحدث عن العدل جعله أمرا عاما لكل البشر بغض النظر عن اللون والجنس والمعتقد (**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**) .

ليقوم الناس : أى كل الناس .



« أساس المسئوليـة »

الله سبحانه وتعالى ميز الانسان عن الكائنات بهذه الروح ، وهناك خصيصتان أساسيتان في نشاط هذه الروح هما العقل والارادة .

فالعقل والارادة ، هما أساس حمل الانسان لهذه المسئولية . والمسئولية تمتد عمقا وتمتد أفقا وتمتد رأسا .

تمتد عمقا لتشمل الانسان ذاته ، فالانسان مسئول عن مواهبه وعن ملكاته التي ائتمنه الله عليها ، وعليه أن ينميها في الخير ، وأن يبعدها عن الشر ، ولكي ينجح في ذلك لابد أن يبذل مجهودا في هذا المجال .

أنت أعطيت العقل ، وأعطيت الملكات النفسية النورانية الشفافية الفطرة ، السليمة الارادة ، أنت مسئول مسئولية كاملة عن تنمية هذه المواهب ، ومسئوليتك بين يدى الله عز وجل إنما تكون لصيانتها عن ظلمات الشرك وظلمات المعصية ، وتكون بتنمية تلك المواهب في إطار نور الهداية الإلَهية .

إن الظلمات حين تزحف الى مواهب الانسان تصيبها بشلل كامل فتغيب عنه البدهيات ، ويعيش في حيرة الشك والضلال ، فلابد من عملية إزالة دائمة بالانسان والتوبة لهذه الظلمات حتى لاتخيم على الوجود كله ، وأنت مسئول عن إلزام جوارحك بطاعة الله عز وجل ، فالانسان تبدأ مسئوليته بصناعة عقله . كيف نستطيع أن نصنع عقولنا ؟ . صناعة العقل تأتي من الكلمة التي اسمعها ومن الكتاب الذى أقرأه ومن الفيلم الذى أشاهده ومن تعاملي مع الناس في البيع

والشراء ، وغير ذلك من كل أنشطة الحياة المختلفة . كل شيء يشتمل على حقيقة ، وهذه الحقيقة تقع في ذمن الانسان في منطقة اسمها الشعور ، ثم بعد فترة من الزمن تنتقل من منطقة الشعور الى اللاشعور ، فاذا تجمعت الحقائق الجاهلية في منطقة اللاشعور سيطرت على الانسان الحياة الجاهلية ، لأن منطقة اللاشعور هي التي تحكم الانسان فكرا وسلوكا . فان الفكر الذى يأتي على الانسان من ذلك يكون فكرا منحرفا ويتبعه سلوك منحرف ، أما إذا بذلت مجهودا في أن أملأه بالحقائق القرآنية والحقائق المذكورة في السنة النبوية فانني أصنع عقلي صناعة اسلامية .

كل لفظ من الألفاظ كالانسان ، فالانسان جسم وروح ، واللفظ له جسم ومعنى ، اللفظ الذى ينطق بالصوت والمعنى هو ماينطوى عليه اللفظ ، حين تقرأ الحقائق الاسلامية وتعرف الالفاظ والقشور دون أن تدرك حقائق المعاني ، فأنت لاتستطيع أن تكون عقلك تكوينا إسلاميا .

ولذلك نحن نلمح في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ربوا على الحق ، أن الواحد كان يتلقى بضع آيات من كتاب الله ، ثم يقول لسيدنا رسول الله حسبي حتى أعمل بهن ، ثم يذهب فيقرأ الآيات ويفهم معناها ويحفظها ويعمل بها تطبيقا وسلوكا ، ثم يعود بعد فترة ليتلقى آيات أخرى ، ونجد الصحابة والتابعين كانوا يتهجدون بالليل ، وكان لايمر بهم آية فيها تخويف من عذاب الله الا واستعاذوا الله منها ، ولا تمر آية تتجلى فيها رحمة الله الا وطلبوها لهم .

الآيات القرآنية تشتمل على أسرار الهداية الإلّهية ، أو بمعنى أوضح ، تنطوى الآيات القرآنية على مايصح أن نسميه بالاعجاز النفسي ، وهذا الاعجاز يشتمل على أمرين : الأمر الأول أسرار الهداية الربانية ، والثاني توافق هذا الاعجاز بما يتلاءم مع النفس البشرية ، ولو فرض وأننا أتينا بأى انسان كائنا من كان ، وتخلى عن حقده وشركه وكبره ، وتلا آيات من كتاب الله عز وجل بفهم وتدبر ، فلابد أن تسرى الهداية في أعماق نفسه ، وأن تسيطر على كيانه ، والمشكلة التي تصادفنا اليوم أننا لم نقم بمجهود يذكر لشرح أسرار الهداية الإلّهية في كتاب الله ، ولا في فهم أسرار النفس الانسانية ، وبذا ظلت البشرية محرومة من هدى الله لجهل المسلمين بحقائق الهدى الإلّهي .

إذن لابد أن نبذل جهدا مضنيا في نفي الحقائق الجاهلية التي تسيطر على المجتمع ، وتنتقل تلقائيا بطريق العدوى الينا ، ثم نضع الحقائق الربانية مكانها لنبني منها عقولنا .

الأمر الثاني في مسئوليتك عن نفسك هو تنمية الايمان ، الايمان شيء أساسي لنمو الشخصية الانسانية ، وهذا الشيء الأساسي لابد أن يزكيه الانسان بالنظر الثاقب في ملكوت الله ، وبالطاعة وبذكر الله وبالالتزام بأوامر الله عز وجل ، واجتناب نواهيه حتى لايحدث تناقض في شخصية الانسان بين فكره وسلوكه .

فنحن نسأل بين يدى الله ، هل اعتنقنا الحق أم لا ؟ وهل كان اعتقادنا له عن بصيرة ونور ، أم تلقيناه فقط من الآباء بالوراثة ، أو من البيئة بالعدوى ، وهل نحن تعهدنا هذا الايمان بازالة الشكوك والشبهات التي تطرأ على مرآة قلوبنا أم لا ؟ إن التزامنا بهذه المسئولية ونجاحنا في أدائها ، يزيل التناقض بين المثالية والواقعية في حياة الانسان .

أنت مسئول أيضا بين يدى الله عن معرفة أمراض نفسك وقد حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » أى أن أعدى أعداء الانسان هي نفسه ، وليس الأعداء الخارجيون ، وبعض الصالحين يقول : « النفس صنم والنظر اليها عبادة ، فالنفس صنم لما تنطوى عليه من أمراض قاتلة كالأنانية والحقد والكبر والبطر والخيلاء والغرور وغير ذلك من الأمراض ، والانسان يحب نفسه بالطبع والجبلة ، وبالتالي فانه يقع في أسرها ويعيش تحت وطأتها ، وذلك هو أساس الشر في هذا الوجود ، فمعرفة الانسان لهذه الأمراض واكتشافه لهذه العيوب واتهامه لنفسه ومنابذته لها ومحاولة التخلص من أمراضها عبادة من أجل العبادات التي يتقرب بها المؤمن الى ربه .

أنت مسئول أيضا بين يدى الله عن الزام نفسك للقيم الاخلاقية التي هي أمهات الأفاضل ، كالصبر والحلم والتقوى والورع والزهد والتوكل على الله ، وذلك لايكون الا ببذل مجهود لتغيير نفسك تغييرا جذريا كاملا .

(الاسلام ومبدأ التغـيير)

الاسلام في حقيقته يستهدف تغيير الانسان وهو لايكتفي برصد واقع الانسان كما هو عليه ، وإنما يشرح الواقع ويطالب بتغييره في إطار القيم الاسلامية ، وحين يكف الانسان عن تغيير نفسه فانه يجمد على ماهو عليه ، وبالتالي تتجمد مواهبه وتخمد إرادته ويجف ذهنه ويتوقف عن الانتاج ، وبهذا يصاب بالعقم في المجال الفكرى والمجال الحركي ، وبالتالي فانه يخرج من التاريخ ، وذلك هو الخطأ الذى وقع فيه المسلمون ، وهو خطأ فادح ، إنه يبدأ حين يتوقف الانسان عن تغيير نفسه .

إنه الخطأ الذى وقعت فيه الأمة في فترة العقم الحضارى ، وفي فترة الجمود الفكرى ، حيث قال المسلمون : إن الاسلام دين كامل ونحن مسلمون اذن فنحن كاملون .

الاسلام دين كامل هذا حق ، أما أننا مسلمون نعمل بالقرآن وبالحقائق الاسلامية فهذا خطأ وبالتالي كانت المقدمة الأولى سليمة ، والمقدمة الثانية خاطئة ، فكانت النتيجة خاطئة ، وسبب ذلك أن المسلمين أصيبوا بعقدة التسامي ، حيث ظنوا خطأ أن الجنة لهم مهما ارتكبوا من موبقات ، وأن النار لأعدائهم مهما عملوا من حسنات ، ماداموا قد نطقوا بشهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فالجنة مضمونة .

إن ربنا وضع قاعدة في الكتاب يقول الله تعالى « **فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** » فكل البشر مسئولون عن أعمالهم ، وهذه المسئولية تتم وفق العدل الإلّهي (**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان**

مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) .

فكل إنسان كائنا من كان ، مسئول عن أعماله ، ولايعفى احد من المسئولية الا من أعفاء الله ، وهو المجنون والصبي ، وليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب ، ووسيلة النجاة هي الايمان والعمل الخالص لوجه الله ، والايمان يعني الاعتقاد الجازم بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، والايمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره ، وهذا الايمان يعني وجود عالم آخر هو عالم الغيب ، لابد أن يصل الانسان نفسه به في الحياة الدنيا ، وذلك إنما يكون عن طريق هدى السماء الذى جاء به الأنبياء ، والانسان بمقتضى هذا الهدى يعد نفسه للحياة الأبدية في الدار الآخرة ، فالعمل يعني التزام الهدى الإلّهي ، وذلك بأن يصيغ الانسان نفسه صياغة جديدة ليكون أهلا لتلقي الرضوان الإلّهي والنعيم الإلّهي في الدنيا والآخرة . وهذا ما يعنيه مبدأ التغيير الذى جعله القرآن قاعدة النجاة في الدنيا والآخرة ، فالتغيير يعني جانبا نظريا ، وهو جانب المفاهيم ، بحيث تكون واضحة في ذهن الانسان ، وان تترسخ في أعماق نفسه عن طريق اليقين الجازم ، ويعني جانبا سلوكيا وهو العمل وفق هذه المفاهيم ، وبذلك يحدث التغيير في شخصية الانسان وفي واقع المجتمع الاسلامي .

يقول الحق تبارك وتعالى « **إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » ، ويقول الله عز وجل « **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » . فوضع الأساس للاصلاح مبدأ التغيير اذا انت غيرت نفسك من حسن لأحسن تجد الخير عند الله ، واذا غيرت نفسك من سيء لحسن تجد العون من الله « **والذين اهتدوا زادهم هدى** » واذا أنت غيرت نفسك من الحسن للسيء فأنت لاتجد عونا من الله ، بل تجد إعراضا عنك حيث يخلي بينك وبين نفسك « **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** » ، « **ومن يعش عن ذكر الرحمن نُقَيِّضْ له شيطانا فهو له قرين** » ، **ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** » .

هذه حقائق قرآنية فكيف أكون مسلما وأنا أدرت ظهرى لبدهيات الاسلام ، ولم آخذ بالمبدأ الأساسي ، لتغيير النفس .

(أسس الحساب الأخروى)

المسئولية تمتد الى ثلاثة أجزاء ، النيات ، والأعمال ، والأقوال .

النية : لابد من تجريد النية لله في كل عمل ، واذا كانت النية فيها شك أو رياء أو فيها أى نقص أو شائبة ، فان العمل لايكون مقبولا عند الله عز وجل ، والنية تعني الاصرار الجازم على عمل شيء أو تركه ، وهي بين العبد وربه لايطلع عليها الا الله وحده ، وهي عمل خاص بالقلب ، وهناك فرق بين أعمال القلوب وأحوال القلوب ، فالأحوال هي الخواطر والوساوس والهواجس التي تمر بذهن الأنسان ، ثم تنصرف عنه ، ومثلها الحزن والفرح والقبض والبسط ، وهذه كلها أشياء طارئة على قلب الانسان لاتلبث أن تزول أما أعمال القلوب فهي النيات وهي تعني إصرار الانسان على الذنب أو إصراره على الطاعة .

وهذا الاصرار إنما يأتي كمرحلة تالية للأحوال التي تطرأ على القلب ، فالأحوال معفو عنها ، أما الأعمال فان الانسان محاسب عليها ، يقول الله سبحانه وتعالى **(وإن تبدو مافي أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير)** ، وكذلك الأمر بالنسبة للأقوال : الأقوال ، كل كلمة ينطق بها الانسان مسجلة عليه .

يقول ابن عربي : « ان الله كشف لي الحجاب فرأيت الكلام الذى يخرج من أفواهنا لايموت بموت صاحبه وإنما هو حي في الفضاء ويبقى حيث يموت صاحبه » .

العلم الحديث يقول : إن الكلام عبارة عن ذبذبات صوتية متداخله ، ولو استطاع العلم أن يعزل هذه الذبذبات بعضها عن بعض فمن الممكن أن نسمع كلام سيدنا عيسى وسيدنا محمد وسيدنا موسى ، وكلام الكفار الذين عاندوهم وقاوموا دعوة الحق ، ولكن العلم عاجز حتى الآن عن هذه المهمة ، لكن الأمر بالنسبة لربنا أمر ميسور ، أيضا بالنسبة للعمل كل عمل يعمله الانسان هو محاسب عنه ، والعمل يشترط فيه أن يكون على نهج رسول الله ، وأن يكون له تأثير على سلوك الانسان ويكون مكتمل الاخلاص والتجرد .

أى خلل في الشروط الثلاثة يجعل العمل غير مقبول . كل حركة يتحركها الانسان في الوجود من ورائه جهاز تلفزيوني يسجل عليه كل حركة .

لقد توصل العلماء الى تسجيل الحركة بعد حدوثها بنصف ساعة ، أى أنه يمكن بواسطة آلة تصوير حرارية أن تصور من بداخل المسجد بعد انصرافهم من الصلاة بنصف ساعة ، وهذا يدلنا دلالة قاطعة على أنه تم تصوير وجود المصلين في المسجد تصويرا إلّهيا ، ولولا ذلك ما استطعنا أن نصوره عن طريق تلك الآلة الدقيقة .

إن هذا ينبئنا عن أن أى حركة تحدث في هذا الكون هناك جهاز تلفزيونى إلّهي يسجلها ، فأنت لو خلوت في حجرة وارتكبت معصية فهي مسجلة عليك « **يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها** » ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « أتدرون ماأخبارها » ، قالوا الله ورسوله اعلم ، قال : « تأتي الأرض يوم القيامة وتقول أى ربي إن فلانا إبن فلان ارتكب في كذا وكذا من يوم كذا » ، فكل مايعمله الانسان من خير أو شر مسجل عليه في سجل هذا الوجود .

نحن نقول إن الانسان محاسب عن النية والكلمة ، وعن العمل ، وهذه الأشياء لاتقف عند حد ولا تقف عند الانسان وحدة ، وإنما لها إشعاع ولها آثار ولها تكرار ، وكل هذا نحن محاسبون عليه ، وهذا معنى امتداد المسئولية أفقا وعمقا لرؤياك وحين يرونك طائعا مخبتا يهتدون بك ، وحسب نيتك ينفع الله بكل حركة وسكنة

من سكناتك اذا كنت مخلصا متجردا .

وكذلك الأمر بالنسبة للكلمة ، الكلمة حين تقال وهي هادفة مخلصة فانها تؤثر فيمن يحيطون بك ، وقد تمتد آثارها إذا كررت وقد يمتد الأثر أيضا إذا ظلت بعد موتك ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية أو ولد يدعو له أو علم ينتفع به » .

فالعلم سواء كان مكتوبا أو مسموعا فانه يؤثر في المجتمع ، والعمل له اشعاع وله آثار ، هذا الاشعاع وهذه الآثار أنت محاسب عليها . هب أن انسانا بنى دارا للرقص أو خمارة وجاء الفساق وانحرفوا في هذه الدار ، فانه يكتب عليه وزر بناء الدار ووزر من انحرفوا في هذه الدار . هب أن الذين انحرفوا فتحوا دورا أخرى للبغاء ودورا أخرى للرقص ، فانك محاسب بين يدى الله عن تلك الدور الجديدة وعن الذين انحرفوا فيها دون أن تنقص من أوزارهم شيئا .

هب أنك بنيت مسجداً أو دارا للعلم ، فانت تأخذ ثواب البناء وتأخذ ثوابا مماثلا لكل من صلى في هذا البناء دون ان تنقص من ثوابهم شيئا .

هب أن إنسانا تعود على الصلاة في مسجدك وذهب وأنشأ مسجدا آخر أو ذهب وأنشأ دارا أخرى للعلم ، فالآثار التي تبعت عملك تلحقك وأنت في قبرك فتأخذ اجر ماعملته وأجر من اقتدى بك وعمل مثل عملك دون أن تنقص من أجرهم شيئا . وهذا معنى قول الله سبحانه وتعالى « **انا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** » ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « من سن في الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ومن سن في الاسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » وقوله عليه الصلاة والسلام « مامن نفس تقتل الا كان على ابن آدم كفل منها » .

إذن نحن ضامنون للعمل والعمل لاينحصر بزمان ومكان ، ولكنه يمتد أفقيا ليشمل كثيرا من الأماكن التي تنعكس آثاره عليها ، ويمتد رأسيا ليصل بك الى يوم

القيامة ، وكله مسجل عليك في هذه الدار الدنيا .

لذلك حين يأتي انسان ويقول أنا عصيت ربنا عشرين سنة أو خمسين سنة ، ويكفي أن أعذب مدة مساوية للمدة التي عصيت الله فيها ، يبقى هذا مخطئا — لايعرف علم الله ولايعرف عدالة الله المطلقة ولايعرف الموازين الكاملة لله عز وجل .

عدالة الله تقيس العمل بمادته وإشعاعه وآثاره وتكراره ، فقد يكون عملا تافها أو كلمة بسيطة ، ولكنها تؤثر آثارا خطرة وآثارا سيئة ، ومن هنا يكون حسابك عن هذا العمل البسيط أو التافه ، حسابك شديدا لأن إشعاعه انعكس على المجتمع ، فأثر في الناس وآثاره امتدت الى فترة طويلة من الأجيال قد تمتد الى يوم القيامة .

« المسئولية عن الغـير »

مسئولية الانسان لاتقف عند مسئوليته عن نفسه ، وانما تمتد لتشمل مسئوليته عن عمل غيره ، قد يقول قائل كيف يكون ذلك والله سبحانه وتعالى يقول (**ولاتزر وازرة وزر أخرى**) ، ويقول (**لها ماكسبت وعليها مااكتسبت**) ويقول (**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**) .

إن هذه الآيات التي ذكرت لاتتنافى مع مسئولية الانسان عن عمل الغير فنحن نشارك غيرنا في أعماله ، إما بالتخطيط والتدبير ، أو بالامر والاجبار ، أو بالتزيين والاغراء ، أو بالرضا أو بالسكوت ، والسكوت قد يكون عن ضعف وجبن ، أو عن رضا وقناعة ، وفي كل هذه الأحوال نحن نشارك مشاركة فعالة في إبقاء الشر واستمراره وفي حدوثه وتكراره ، اذ نحن مكلفون شرعا بمقاومته ودحضه ، وأوضح مثل لذلك هو مايحدث بين المتبوعين من الزعماء أصحاب المال والجاه والسلطان وبين الاتباع من المرؤوسين والفقراء والمحرومين وغيرهم ، فما يكاد يؤشر الزعيم بالايماء أو الحركة الى أتباعه إلا ويسارعون لتلبية ندائه طوعا أو كرها دون أن يسائلوا أنفسهم عما اذا كان هذا الأمر يرضي الله أو يغضبه .

ولاشك أن في هذا إغراء للطاغية للزيادة في طغيانه ، وفي نفس الوقت بالنسبة للاتباع فيه تحقير لأنفسهم ، حيث قعدت بهم همتهم عن مقاومة الطغيان ورضوا لأنفسهم بالصغار والهوان .

ومما يؤسف له أن أكثر المظالم التي وقعت في تاريخ البشرية ، انما كان سببها استسلام الضعفاء وتحقيرهم لأنفسهم .

إن مقاومة الانحراف فريضة محكمة افترضها الله على المؤمنين ، وذلك ماعرف في الاسلام باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي الحديث « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » ، والقرآن الكريم يحذر المؤمنين في كل زمان ومكان من عاقبة طغيان الطغاة وهوان المستضعفين على أنفسهم وعلى الله ، ويصف الفريقين بجريمة واحدة هي جريمة الظلم ، فالظالمون والمظلومون كلاهما مشترك في جريمة واحدة .

الظالمون لأنهم أمروا وطغوا أو بغوا ، والمظلومون لأنهم نفذوا وألغوا عقولهم وإرادتهم وشخصياتهم ولم يقاوموا الطغيان ، يقول الله سبحانه وتعالى (**ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين**) ، (**واذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار**) **فيقول الله سبحانه وتعالى** (**ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم في العذاب مشتركون**) ، (**اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو انا لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار** » .

نلاحظ في الآيات المتقدمة أن الله عز وجل وصف الفريقين بالظلم لموقف كل منهما من الآخر في الحياة الدنيا ، حيث كانوا على انسجام تام ووفاق كامل يجمعهما المصلحة العاجلة والمتعة الزائلة .

لكننا نجدهم في الآخرة مختلفين حيث يتبرأ الأتباع من المتبوعين ، ويتبرأ المتبوعون من الأتباع ، وتتقطع الصلات التي كانت بينهم والنار تحيط بهم من كل مكان ، حيث لايستطيعون الخروج ، ويتمنى الأتباع أن لو عادوا الى الدنيا ثانية كي يتبرأوا من المتبوعين ، ويحيون حياة طيبة ، ولكنهم لايجابون الى هذه الأمنية (وما هم بخارجين من النار) .

ولاشك أن جرائم المتبوعين كثيرة لأنهم يحملون وزر أنفسهم ويحملون وزر أتباعهم ، ولأنهم محاسبون عن الامكانيات التي سخرها الله لهم واستخدموها في الشر ، أما مسئولية الأتباع فإنها تنحصر في تحقيرهم لأنفسهم وتبعيتهم لغيرهم وجبنهم عن قول الحق ومجابهة الباطل ، ونسوا في غمرة الضعف والجبن وسيطرة النفاق على المجتمع ، ان الله سبحانه وتعالى هو الخالق وهو الرازق وهو على كل شيء قدير ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث في روعي لن تموت نفس حتى تستكمل أجلها ورزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » .

وهناك مسئولية السكوت عن عمل الغير وهذا السكوت يؤدى الى شيوع المنكر وانتشاره في المجتمع فان لم يجد مقاومة جادة فانه يؤدى الى تدمير المجتمع تدميرا كاملا ، وقد فرض الله عز وجل على المؤمنين مقاومة الشر ومحاربة دعاته بصفة دائمة ، وقد بين لنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أساليب مواجهة هذا الشر وهي تنحصر في ثلاثة : مقاومة باليد أو اللسان أو القلب ، وفي الحديث (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه) فان لم تتم المقاومة الكاملة للباطل بهذه الأساليب كلها ، فان ذلك يؤذن بنهاية المجتمع ، وفي الحديث (مثل القائم على حدود الله ، والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها ، وأصاب بعضهم اسفلها ، فكان الذين في أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقال الذين في أعلاها : لاندعكم تصعدون فتؤذونا ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فان يتركوهم وما أرادوا ، هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا) .

(مسئوليتنا عن إصلاح البيئة)

هناك مسئولية عن البيئة والمجتمع الذى نعيش فيه ، وكثير من الناس ينشأ في بيئة ضالة ويستنكف أن يخرج من الضلال ويستحي ان يجابهه ، يقول لو قلت هذا الكلام لقالوا عليك مجنون ، وأحيانا في بعض البيئات يتنكر الناس للبديهيات ويصبح تنكرهم للبدهيات كأنها حقائق بديهية مسلمة ، فمثلا هناك بديهية تقول كل صنعة لابد لها من صانع ـــ الكون مصنوع لابد له من صانع وهو الله هذه بديهية مايختلف فيها اثنان .

لايمكن أن تتصور بعقلك أن البيت عمل الطوب وحده وتجمع لوحده وتجمعت الأخشاب وحدها ، وقام البيت وحده ، هذا غير ممكن وإنما نعرف فيه بناء وفيه صانع وفيه عامل وفيه مهندس اشتركوا في بناء البيت ، هذه بديهية كل صنعة لابد لها من صانع ـــ تجد اكثر من ثلث البشرية تتنكر لهذه البديهية وتكفر بالله ، وقال الشيوعيون الدين خرافة ، وأنكروا وجود الله سبحانه وتعالى ، حتى المؤمنون أحيانا ، يقولون آمنا بالله ، ولكنهم يتنكرون لهذه البدهية ، اذ مقتضى الايمان أن يدرك المؤمنون أن الله هو المحيى وهو المميت وهو القادر وهو على كل شيء قدير ، **« قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير »** . هذه بديهية الايمان لكن تجد الناس أثناء صراعهم في الحياة يتنكرون لهذه البديهية ويذلون انفسهم لغيرهم **« وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون »** .

هناك بديهية لدى كل الناس مغروسة في فطرتهم ، وهي أنهم يحترمون الحق

ويقدسون العدل ، وحين يرون الباطل متسلطا أو يرون الظلم منتشرا تنفر منهم نفوسهم ، ولكنك تجد في كثير من المجتمعات الظلم مباحا والباطل مشاعا واذلال الناس شيئا عاديا لايجد مقاومة ، وسبب ذلك أن فطرة الناس قد فسدت ، فأصبحت تتنكر للبدهيات الأساسية التي فطر الانسان عليها وسبب فساد الفطرة هو انطماس نور الايمان والحرمان من الهداية الإلهية وانتشار الكفر وشيوع الضلال وعبودية الهوى .

هذه البيئة الضالة هي الأساس للاصلاح ، وهي محور عمل الانسان في هذا الوجود ، وعلى الانسان المسلم أن يغير تلك البيئة الضالة .

يقول إقبال مخاطبا ربه (ياربي إن هذا الكون لايعجبني ، فقال لي : الست مؤمنا قلت بلى قال غيره ولاتبالي) .

هذه هي رسالة المؤمن ، تغيير الفساد وانقاذ البيئة من الضلال ، وإن الله عز وجل حين قال للملائكة « **اني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني اعلم مالا تعلمون** » .

إن علم الله الأزلي كان يعلم أن البشر سيفسدون ويسفكون الدماء ، ولكنه كان يعلم ايضا أن المؤمن سيصلح الأرض ويقيم العدل ويدعو الى الحق ونشر الفضيلة ، فالملائكة حين اخبرت الحق تبارك وتعالى بتخوفها من الفساد لم يأتوا في ذلك بجديد بالنسبة للعلم الإلهي لكن ربنا قال « إني أعلم مالا تعلمون » أى أعلم أنه سيأتي المؤمن القوى الذى يريح الدنيا من شرور هذا البلاء الذى يأتي من المستكبرين والطغاة في الأرض ويحقق العدل والقيم الخلقية ويحطم الفساد ويحقن الدماء ، هذا هو الشيء الأساسي من عمل المؤمن لتغيير البيئة الضالة التي يعيش فيها .

فاذا وقف المسلم موقف اللاهي العابث المتفرج يكون قد تنكر لرسالته ،

وخان أمانته وإن صلى وصام ، لأنه اشترك بسكوته في تثبيت الباطل في الأرض ، ومشاركته بالسكوت لاتقل إثما عن نشر الباطل من الضالين ، وذلك لأنه مؤتمن على نشر الحق ومقاومة الباطل ، فاذا نكص عن ذلك يكون قد خان أمانته وتنكر لرسالته ، لأنه رضي لنفسه بالسكوت على الاثم ، والسكوت عن الاثم جريمة كبرى ، لأن ذلك يؤدى الى انتشاره وشيوعه وسيطرته على المجتمع ، وبذلك يعتبر المسلم معينا على تثبيت دعائم الشر ، قال تعالى (**وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكْفَرُ بها ويُستهزىء بها فلاتقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذن مثلهم**) فجعل القعود مع الضالين دون مقاومة أو مقاطعة ، مشاركة في إقرار الباطل ، وذلك يقتضي المماثلة في الإثم (إنكم إذن مثلهم) .

لقد انتعشت أرواح المؤمنين بالهداية ، وفاضت عليها نفحات السماء ، والمفترض أن تنعكس هذه النفحات على السلوك ، وان تنتقل تلقائيا الى البيئة ، ثم تنعكس على المجتمع فتهدم الظلام وتنشر النور .

إن غياب تلك الأنوار عن سلوك الانسان وعن البيئة يفسح المجال للظلام ليعم البيئة ويضلل المجتمع ويهاجم المؤمن في عقر داره ، فأنت تحمل كفلين من العذاب ، الكفل الأول لأنك لم تنتفع بهدى الله ، والكفل الثاني لأنك لم تنشره بين الناس .

إذن هناك ضرورة تلزم المؤمن بمقاومة الطغيان ، ومقاومة الظلم ، ومقاومة الضلالة ، ومقاومة الالحاد ، وليكن مايكون ، فان نفيه سياحة وسجنه خلوة وقتله شهادة ، وهو في كل ذلك يكون قد فاز فوزا عظيما .

المؤمن يسير على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نحن نقول في سورة الفاتحة ونحن نقرؤها أكثر من سبع عشرة مرة في اليوم ، نقول « **اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » فهذه الآية تربطنا بثلاثة روابط : الرباط الأول بالله لاننا نتجه اليه في صلاتنا طالبين منه الهداية وهي انما تنزل من الله على قلوب المستعدين لها ، فنحن قد فرغنا قلوبنا من كل ماسوى الله واتجهنا اليه بكليتنا نطلب منه ان يمنحنا الهداية والتوفيق ، والهداية لاتنال بذكاء ولامال ولا جاه ولاحسب ولا واسطة ، وانما هي منحة إلٓهية ومنه ربانية يمنحها الله للمستعدين لها المخبتين لله عز وجل ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقول (يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) ، وفي الحديث « إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء) وفي الآية (وما تشاؤون الا أن يشاء الله) .

إن نعمة الهداية لاتقارنها نعمة أخرى ، فهناك نعم كثيرة كنعمة العقل والسمع والبصر والصحة والحياة والمال ، ومع ذلك فقد علمنا الحق تبارك وتعالى أن نردد فى الصلاة طلب نعمة الهداية دون سواها ، وان كانت النعم كلها يطلبها الإنسان بالدعاء ، وبسبب ذلك أن نعمة الهداية هى أساس النجاة فى الدار الأخرى ، ومن حاز الهداية فقد حاز الخير كله ، أما الرباط الثانى فهو رباط المسلم بإخوانه المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وقد علمنا الحق أن نقول إهدنا ، يقولها المؤمن منفرداً ويقولها فى جماعة ، وقد كان فى وسع المنفرد أن يقول اهدنى الصراط المستقيم .

إن طلب الهداية للمسلمين أجمعين يقوى رباط المحبة وأواصر الألفة ، ويربى الجانب الوجدانى على حب المؤمن لأخيه ، فكل مسلم يطلب لجميع إخوانه فى مشارق الأرض ومغاربها نعمة الهداية، وهم بذلك يتبادلون مشاعر الحب والولاء لبعضهم البعض ، لأن محل الهداية هو القلب .

إن مشيئة الله تسبق مشيئة العبيد ، فان نعمة الهداية لاتنال بذكاء ولامال ولاجاه ، وانما هي منة من الله سبحانه وتعالى يمتن بها على المؤهلين لتقبلها ، وانما يكون ذلك للقلوب الصافية المستنيرة بنور الايمان والتي تنطوى على الشفافية والاخلاص ، فحين يتوجه أصحاب هذه القلوب الى الله بصدق يطلبون الهداية والعون والتوفيق ، فان الله سبحانه وتعالى يمن عليهم بفضله .

إن هناك نعما كثيرة في هذا الوجود ، منها نعمة العقل ونعمة الحياة ونعمة البصر ونعمة السمع وغيرها من النعم الكثيرة ، ولكن الله عز وجل علمنا أن نسأله النعمة العظمى ، وهي نعمة الهداية ، نسألها لنا ولكل إخواننا المؤمنين ، وكل مسلم في هذا الوجود يطلب هذه النعمة له ولاخوانه المسلمين سبع عشرة مرة في اليوم ، وسبب ذلك أن الهداية هي أساس تقويم الانسان في الدنيا والآخرة .

إن إدمان المسلم لقرع باب الله بطلب الهداية مع توجهه الكامل اليه ، يفتح له باب القبول وييسره الله للخير وييسر الخير له ، ويعينه عليه ، ورباط ثالث يربطنا بالمسلمين من لدن آدم عليه السلام الى اليوم : صراط الذين أنعمت عليهم ، فيعيش المسلم مع موكب النبيين الذين حاربوا الفساد في هذا الوجود ونهج نهجهم ويسير على هديهم ، واذا كنا نعيش في موكب الهداية مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، لابد وأن نؤدى دورنا والا كنا كاذبين .

لقد شرح القرآن الكريم لنا مهمة الأنبياء ، وبين لنا المصاعب والمتاعب التي واجهوها في سبيل نشر الهداية ، وكانت عاقبتهم النصر ، ولايوجد على الأرض الآن من يمثل هذه الرسالة المقدسة ويملك وثيقة السماء الخالدة الا المسلمون ، فهم مسئولون

بين يدى الله عز وجل عن نشر هداية السماء التي ارتضاها الله للبشرية جمعاء ، ممثلة في هدى المعصوم صلى الله عليه وسلم ، فالمسلمون اليوم مطالبون بأن ينهجوا نهج النبيين ، وان يقوموا لله مثنى وفرادى لتبليغ دعوته ، وان يقدموا كل مايملكون في سبيل إحقاق الحق وازهاق الباطل ، ولاتقف المسئولية عند حدود نشر الهداية فقط ، وانما تمتد لتشمل تحقيق العدل ونشر الخير ومقاومة الباطل وإنصاف الضعفاء والمظلومين وعلاج المرضى وإطعام الجائعين والمحرومين ، فهي مسئولية عن كل صغيرة وكبيرة ، وفي طول البلاد وعرضها .

هذه مسئوليتنا نحن ، لانسأل عن الأقدار لم نزلت ، ولكنا نسأل عن آثارها وعلاجها ، فعلى سبيل المثال : إذا نزلت كارثة بقوم ، وجب علينا أن نخف لنجدتهم ، واذا رأينا جائعا وجب علينا أن نسد جوعته ، فان لم نستطع أن نسد جوعته وجب علينا أن ننبه الأغنياء للقيام بهذه المهمة ، فان قعدنا عن ذلك كنا آثمين ، قال تعالى في بيان عذاب الكفار « **إنه كان لايؤمن بالله العظيم ، ولايحض على طعام المسكين** » . فمن لم يحض على طعام المسكين يعذب في النار جزاء سكوته عن قول الحق .

نحن مسئولون عن المجتمع الذى نعيش فيه مسئولية كاملة ، فردية وجماعية ، أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما أهل عرصه بات فيهم رجل جوعان وهم يعلمون ، فقد برأت منهم ذمة الله ورسوله » ، لأنهم اجتمعوا على ظلم هذا الفقير .

نحن مسئولون عن إقامة العدل ورفع الظلم ، وفي الحديث « إن الملائكة تلعن من وقف موقفا يضرب فيه أخوه ظلما ولم يدافع عنه » .

انت مسئول عن كل جزئية من وقتك ، لابد وأن تقدمها لله ، علماء الحضارة يتكلمون عن الزمن كعنصر أساسي لصناعة الحضارة ، والحقيقة أن الزمن بالنسبة لنا كمسلمين هو عنصر أساسي في حياة الانسان ، لأنه هو الحياة ، ولايوجد عندك ماهو أغلى من حياتك .. نجد ربنا سبحانه وتعالى يقول : « **والعصر إن الانسان**

لفي خسر » . يقسم بالزمن ليلفت النظر الى دوره الخطير في حياة البشر ، نجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ، عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن علمه فيما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما انفقه) .

(حدود المسئولية)

فرض الاسلام المسئولية على كل إنسان في هذا الوجود ، لكن تختلف المسئولية من فرد لآخر بحسب المنصب الذى يشغله والطاقات التي يملكها والامكانيات التي تحت يده ، هذه العناصر الثلاثة تشكل أساس المسئولية لكل فرد ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالامام الذى على الناس راع ومسئول عن رعيته والرجل في أهله راع ومسئول عن رعيته والمرأة في بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها والولد في مال أبيه راع ومسئول عن رعيته والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

نلاحظ هنا تحديد المسئولية لكل إنسان حسب مايشغله من وظيفة في المجتمع ، وتبدأ المسئولية الكبرى وهي مسئولية الامام الذى على الناس ، وتنتهي بمسئولية الخادم ، وبينهما درجات أخرى ، كل يسأل بين يدى الله عن الأشياء التي أؤتمن عليها في هذا الوجود .

لقد عرف الانسان في القديم بأنه حيوان ناطق ، ثم عرف بأنه حيوان اجتماعي ، وعرف بأنه حيوان مسئول ، والتعريف بالمسئولية أقرب هذه التعاريف الى المفاهيم الاسلامية ، لأن ميزة الانسان إنما هي بضميره ، فاذا مات الضمير فلا قيمة لهذا الانسان ، واذا وجد الضمير ولم يكن محاسبا ولم يشعر بأن عليه تبعة بين يدى الله في الدار الآخرة قبل حسابه عنها في الدنيا ، فانه لايصلح لأداء تكاليف ديانته وبالتالي تنعدم الفائدة من رسالات السماء .

ومما يؤسف له أن مبدأ المسئولية مع خطره في الحياة ، ومع أنه امر بدهي يدركه الانسان بحكم التكوين والفطرة ، وباعتباره إنسانا متدينا يتلقى هدى السماء ، فان المبدأ البدهي تنكرت له الديانات التي حرفت .

فقد نشأت في الديانات البوذية فكرة تناسخ الأرواح ، وهي فكرة ترتب عليها انعدام المسئولية لدى الانسان ، باعتبار أن روحه سبق وأن وجدت في إنسان آخر أو في حيوان آخر ، وانتقلت منه بعد أن مات جسده ، وسوف تنتقل من هذا الانسان الى غيره ، وتظل في دورة هكذا ، فلا يتحمل إنسان وزر إنسان أو حيوان آخر ، ثم جاءت فكرة الخطيئة في المسيحية ، وأن المسيح صلب كفارة لخطايا البشر ، فآدم أخطأ وكان خطأه سبب الهبوط من الجنة ، وعيسى كفر عن كل خطايا البشر بالقتل والصلب كي يدخلوا الجنة .

وبذا فقد الانسان معنى المسئولية ، وسرت العدوة قبل ذلك الى اليهودية ، حيث اعتقد اليهود بأنهم شعب الله المختار ، وأنهم يتقربون الى الله باستباحة دماء وأموال وأعراض غير اليهود ، وهنا يظهر انعدام مسئولية اليهودى عن جرائمه التي يرتكبها في غير اليهود .

من ذلك يتبين لنا حين نقرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسئولية ، وحين نتدبر آيات القرآن الكريم التي تتعلق بالمسئولية ، نرى أن الاسلام قد رد البشرية الى الطريق الأقوم وهداها الى سبيل الرشاد .

يقول الأستاذ العقاد : كان القول الشائع أن عصيان آدم جريرة لايسأل عنها وحده بل يسأل عنها كل ولد من ذريته ، أما الدعوة الاسلامية ، فالمسئولية انفرد فيها شيء جديد كل الجدة ، لم يتطور مما تقدم ولم يكن نتيجة قط لاحدى هذه المقدمات ، ومعجزة المعجزات فيها ، أنها قامت بالمسئولية الفردية حيث يصدها كل عرف قائم ويعوقها كل نظام مصطلح عليه في المعاملات والعقوبات قامت بها في أعماق الجزيرة العربية ، ولا قانون فيها غير قانون الثأر ، ولاشريعة لها غير شريعة القبيلة ، وتعلم الناس (**وأن ليس للانسان الا ماسعى**) وأن جيلا لايؤخذ بجريرة

أسلافه ولايؤخذ خلفاؤه بجريرته (**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ماكسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون**) ، (**كل امرىء بما كسب رهين**) ، فمرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ماعمله الاسلام وحده مبتدئا على الرغم من العوائق والمتناقضات .

ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة من نوافل الرأى على حواشي العقيدة ، ولكنها هي الفتح الأكبر من فتوح الضمير في جميع مراحل التاريخ ، إذ لا قوامة للخلق والدين بغير التبعة ولامعنى بغير التبعة لتكاليف ولاحساب .

إن الحديث بذكر الامام الذى على الناس لخطورة موقعه وعظم مسئوليته ، ونحن نعلم أن الاسلام قد حدد شروطا معينة لتعيين الامام ، منها العلم والعدالة والصدق والأمانة والقدرة على أداء الواجبات الموكلة إليه وغير ذلك من الشروط .

فالامام مسئول عن كل من يعيش في ظل المجتمع الاسلامي مسئولية كاملة عن تحقيق الأمن وحمايتهم من غائلة الجوع ، وتوفير كل الضرورات لهم ، وتحقيق العدل واقامة الحق ، وقد سمى القرآن الكريم هذه الولاية أمانة فقال (**إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**) .. كما سماها الرسول صلى الله عليه وسلم أمانة ، حين جاء أبو ذر يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عملا من أعمال المسلمين فقال له : يا أباذر إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها » . وفي الأثر « من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى إنسانا بمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين » فلابد أن يستشعر حاكم المسلمين عظم المسئولية الملقاة على عاتقه يوم القيامة .

الامام مطالب بأن يوفر للناس الأمن والسكن والهداية ، فنحن نجد مثلا عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه وارضاه ، دخلت عليه فاطمة زوجته فوجدته يبكي وينتحب من البكاء ، فقالت له مايبكيك ياأمير المؤمنين ؟ فسكت ، وقال لها إليك عني ، فقالت مايبكيك ياأمير المؤمنين ، فسكت وقال لها : إليك عني ، وفي المرة الثالثة : قال لها كيف لا أبكي وقد وليت أمر هذه الأمة ، وفيها الغريب االضائع واليتيم

البائس والفقير الجائع وأنا مسئول عن هؤلاء جميعا ، واخشى يوم القيامة أن آتى والله حسيبي ومحمد صلى الله عليه وسلم حجيجي ولاتقوم لي عند الله قائمة من عذر ، ثم بكى طيلة ليلته .

هذا استشعار لعظمة المسئولية ، ولثقل الأمانة ، لكن هذا الامام له علينا حق أيضا كما لنا عليه حقوق ، هو حق النصيحة ، والذى يجبن عن كلمة الحق هو انسان تخلى عن رسالته ، وفي الحديث (سيد الشهداء حمزة ورجل قام الى إمام جائر فنهاه فقتله) ، وفي الحديث أيضا (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) ، وفي الحديث أيضا (الدين النصيحة ، قلنا لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) ، إذن هناك فرض أساسي في علاج الحكام والتنبيه الى الأخطاء ، وهذه مسئولية العلماء ومسئولية غير العلماء ، لأنها مسئولية جماعية ، وهناك مسئولية الرجل عن أسرته ، فهو مسئول عن رعايتها وحمايتها والحفاظ عليها وتنشئة الأولاد نشأة إسلامية صالحة ، ثم هناك مسئولية المرأة عن الزوج والأطفال وعن المال وعن صيانة عرض الرجل ، فان غاب عنها زوجها حفظته في عرضه وماله ، وان نظر اليها زوجها سرّته ، وان أمرها أطاعته ، وهناك مسئولية الابن عن أداء حقوق الوالدين ، وهي حقوق كثيرة فصلها العلماء ، كما أنه مسئول عن حماية مال أبيه من الضياع ، والمشاركة في تحمل المسئولية مع الوالدين بالنسبة لكل أفراد الأسرة .

هناك مسئوليتنا عن الخادم ومسئولية الخادم عنا ، فأنا مسئول عن خادمي بين يدى الله وهو يحاسبني اذا كان عندى خادم ، إذ لابد أن يأكل مثلما آكل ، وان يشرب مثلما اشرب ، وأن يلبس مثلما البس ، وألا أكلفه من العمل بما لايطيق ، وأن أدعوه الى الهداية ، وأن أيسر له أمر الزواج ، وأن أعينه على متاعبه ، وأن أحل مشاكله ، وهو مسئول عني بحفظي في عرضي ومالي وفي حراستي بسمعه وبصره وقوته ، وكل مايملك ، إذن هي مسئولية متبادلة ، لايوجد أحد يخلو من هذه المسئولية التي هي حق الله على الناس جميعا ، والاسلام لكي يضمن نجاح الانسان في قيامه بمسئوليته وضع سلطات ثلاث .

(سلطات الرقابة)

السلطة الأولى : سلطة الله عز وجل .
السلطة الثانية : سلطة الضمير التي نسميها في الاسلام التقوى .
السلطة الثالثة : سلطة الرأى العام المسلم .

يقول الله عز وجل (**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**) ، فلابد من تقوى ورقابة ذاتية داخلية في نفس كل انسان ، وما لم توجد هذه الرقابة فثق ان هذا الانسان لن يستطيع تأدية عمله كما يجب ، قلب الانسان مثل الدينامو الذى يقود السيارة ، ومعرفة الله وحبه هي الطاقات التي توجه هذا الدينامو أو الماتور للعمل وتولد فيه الطاقة على العمل ، فاذا ضل القلب عن حب الله ومعرفته فلا فائدة منه ، وأول ماتبدأ به أن تعرفه وأن تحفظه « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك واذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيءلم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » ، ولابد ان تبحث عما يحببك في ربك ، وأن يحبب الله فيك من الأعمال الصالحة ، ثم تأتي سلطة الرأى العام المسلم في قوله عز وجل والمؤمنون وهي سلطة على الحاكم والمحكومين على حد سواء .

وحين تخلى الرأى العام المسلم عن أداء دوره ، انهارت الأمة وضاعت مصالحها .. وسلطة الضمير حيث أن كل شيء مسجل علينا في الدار الدنيا

ونحاسب عنه يوم القيامة (**ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولايظلم ربك أحدا**) .

(أحصاه الله ونسوه) ، أى أن كل انسان قد أحصى الله عمله وسجله عليه في الدنيا ، حيث قد ينسى الانسان جرائمه اذا تقادم العهد بها ، لكن الكتبة الكرام الذين سجلوا عليه كل شيء لاينسون شيئا من جرائمه .

إن الهدف من تقرير المسئولية هو أن يدرك المسلم أبعاد رسالته في هذا الوجود ، فهو مسئول عن إقامة منهج الله في الأرض ، ونشر الهداية وتحقيق العدل في المجتمع الانساني ، وحماية الفضيلة وتعميم الخير لكل البشر .

(أمـة الشـهادة)

الأمة الاسلامية مسئولة بين يدى الله عن نشر الهداية الإلٓهية في كل مكان **(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)** . مامعنى هذه الشهادة ؟ معناها : أن تبلغ العالم هدى الله ، وان نشهد في محكمة العدل الإلٓهية في الدار الآخرة أننا بلغنا رسالة الله الى كل البشر .

حين نسأل الفقهاء عن شروط الشاهد فيقولون انه لابد فيه من صفات : العلم والعدالة والصدق والأمانة .. كيف يكون شاهدا وهو خائن .. كيف يكون شاهداً وهو كاذب أو كيف يشهد بما لايعلم .

فالمسلم شاهد عند الله يوم القيامة بأنه بلغ دعوة الله ، والأمة المسلمة أمة الشهادة يشترط فيها العلم بحقائق الاسلام ومشاكل المجتمعات البشرية ، ويشترط فيها أن تكون صادقة مع الله في تنفيذ شرعه ، لأنها مؤتمنة عليه ، ثم هي مكلفه بتبليغه الى البشرية جمعاء ، وانها سوف تشهد بذلك عند الله في الدار الآخرة ، لكن أمتنا اليوم قيعان تنحدر إليها عصارات وأمراض الحضارة المادية الزائفة ، ولاتستطيع أن تتخلص من محنتها ، والعالم الغربي الآن في طريقه الى الانحدار .. يقول كيسنجر (إننا ندرك أن شمس الغرب قد مالت عن كبد السماء منحدره بسرعة الى الأفول وأن الذرة لن تحل مشاكل الغرب) .

لقد بلغ من الانحلال الغربي ، أن رجلا يرتكب جريمة مع ابنه ثم يبيعه بثلاثة آلاف دولار ، وبلغ من الانحدار أن اخترعوا دينا كذبا وأفكا وبهتانا ، حين رأى

الرجل الأبيض أن سلالته قد بدأت تنكمش بعكس الأجناس الأخرى ، فجاء رجل أفاق وعمل دينا .. قال أنا ادعو الى دين جديد ماهو الدين الجديد ؟ .

يريد أن ينجب أطفالا من سفاح يملأ بهم المجتمع فانشأ جمعية من فتيات جميلات وطلب منهن ان يحملن من سفاح من رجال أثرياء ، أو عباقرة ، وقام أفراد هذه الجمعية بهذا العمل باعتباره قربى الى الله حتى لاينقرض الجنس الأبيض ، وقالت إحداهن لقد تسابقت انا وفلانة للزنا من فلان العبقرى ووفقني الله للانتصار ، وحملت منه من سفاح وأنجبت طفلا ، أى أنها تعتقد أنها تتقرب الى الله بالزنا ، أى دين هذا وأى حضارة هذه ، إنها علامات الأفول التي تسبق نهاية حضارة الانحلال .

هذا الانحدار في الحضارة المادية الغربية يضاعف مسئوليتنا بين يدى الله .. لايمكن أن نبلغ شرع الله ونحن بعيدون عن هدى السماء ، ولانحكم كتاب الله ، لأننا نعرف من قواعد الطبيعة أن الماء ينحدر من أعلى لأسفل ولكنه لايصعد من أسفل الى أعلى الا بروافع .

فالمجتمع الغربي متقدم في الناحية الحضارية فارتفع وانحدرت الينا عكارته وستظل تنحدر المساوىء الينا مادمنا متخلفين .

ومن عجيب أنه بين الحين والآخر تظهر دعوات الانحلال والتفسخ من كل القيم الخلقية في بلاد المسلمين تحت عنوان براق (التحديث والمعاصرة) ، ومرة أخرى تحت (التطور أو الحضارة أو التقدم) ، وغير ذلك من الدعوات التي لايعرف مروجوها ما المراد بها أو أن يكونوا عملاء .

هذه الدعوات تستهدف — كلها — هدم الاسلام من اساسه ، واقتلاعه من جذوره من بلده وبلاد المسلمين جميعا . إذن المسلم مطالب اليوم بأن يصل الى درجة الاشعاع الحضارى ، والأمر الثانى أو الأول بالمعنى الأدق أن يكون ربانيا ، والربانية : تعني أن يتعلم حقائق الاسلام وأن يعمل بها ، وأن يعلمها للناس ، وأن يصبر على

العلم والعمل وتعليم الغير ، (**ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون**) .

هذه رسالة المسلم ومسئوليته اليوم وهي تتلخص في الربانية ، والوصول الى الاشعاع الحضارى ، ليستطيع أن يحمل رسالته في الوجود من جديد .

الفهرس

المؤلف فى سطور

- من مواليد عام ١٩٣١ .
- تلقى العلم بالأزهر الشريف وتخرج من كلية اللغة العربية عام ١٩٥٩ .
- حصل على العالمية مع اجازة التدريس (الدكتوراه) من كلية أصول الدين عام ١٩٧١ فى العقيدة والفلسفة .
- عمل بالتدريب والوعظ بجمهورية مصر العربية وبدولة الإمارات العربية المتحدة .
- يعمل الآن رئيسا لقسم الشئون الدينية بالقوات المسلحة فى دولة الإمارات العربية المتحدة .
- ألف العديد من الكتب منها :

— الفتاوى (أربعة أجزاء) .

— العقيدة الإسلامية .

— رهبان الليل وفرسان النهار .

— قضايا معاصرة .

رقم الايداع : ٢٨٣٩ / ٨٨

مطبعة العروبة ٢٤٦٤٢٥٥